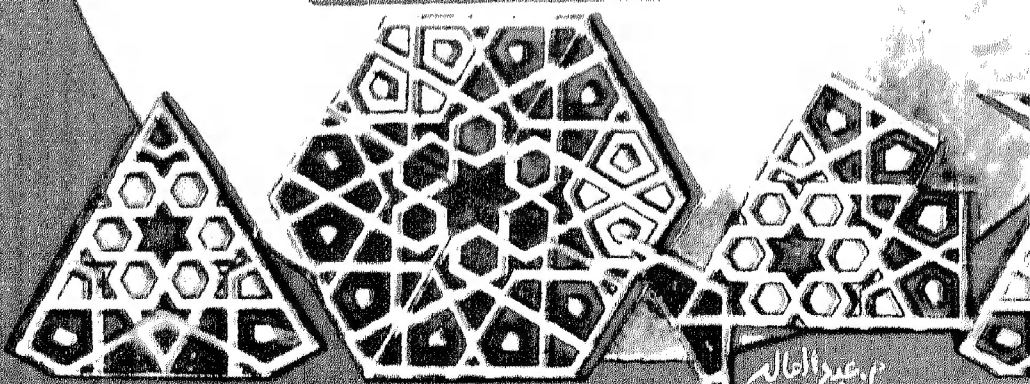
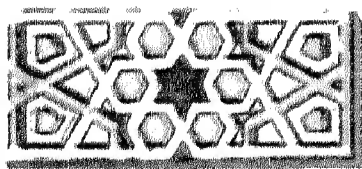


السياسة المالكية

لعثمان بن عفان

تأليف: قطب إبراهيم محمد



م. عبد الحليم



0007628

Bibliotheca Alexandrina

السياسة المالية لعثمان بن عفان

تأليف: قطب ابراهيم محمد



المكتبة العامة للكتاب

١٩٨٦

الاخراج الفنى

راجيه حسين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يتناول هذا الكتاب موضوع السياسة المالية في عهد الخليفة عثمان ابن عفان رضى الله عنه . والسباسة المالية في عهد عثمان بن عفان هي ثالث مالية عامة اسلامية بعد الرسول صلى الله عليه وسلم .

فكانت أولى المالىات العامة الاسلامية بعده عليه الصلاة والسلام ، هي المالية العامة في عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، نبعت من القرآن الكريم وسنن رسول الله ، وتخلفت بتعاليم الاسلام من عدل في الجباية ورشد في الانفاق العام وعفة الخليفة والولاة وعمال الخراج عن الأموال العامة وزهدهم فيها ، وكانت في بدء عهد الخليفة الأول محدودة الموارد غير أن انتصاره على مانعى الزكاة وما تب في عهده من فتوحات ودخول الناس في دين الله أفواجا مكنت المالية العامة من تحقيق زيادة في الإيرادات العامة عن النفقات العامة وتوزيع عطاء قليل من بيت المال على المسلمين .

وثانى المالىات العامة الاسلامية بعد الرسول صلى الله عليه وسلم هي المالية العامة في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، تميزت بأنها منضبطة نتيجة حسم الخليفة وعفته واقتداء الولاة به ، غزيرة الموارد نتيجة امتداد الدولة الاسلامية لبلاد جديدة أدى المسلمون فيها الزكاة وأدى أهل الكتاب الجزية والخراج وآل لبيت المال نصيبه من الغنائم التي غنمها المسلمون حين تحقق نصر الله بفتح هذه البلاد فتمكن الخليفة من توزيع فائض الأموال العامة على المسلمين على هيئة إعطيات طفرت قيمتها عما كان يوزع في عهد الخليفة أبى بكر رضى الله عنه .

وثالث المالىات العامة الاسلامية بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم هي المالية العامة في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه . وقد حاولنا في هذا الكتاب أن نستخلص أسس سياسته من كتب عامة للخليفة صدرت وأن نبلور كيائها طبقا لقواعد أصولية للمالية العامة استقرت وأن نوضح مسار تنفيذها استنادا لوقائع تاريخية رويت وأن نحلل نتائجها المالية بمقارنات بين إيرادات عامة جبيت ونفقات عامة

صرفت وأن نحدد تأثيرها بالمجتمع وتأثير المجتمع بها بمناقشة آراء عامة في هذا العهد أبديت ودعوات عامة أعلنت وفتنة كظلمة الليل وقعت •

وقد صادف بحث الموضوع الكبير من الصعاب بسبب عدم وجود كيان محدد ومتكامل للسياسات المالية في تلك العهود كما هو الشأن في العصر الحديث ، وقلة اهتمام المراجع التاريخية بأبرز المسائل المالية وعدم وضوح الصورة الرقمية لحركة المالية العامة في ذلك العهد وتداخل الوقائع ذات الطابع المالي مع الأحداث السياسية التي اتسمت بطابع خاص في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه •

وبالرغم من هذه الصعوبات فقد تم بعون الله وتوفيقه إبراز الملامح الكاملة للسياسة المالية الإسلامية لعثمان بن عفان ومقارنتها بالسياسة المالية للخليفة السابق عمر بن الخطاب •

ولما كان وضع السياسات المالية موضع التنفيذ قد لا يحقق كل أو بعض النتائج التي استهدفها سياساتها المعلنة فقد تم تتبع تنفيذ السياسة المالية لعثمان بن عفان في ضوء ما صدر منه من قرارات وما قام به ولاته وعماله من أعمال •

ولما كانت بعض نواحي التنفيذ قد تعرضت للنقد من معارضين في عهده ومن بعض الكتاب والمؤرخين فقد تم مناقشة وجوه النقد ودفاع الخليفة نفسه ردا على هذا النقد لاستخلاص الرأي الحق فيما أبدى من آراء •

وكي يكون تتبع السياسة المالية الإسلامية في عهد عثمان بن عفان ميسرا واضحا بعد أن مضت عليها مئات السنين فقد تم وضع عمليات المالية العامة في عهده في إطار من الفن المالي الحديث وذلك بتصوير موازنات عامة تحتوى إيرادات ونفقات كل أنشطة المالية العامة في ذلك العهد فتم تصوير موازنة عامة للزكاة ومصارفها وموازنة عامة للإيرادات من الضوائع وتركات من لا وارث لهم ومصارفها وموازنة عامة للإيرادات من خمس الغنائم ومصارفها وموازنة عامة للإيرادات من الجزية والخراج وعشور التجارة ومصارفها •

وقد روعي في وضع هذه الموازنات مطابقتها لأحكام القرآن الكريم وسنن الرسول صلى الله عليه وسلم ومبادئ الشريعة الإسلامية •

ولما كان التوازن المالي والاجتماعي هو هدف أي سياسة مالية عامة رشيدة ، فقد تناول البحث مناقشة مدى تحقيق تنفيذ السياسة المالية

فى عهد الخليفة المالب للتوازن المالى كما نم مناقشه أتر هذه السياسة فى تحقيق التوازن الاجتماعى وفى ضوء دعوة صدرت من صحابى جليل فى عهد عثمان هو أبو ذر الغفارى وكانت الدعوة تدعو الاغنياء الى عدم اكتناز الأموال وتقرر حقوقا للفقراء فوق الزكاة فى اموال الاغنياء .

لم نكن دعوة أبى ذر هى الدعوة الوحيدة فى عهد عثمان بل قامت أيضا معارضة وجهت فى بادىء الأمر لبعض نواحى سياسات الخليفة نم ما لبنت أن انحرفت وتحولت الى فتنة كبرى أدت الى قتل الخليفة نفسه . والفتن اذا وقعت تليها النكسات والنكسات تؤثر على السياسات العامة ومنها السياسة المالية ، لذلك تم بحث الفتنة وأثارها على السياسة المالية الاسلامية .

وفى النهاية نم وضع بقييم عام للسياسة المالية العامة فى عهد الخليفة عثمان رضى الله عنه .

وفى ضوء ما سبق حوى الكتاب خمس أبواب وكل باب مكون من فصلين على النحو التالى :

الباب الأول : ويتناول عموميات عن شخصية عثمان بن عفان ومبايعته ومقدمات سبقت عهده .

الفصل الأول : يوضح الوقائع النهائية لمبايعة عثمان بن عفان ويحلل مناقبه قبل الخلافة واسلامه وصلته بالرسول صلى الله عليه وسلم وما اتسم به من حياء ولين وينوء عن تطوعه بأمواله فى سبيل دعوة الاسلام ويشير الى الحبرات التى اكتسبها فى المسائل العامة قبل توليه الخلافة .

الفصل الثانى : يختص بمناقشة مقدمات عامة صدرت عهد عثمان شملت تحليلا لشخصيات بعض الصحابة باعتبارهم جماعة لها ثقلها فى ادارة الدولة الاسلامية ولها رأى فى سياستها العامة ومنها السياسة المالية ، ومن هذه المقدمات أيضا نوايا للخليفة السابق بتعديلات فى السياسة المالية وخوف من فتن قد تحدث ومنافسات قبلية بين الهاشميين والأمويين وانتفاضات فى الأمصار قبيل ولاية عثمان الخلافة وقد تولاها فى سن الشيخوخة ونبؤات للرسول صلى الله عليه وسلم باستشهاد عثمان بن عفان .

الباب الثانى : يختص بالسياسة المالية فى عهد الخليفة عثمان .

الفصل الأول : ويتناول تحليل كتب أذاعها عثمان ومنها تم استنتاج أركان السياسة المالية .

الفصل الثاني : يناقش تنفيذ السياسة المالية في ضوء موازنات عامة تم تصويرها للزكاة والضوائع وخمس الغنائم .

الباب الثالث : ويناقش تنفيذ السياسة المالية عن طريق الموازنة العامة للدولة في عهد الخليفة عثمان بن عفان .

الفصل الأول : ويعالج الإيرادات العامة لهذه الموازنة وهي الجزية والخراج وما يتصل بها من فتوح تمت في عهد عثمان بن عفان ، وينوه عما حصل عليه بيت المال من جزية مصدرها هذه الفتوح وخراج فرض على أرض الأمصار كما يتناول الإيرادات العامة من عشور التجارة .

الفصل الثاني : يحلل النفقات العامة لهذه الموازنة سواء آكانت نفقات جارية كمرتبات الولاء والعاملين بالدولة أو نفقات عامة وجهت لإقامة المساجد وحفر الآبار وإنشاء الأسطول البحري للدولة كما يناقش هذا الفصل ما أثير من نقد وجه لبعض النفقات العامة ويبدى الرأي فيها في ضوء أحكام الدين وتعاليمه .

الباب الرابع : ويتناول التوازن المالي والاجتماعي في عهد الخليفة عثمان ابن عفان .

الفصل الأول : وينتهي الى أن المالية العامة في عهد عثمان بن عفان توازنت ماليا وحقت فائضا مكن الخليفة الثالث من استمرار توزيع الأعطيات على الناس وزيادتها ، كما تضمن هذا الفصل الإشارة الى اتجاه جديد في صرف الأعطيات وهو تلون بعضها باللون السياسي بعد أن كانت الأعطيات جميعا ذات طابع قومي ديسي محايد .

الفصل الثاني : ويناقش عدم التوازن الاجتماعي وأسبابه ويربط بينه وبين دعوة أبي ذر الغفاري التي نادت بمزيد من الحقوق للفقراء لدى الأغنياء ويحلل الدعوة وحياة صاحبها وزهده وتركه المدينة ووفاته ، على أن من أهم ما يحويه هذا الفصل هو الإشارة الى عدم تنفيذ وعد عمر ابن الخطاب بأن يجعل الناس في العطاء بيانا واحدا وأخذ فضول الأغنياء وتوزيعها على الفقراء ويوضح وسائل تعديل السياسة المالية فيما لو رؤى وقتئذ تنفيذ ما نواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

الباب الخامس : ويتناول الفتنة الكبرى التي وقعت في عهد عثمان وآثارها المالية .

الفصل الأول : يناقش أسباب الفتنة الكبرى وخطواتها والآراء التي أبدت بشأنها .

الفصل الثاني : ويوضح آثار الفتنة الكبرى على المالية العامة .
ويختتم البحث بوضع تقييم عام للمالية العامة في عهد عثمان
ابن عفان رضي الله عنه .

فاذا ساهم هذا الكتاب في لقاء الضوء على المالية العامة الثالثة
للدولة الاسلامية بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عهد الخليفة
عثمان بن عفان رضي الله عنه .

فما هذا الضوء الا قبس من نور الله جل وعلا .

والله نور السماوات والأرض .

قطب ابراهيم محمد

الباب الأول

مبايعة عثمان بن عفان
ومناقبه وخدمات سبقت عهده

الفصل الأول

مبايعة عثمان بن عفان بالخلافة والتنويه عن مناقبه السابقة للخلافة

مبايعة عثمان بن عفان رضي الله عنه بالخلافة :

صاح بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم صائح : الصلاة
جامعة ، وخرج عبد الرحمن بن عوف وعليه عمامته التي عممه بها رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، متقلدا سيفه حتى ركب المنبر ، فوقف وقوفا
طويلا . ثم دعا الله بما لم يسمعه الناس ثم تكلم فقال : أيها الناس ،
انى قد سألتكم سرا وجهرا عن امامكم ، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين
الرجلين : اما على واما عثمان ، فقم الى يا على .

فقام اليه على ، فوقف تحت المنبر فأخذ عبد الرحمن بيده .

فقال : هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبى بكر
وعمر ؟

قال : اللهم لا ولكن على جهدى من ذلك وطاقتى .
فأرسل يده .

ثم نادى : قم الى يا عثمان .

فأخذ بيده ، وعثمان فى موقف على الذى كان فيه .

فقال : هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبى بكر
وعمر .

قال : اللهم نعم .

فرفع عبد الرحمن بن عوف رأسه الى سقف المسجد ويده فى يد
عثمان .

ثم قال : اللهم اسمع وأشهد . اللهم انى قد جعلت ما فى رقبى
من ذاك فى رقبة عثمان .

وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه عنقه المنبر .

فقد عبد الرحمن معبد النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر ،
وأقعد عثمان على الدرجة الثانية فجعل الناس يبايعونه .
وتلكأ على .

فقال عبد الرحمن : « فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى
بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » (الفتح / ١٠) .
فرجع على يشق الناس حتى بايع .

وبذلك أصبح عثمان بن عفان رضى الله عنه ثالث الخلفاء
الراشدين . وتم ذلك يوم الاثنين ليلة بقيت من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ
واستقبل الخلافة في المحرم ٢٤ هـ وعمره وقتئذ ثمان وستين عاما
ميلاديا أو سبعين عاما هجريا وتم ذلك وكان عمر بن الخطاب رضى الله
عنه قبل موته قد رشح للخلافة بعده ستة ليخار الناس منهم وهم على
عثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص
والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وهم من المبشرين بالجنة ، وقد
أخرج عبد الرحمن بن عوف منها نفسه وشاور الناس وكذلك المرشحين
للخلافة ما عدا طلحة فقد كان غائبا عن المدينة وأعطاهم عبد الرحمن
مئتا ألف لا يخص ذا رحم لرحمه ولا يالو المسلمين وأعطوه مئتا ألفا على
أن يرضوا من اختاره لهم . فأخذ منهم مئتا ألفا وأعطاهم منه وتمت البيعة
لعثمان على النحو السابق ذكره وقدم طلحة في اليوم الذى بويع فيه
عثمان وبايعه (١) .

انعكاس شخصيات الولاة على سياساتهم :

تنعكس مواصفات الانسان على عمله وتتاثر اية سياسة عامة
يضعها من يقودون الأمم ومن يلون أمور الرعية بشخصياتهم . ويضرب
لنا القرآن الكريم المثالين التاليين :

فيقول الله سبحانه وتعالى على لسان ابنة شعيب لأبيها عن موسى
عليه السلام « قالت احدهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت
القوى الأمين » (القصص / ٢٦) .

فموسى عليه السلام كان قويا آمينا والقوى والأمانة تؤديان الى اتقان
رعاية الغنم التى رشحت ابنة شعيب موسى عليهما السلام للقيام بها
ذلك لأن الغنم تمشى مسافات طويلة يتبعها الراعى ويحتاج لمياه للسقاية

(١) تاريخ الطبرى لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى - الجزء الرابع - الطبعة
الرابعة - دار المعارف ص ٢٢٧ وما بعدها .

فلا ينقن رعايتها وسقايتها الا الفوى من الرعاة . كما ان نناج الاغنام من صغار وألبان وصوف يستلزم امانة الرعاة حتى نؤول كاملة غير منقوصه الى اصحاب الاغنام .

ويقول الله جل وعلا أيضا على لسان يوسف عليه السلام :

« قال أجعلني على خزائن الأرض انى حفيظ عليم » (يوسف / ٥٥) .

وبهذا يخاطب يوسف عليه السلام ملك مصر ويرشح نفسه لولاية خزائنها وهو أهل لهذا الترشيح لأنه تتوفر فيه صفتان وهما سدة المحافظة على المال العام وسعة علمه بتخطيطه وتنظيمه وإدارته وتنفيذ عملياته ورقابته .

واقترءا بالنمط القرآنى نبرز فيما يلى ملامح شخصية الخليفة الثالث لرسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضى الله عنه .

اسلام عثمان بن عفان :

— كان اسلام عثمان قديما قبل دخول الاسلام دار الارقم (١) وكان سنه قد تجاوز الثلاثين ، دعاه أبو بكر الى الاسلام فاسلم . ولما عرض أبو بكر عليه الاسلام قال : ويحك يا عثمان والله انك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل . هذه الأوثان التى يعبدها قومك ، أليست حجارة صماء لا تسمع ولا تبصر .

فقال : بلى والله انها كذلك .

قال أبو بكر : هذا محمد بن عبد الله قد بعته الله برسالاته الى جميع خلقه فهل لك أن تأتية وتسمع منه .

فقال عثمان : نعم .

فلما دخلا على الرسول أسر أبو بكر اليه فى أذنه (٢) .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لعثمان : يا عثمان أجب الله الى جنته فانى رسول الله اليك والى خلقه .

قال عثمان : يارسول الله قدمت حديثا من الشام فلما كنا بين معان والزرقاء فتحن كالنيام اذ مناد ينادينا :

(١) الطبرى — جزء رابع — طبعة دار المعارف ص ٢١٩

(٢) الخلفاء الراشدون تأليف د. عبد المصنود نصار وآخرون ص ٩٣ .

« أيها النيام هبوا فإن أحمد قد خرج بمكة » .

فقدمنا فسمعنا بك .

ويقول عثمان عن اسلامه : فوالله ما ملكت حين سمعت قوله
(قول الرسول) الا أن أسلمت وشهدت أن لا اله الا الله وحده لا شريك له
وأن محمدا عبده ورسوله ٠٠٠ (١) .

— وكان اسلام عثمان سببا في عداوة أهله حتى لقد أخذه عمه
الحكم بن أبي العاصي بن أمية ، فأوثقه رباطا .

وقال له : تدع دين أبائك الى دين محمد ٠٠٠ والله لا أدعك أبدا
حتى تدع ما أنت عليه .

فقال عثمان : والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه .

ورأى عمه صلابته في الحق وشدة استمساكه به فلم يجد بدا من
ارساله (٢) .

ويروى كما جاء في ابن الأثير ، أن عقبة بن معيط شكاه الى أمه
وكان قد تزوج بها بعد وفاة والده عفان .

فقال لها ؟ ان ابنك قد صار ينصر محمدا .

فلم تنكر ذلك من ابنها .

وفالت : ومن أولى به منا ٠٠ أموالنا وأنفسنا دون محمد .

فأسرة أمه كانت لا تخلو من عطف قوى نحو صاحب الدعوة الى الدين
الجديدة (٣) .

وهكذا كان عثمان من الأولين السابقين الى الاسلام وكان أحد ثمانية
سبقوا الى الدين . تلقى الاسلام عن الرسول وعاش معه وهو يتأدى
بالدعوة ويطبّقها فتتلمذ وتعلم في المدرسة المحمدية مما ينزل به الوحي
وما يلقيه الرسول صلى الله عليه وسلم على أصحابه من تعاليم وحكم
ومواعظ .

— ومنذ اليوم الذي أسلم فيه عثمان لزم النبي حيث كان ولم
يفارقه الا للهجرة بأذنه أو في مهمة من المهام التي يندب لها ، ولا يغنى

(١) عثمان ذو النورين محمد رضا ص ١٢ — ص ١٣٢ .

(٢) عثمان بن عفان — د. محمد حسين هيكل — طبعة ثانية — دار المعارف ص ٢٨

(٣) عثمان بن عفان ذو النورين — عباس العقاد — طبعة المكتبة العصرية ص ٥٢ ، ٥٣

أحسد فيها غيره - شأنه في هذه الملازمة شأن الخلفاء الراشدين جميعا .

وينوه الرسول الكريم عن هذه الرفقة ولكن في الجنة ، فيقول صلى الله عليه وسلم « لكل نبي في الجنة رفيق ورفيقي في الجنة عثمان » .

- وكان عثمان موضع سر النبي عليه الصلاة والسلام في مرضه .
ففي رواية عن السيدة حفصة أنها حدثت السيدة عائشة نذكرها بذلك .

فقلت : اني كنت أنا وأنت عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأغمى عليه .

فقلت لك : أترينه قد قبض .

فقلت : لا أدري .

ثم أفاق فقال : افتحوا له الباب .

فقلت لك : أبوك أو أبي ؟

فقلت : لا أدري .

ففتحنا فإذا عثمان .

فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال : أدنه .

فأكب عليه عثمان فساره بشيء لا أدري أنا وأنت ماهو ، ثم رفع رأسه .

فقال (الرسول) : أفهمت ما قلت لك .

قال (عثمان) : نعم .

قال الرسول : أدنه .

فأكب (عثمان) عليه أخرى فساره بشيء ما ندرى ماهو ، ثم رفع رأسه .

فقال (الرسول) : أفهمت ماقلت لك .

قال (عثمان) : نعم . سمعته أذنأى ووعاه قلبي .

ثم أمره فأنصرف (١) .

(١) الرواية عن أبي عبد الله الجارى وهي رواية راجحة وردت في كتاب عثمان ابن عفان ذو النورين لعباس العقاد - مطبعة المكتبة المصرية ص ٨٢ .

— وكان عثمان يهيم بالعبادة ، وفى ذلك وصفه معاصروه فقالوا
كان عثمان يصوم كثيرا ويقوم الليل الا هجعة من أوله (١) •

• وكان عبد الله بن عمر يقرأ الآية الكريمة •

«أمن هو قانت أثناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو
رحمة ربه» (الزمر/ ٩)

• تم يقول : هو عثمان بن عفان (٢) •

• وقد روى عن عثمان بن عفان قوله :

(لو أنى بين الجنة والنار ، لا أدري الى أيتها يؤمر بى ، لتمنيت
أن أصير رمادا قبل أن أعلم الى أيتها أصير) (٣) •

عثمان بن عفان تصلحه بالرسول صلى الله عليه وسلم صلوات
عديدة :

— وثالث الخلفاء الراشدين له أكثر من صلة بالرسول صلى الله
عليه وسلم فقد ولد بالطائف بعد الفيل بست سنين •

أبوه عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف •
فعثمان رضى الله عنه قرشى أموى يجتمع هو والنبي صلى الله عليه وسلم
فى عبد مناف •

وأمه أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد
مناف • وأم أروى أم حكيم بنت عبد المطلب عمّة رسول الله صلى الله
عليه وسلم (٤) •

— وتزوج عثمان رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمها
خديجة رضى الله عنها •

وقد هاجر عثمان الى أرض الحبشة مع زوجته رقية فكان أول
مهاجر لها ، فأبطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهما ، فجعل يتوكف
الخبر ، فقدمت امرأة من قريش من أرض الحبشة فسألها •

• فقالت رأيتها •

(١) وداعا عثمان — خالد — خالد — طبعة دار المعارف ص ٤٢ •

(٢) المرجع السابق ص ٤٨ •

(٣) المرجع السابق ص ٥٢ •

(٤) الطبرى — جزء ٤ — طبعة رابعة — طبعة دار المعارف ص ٤٢٠ •

فقال : على أى حال رأيتهما .

قالت : رأيتهما وقد حملها على حمار من هذه الدواب وهو يسوقها .

فقال : صحبهما الله . أن كان عثمان لأول من هاجر الى الله عز وجل بعد لوط .

ولما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بدر كانت ابنته رقية مريضة فتخلف عليها عثمان بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتوفيت يوم وصول زيد بن حارثة بظفر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصرة المسلمين .

— وبعد وفاة رقية زوج النبي صلى الله عليه وسلم عثمان أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى ذلك يروى سعيده بن المسيب أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى عثمان بعد وفاة رقية مهموما لهفان .

فقال له : ما لي أراك مهموما .

فقال : يا رسول الله وهل دخل على أحد ما دخل على ، ماتت ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى كانت عندي وأنقطع ظهري وأنقطع الصهر بيني وبينك ، فزوجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أختها أم كلثوم على مثل صداقها وعلى مثل عشرينها (١) .

وقد سمي بنى النورين لأنه تزوج من بنتي الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يعلم أحد تزوج بنتى نبي غيره .

ويقال أنه سمي بذلك لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال فيه نور أهل السماء ومصباح أهل الأرض .

ويقال انه سمي بذلك لأنه كان يكثر من تلاوة القرآن كل ليلة فى صلاته فالقرآن نور وقيام الليل نور (٢) .

— وكان عثمان يحب الرسول صلى الله عليه وسلم ففى أيام خلافته ضرب رجلا فى منازعة استخف فيها بالعباس بن عبد المطلب عم الرسول .

(١) عثمان ذو النورين — محمد رضا — ص ٩ ، ١٠ ، ١٢
(٢) عثمان ابن عفان ذو النورين — عباس العقاد — ص ٧٩ .

فقليل له عن مبررات الضرب .

فقال : نعم ، أيفخم رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه وأرخص في الاستخفاف به لقد خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك ومن رضى به منه (١) .

حياء عثمان :

— روى عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا فاستأذن عليه أبو بكر فأذن له وهو على حاله واستأذن عليه عمر فأذن له وهو على حاله ثم استأذن فارخى ثيابه فلما قاموا .

قالت عائشة : « يا رسول الله استأذن أبو بكر وعمر فأذنت لهما وأنت على حالك فلما استأذن عثمان أرخيت عليك ثيابك » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عائشة ألا تستحي من رجل والله ان الملائكة لتستحي منه .

وقال عليه الصلاة والسلام أيضا : أرحم أمتي أبو بكر وأشدها في الله عمر وأشدها حياء عثمان (٢) .

— هذا والاستحياء من الحياء بمعنى الخجل والاحتشام ، وأعلى درجات الحياء ما كان منشؤه الشعور برقابة الله وعظم حقه .

قال عليه الصلاة والسلام : استحيوا من الله حق الحياء .

قالوا : انا نستحي من الله يا رسول الله .

قال : ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا وآثر الآخرة على الأولى .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم حياء بل كان شديد الحياء حتى لقد وصفه مخالفوه بأنه كان أشده حياء من العذراء في خدرها .

لكن حياء النبي كان مقصورا على ما لا يتصل بتبليغ الدعوة والنهوض بالرسالة وإقرار الحق وإقامة العدل ، فكان يغضب لله وجهه بتسفيه الشرك ويسخر من الضلال ولما لم يجد من امتشاق الحسام بدا شهر سيفه

(١) الطبرى جزء ٤ — مرجع سابق — ص ٤٠٠ .

(٢) وداعا عثمان — خالد محمد خالد — ص ٢٨ .

وجاهد في سبيل الله حتى أعلى كلمته ويمكن لدينه الذي ارتضاه.
لعباده (١) -

- وفيما يتعلق بالمال العام وهو مال المسلمين ، فانه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذا استحل البعض هذا المال بغير حق وهو مال الله انذى أداه الشعب لبيت مال المسلمين ، فينبغى أن يتحول حياء الحاكم الى غضب ويجهز بتسفيه اغتصاب الأموال العامة ويعمل على ردها الى بيت المال بكافة الطرق .

لين عثمان بن عفان :

- كان عثمان يتصف باللين ومما يذكر عن لينه أنه كان لا يوقظ نائما من أهله الا أن يجده يقطان فيدعوه فيناوله وضوءه وكان يلى وضوء الليل بنفسه فقبل له : لو أمرت بعض الخدم فكموك .
فقال : لا . الليل لهم يستريحون فيه (٢) .

وكان يهاب الحديث وكان لهيبته الحديث يعاف الحوار وطول الجدل فاذا التزم أمرا أصر عليه فتعذر صرفه عنه ، على أن هيبته لنحديث جعلته لين الجانب (٣) .

- هذا واللين من الخصال الحميدة ويقال لان الرجل لقومه وانقاد لهم وعاملهم بالرفق (٤) .

وقد خاطب الله جل وعلا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فقال :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فأعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمتم فتوكل على الله » (آل عمران / ١٥٩) .

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه لنا وخاطبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وشبههه فى لينه بإبراهيم عليه السلام حين قال :
« فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم »
(إبراهيم / ٣٦) .

(١) من أخلاق النبى - الدكتور أحمد محمد الحوفى - ص ٢٦٢

(٢) عثمان ذو النورين - محمد رضا - طبعة ثانية ص ١٢

(٣) عثمان بن عفان لمحمد حسين هيكل ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) معجم ألفاظ القرآن الكريم - المجلد الثانى - طبعة مجمع اللغة العربية -

وشبهه في لينة أيضا بعيسى عليه السلام حين قال :

« ان تعذبهم فأنهم عبادك » وان تغفر لهم فأنك أنت العزيز الحكيم »
(المائدة / ١١٨) .

ولكن كان لين الرسول صلى الله عليه وسلم يتحول الى حزم حينما يتطلب الأمر ذلك . وكذلك كان أبو بكر الصديق ، فقد تحول لينة الى حزم حينما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وامتنع البعض عن أداء الزكاة ، فأعلن عليهم حربا ، وقال قولته المشهورة « والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » .
وينبغي أن يكون ما فعله أبو بكر رضي الله عنه نموذجا لمن يلي أمر الأمة في شأن الأموال العامة ، فيسترد لبيت المال أية أموال أخذت بغير حق مهما كانت قوة من أخذوه بالباطل ولو كانوا أولى بأس أو سلطان أو جاه أو ذوى قرىبي أو من عليه القوم .

تعامل عثمان بن عفان في ماله تاجرا ومتطوعا به في الجهاد ولساقية المسلمين وتفريج قلوبهم .

— عثمان بن عفان ناشئة ثراء فالى قومه كانت اماره قوافل التجارة، واشتغل هو نفسه بالتجارة وورث النعمان في التجارة عن قومه وأبائه ، وكان لعثمان فيما ورثه عن أبيه ما جعله واسع الثراء . ولعله من الذين من الله عليهم بما أنزله في سورة قريش .

« لا يلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (سورة قريش) .

فقد ألقت قريش الرحلة في الشتاء الى اليمن وفي الصيف الى الشام في التجارة وغير ذلك ، ثم يرجعون آمنين في أسفارهم لعظمتهم عند الناس لكونهم سكان حرم الله ، فمن عرفهم أحترمهم ومن سار معهم أمن بهم ، كما جعل الله لهم حرما آمنا وبيتا محرما . وتفضل عليهم بالأمن والرخص مما يتطلب أفراد الله تعالى وحده لا شريك له بالعبادة (١) .
وتعامل عثمان بن عفان في ماله متطوعا به في سبيل الله .

ففي غزوة تبوك أو غزوة العسرة (٢) ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس الى الخروج وأعلمهم المكان الذى يريد ليتأهبوا لذلك ، وبعث

(١) مختصر تفسير ابن كثير — اختصار وتطبيق محمد على الصابري — المجلد الثالث

ص ٦٧٩ ، ٦٨٠ .

(٢) مأخوذة من قوله تعالى « الذين اتبعوه في ساعة العسرة » (التوبة / ١١١) .

الى مكة والى قبائل العرب يستنفرهم وأمر الناس بالصدقة وحثهم على التقوى فجاءوا بصدقات كثيرة ومن هؤلاء أبو بكر الصديق رضى الله عنه :
جاء بماله كله وكان ٤٠٠.٠٠٠ درهم .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه : جاء بنصف ماله .

عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : جاء بمأتى أوقية .

عاصم بن عدى رضى الله عنه : جاء بسبعين وسقا من تمر .

عثمان رضى الله عنه : جاء ب ٩٥ بعيرا ، ٥٠ فرسا وبذلك جهز
ثلاث الجيش .

وقيل جاء عثمان بألف دينار فى كفه فنثرها فى حجر الرسول صلى
الله عليه وسلم .

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : هل أبقيت لأهلك
شيئا .

قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

وقال عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب : هل أبقيت لأهلك
شيئا .

قال : نعم نصف مالى .

وقال عليه الصلاة والسلام لعثمان بن عفان : فاضر عثمان ما عمل
بعده اليوم .

وقال لجميع من جهز جيش العسرة : من جهز جيش العسرة فله
الجنة (١) .

وبذلك كان الصحابة ومنهم عثمان بن عفان رضى الله عنهم من الذين
أشار الله لهم بوعده للمؤمنين الذين يبذلون أنفسهم وأموالهم فى سبيله
بأنه اشترى منهم تلك الأنفس والأموال بالجنة ثمنا لما بذلوا بقوله تعالى :
« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة »
(التوبة / ١١١) .

– وتعامل عثمان بن عفان فى أمواله فوجهها الى اشباع ضرورة من
ضرورات حياة المسلمين وذلك بتوفير مياه الشرب لهم ، فقام عثمان بذلك
بما يقوم به بيت مال المسلمين لو كان لديه الأموال .

(١) عثمان بن عفان ذو النورين – محمد رضا – ص ١٩ ، ٢٠ .

فقد كان ليهودى بالمدينة بئرا يبيع المسلمين ماءها بما يبهظهم . ولم تكن عيون المدينة وآبارها وعذوبتها وغزارتها موافقة لشرب المسلمين وريهم .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لصاحبها : تبعينها بعين فى الجنة .
فقال اليهودى : ليس لى ولا لعيالى غيرها .

فقال عليه الصلاة والسلام : من يشتري بئر رومة ، فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوهم فى دلائهم وله بها مشرب فى الجنة ؟

فأتى عثمان بن عفان رضى الله عنه اليهودى وسأوه فيها فأبى أن يبيعها كلها فاشترى منه نصفها بانئى عشر ألف درهم . واتفق مع اليهودى على أن يكون له يوم ولعثمان يوم ، وجعل المسلمون يسقون فى يوم عثمان ليومين ، فذهب اليهودى الى عثمان ، فقال له : أفسدت على بئرى فاشترى النصف الآخر .

فاشتراه للمسلمين بثمانية آلاف درهم وجعل رشاء فيه كرشاء رجل من المسلمين .

— وتعامل عثمان بن عفان رضى الله عنه فى ماله فقدهم لغوث المسلمين حينما نزلت بهم المجاعة وعم القحط فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

فقد جاءت لعثمان بن عفان رضى الله عنه فى ذلك الوقت عيرا من الشام عبارة عن ألف بعير تحمل برا وزيتا وزبيبا ، فلما جعلها فى داره جاءه التجار يطلبون أن يبيع لهم وقالوا له : نعرض عليك الدرهم درهمين .

فقال : أعطيت زيادة على هذا .

قالوا : أربعة .

قال : أعطيت زيادة على هذا .

قالوا : خمسة .

قال : أعطيت أكثر من هذا .

قالوا : يا أبا عمرو ما بقى فى المدينة تجار غيرنا وما سبقنا المك أحد فمن هذا الذى أعطاك ؟

قال : ان الله أعطانى بكل درهم عشرة أمثلكم زيادة ؟

قالوا : لا .

قال : فاني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه البعير صدقة لله على
المساكين والفقراء (١) .

وبذلك انطبق على عثمان بن عفان رضى الله عنه قول الله جل وعلا :
« ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم
سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور » (فاطر / ٢٩) .
وانطبق على عثمان بن عفان رضى الله عنه كذلك قول الله سبحانه
وعالي :

« يا ايها الذين آمنوا على أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ،
تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم
خير لكم ان كنتم تعلمون » يفقر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من
تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم » (الصف
١٠ ، ١١ ، ١٢) .

— وقد ساهم عثمان كذلك بماله متطوعا في توسعة مسجد الرسول
صلى الله عليه وسلم .

مشاركة عثمان في المسائل العامة للدولة الإسلامية قبل البيعة :

شارك عثمان بن عفان رضى الله عنه في المسائل العامة في عهد
الرسول صلى الله عليه وسلم وفي عهد كل من أبى بكر الصديق وعمر بن
الخطاب رضى الله عنهما ، وفيما يلي نماذج لهذه المشاركة .

— عثمان كاتب الوحي

عن فاطمة بنت عبد الرحمن أنها سألت عائشة عن عثمان بن عفان ،
وأرسلها معها فقال : ان أحد بنيك يقرئك السلام ويسألك عن عثمان
ابن عفان فان الناس قد شتموه فقالت : لعن الله من لعنه . فوالله لقد كان
عند النسي صلى الله عليه وسلم وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمسند
ظهره الى وان جبريل ليوحى اليه القرآن ، وانه ليقول له « أكتب يا عثيم » .
فما كان الله لينزله تلك المنزلة الا كريما على الله ورسوله .

— الرسول يستخلف عثمان على المدينة

استخلف رسول الله عثمان بن عفان على المدينة في غزوته الى ذات
الرقاع والى غطفان وأرسله الى اليمن مستطلعا حين كانت امارتها لعل
ابن أبى طالب (٢) .

(١) عثمان بن عفان — محمد رضا — طبعة ثانية ص ٢٨

(٢) عثمان بن عفان ذو النورين — عباس العقاد — ص ٨٨

— كان عثمان سفيرا عن الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديبية :

• وكان عثمان بن عفان سفيرا عن رسول الله والمسلمين في الحديبية .

فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليبعنه الى مكة فيبلغ عنه اشراف قريش ما جاء له .

فقال عمر : يا رسول الله انى أخاف قريشا على نفسى وليس بمكة من بنى على بن كعب أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عداوتى اياها وغلظتى عليها . ولكن أدلك على رجل أعز بها منى ، عثمان بن عفان ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان فبعثه الى أبى سفيان واشراف قريش يخبرهم رسالة رسول الله أنه لم يأت لحربهم وأنه إنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته .

فخرج عثمان الى مكة فلقىه أبان بن سعيه بن العاص فحمله بين يديه ثم أجاره فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به .

• وحين فرغ عثمان من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالوا له : ان شئت أن تطوف بالبيت فطف .

فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

• واحتبست قريش عثمان عندها ثلاثة أيام وأشاع الناس أنهم قتلوه . فلما أبطل ، قلق عليه المسلمون فلما بلغ ذلك الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : لا نبرح حتى نناجز القوم .

ولما لم يكن قتل عثمان محققا وتثبيتا وتقوية للمسلمين بايع النبي صلى الله عليه وسلم عنه ، فوضع يده اليمنى فى يده اليسرى .

وقال : اللهم هذه عن عثمان فى حاجتك وحاجة رسؤلك (١) .

فكان عثمان بن عفان رضى الله عنه بذلك ممثلا للرسول صلى الله عليه وسلم وهو رئيس الدولة الاسلامية لدى أهل مكة فشأنه فى ذلك شأن وزراء الخارجية حديثا حينما يسافرون ويحملون رسالات رؤساء الدول الى دول أخرى .

(١) عثمان ذو النورين - محمد رضا - طبعة ثانية ص ١٧ .

ـ عثمان من أهل المشورة في مسائل الدولة العليا ـ

واعتبر عثمان رضى الله عنه من الصحابة وأهل الشورى الذين يؤخذ رأيهم في أمهات المسائل في خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

ـ فلما عزم أبو بكر الصديق رضى الله عنه غزو الشام بعد غزو العراق ، دعا اليه جلة المهاجرين والانصار يشيرون عليه فشجعه عمر على المضي فيما يريد ، وأما عبد الرحمن بن عوف فدعا الى الحيلة والحذر وسكت الناس بعد الذي سمعوا من ابن عوف .

فسألهم أبو بكر : ماذا ترون ؟

فقال عثمان بعد هنيهة : أرى أنك ناصر لأهل الدين شفيق عليهم . فان رأيت رأيا لهم فيه رشد وصلاح وخير فاعزم على امضائه . فانك غير ضنين ولا متهم عليهم (١) .

وسارع الحاضرون حين سمعوا قول عثمان فأقروا رأيهم .

ـ وكان عثمان بن عفان ممن أحسنوا الشهادة في عمر حين أراد أبو بكر أن يستخلفه وأن يجمع كلمة المسلمين فقد كان البعض مشفقين من شدة عمر . أما عثمان فأجاب الصديق حين سألته عن عمر .

« اللهم علمي به أن سريره خير من علانيته وأن ليس فينا مثله » (٢) .

وكتب أبو بكر عهده الأخير وهو على سرير الموت وعثمان الى جواره يلى عليه ، فلما أفاق سألته : من كتبت ؟

قال عثمان : عمر .

قال أبو بكر : بارك الله فيك . بأبى أنت وأمى . لو كتبت نفسك كنت لها أهلا (٣) .

ـ وفي عهد عمر بن الخطاب كان عثمان معارضا لسفر عمر لبيت المقدس لما طلبه أهالى بيت المقدس الصلح على أن يحضر عمر بنفسه الى مدينتهم وقال مخاطبا أمير المؤمنين .

« فانت ان أقمت ولم تسر اليهم رأوا أنك بأمرهم مستخف » ولقتالهم مستعمه ، فلم يلبثوا الى السير حتى ينزلوا على الصغار ويعطوا الجزية (٤) .

(١) عثمان بن عفان - محمد حسين ميكل - ص ٤٧ .

(٢) عثمان بن عفان ذو التورين - عباس المقاد - ص ٨٤ .

(٣) عثمان بن عفان - محمد حسين ميكل - ص ٤٧ - ٤٨ .

وكان عثمان ممن أيدوا رأى عمر بن الخطاب في عدم تقسيم أرض الفتوح على الفاتحين وإبقائها فينا للمسلمين وللذرية من بعدهم .

وكان عثمان على رأس المعارضين في فتح مصر أيام عمر بن الخطاب .

وقال له : يا أمير المؤمنين ان عمرا مجراً وان فيه حبا للامارة فأخشى أن يخرج من غير نفر ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلك رجاء فرصة لا يدري أتكون أم لا ، وشاركه في المعارضة كثيرون (١) .

١٠ وجه لعثمان من نقد قبل الخلافة :

— اختصم عثمان بن عفان وأبو عبيدة عامر بن الجراح فقال أبو عبيدة : تخرج على في الكلام وأنا أفضل منك بثلاث . فقال عثمان : وما هي ؟

قال : الأولى أنني كنت يوم البيعة حاضراً وأنت غائب .
والثانية شهدت بدراً ولم تشهده .

والثالثة كنت ممن ثبت يوم أحد ولم تثبت أنت .
فقال عثمان : صدقت .

أما يوم البيعة فان رسول الله بعثنى في حاجة وهدى يده عني وقال هذه يد عثمان بن عفان ، وكانت يده الشريفة خير من يدي .

وأما يوم بدر فان رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلفني على المدينة ولم يمكنني مخالفته ، وكانت ابنته رقية مريضة واشتغلت بخدمتها حتى ماتت ودفنتها .

وأما انهزامي يوم أحد فان الله عفا عني وأضاف فحلي الى الشيطان فقال تعالى :

« ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حلیم » (آل عمران / ١٥٥) .

فخصمه عثمان وغلبه (٢) .

(١) عثمان بن عفان — محمد حسين هيكل — ص ٢٧ — ٢٨ .

(٢) عثمان ذو النورين — محمد رضا — ص ٣٠ .

مناقشة بين ابن عمر وأحد المصريين بشأن مواقف عثمان أيام
الرسول صلى الله عليه وسلم :

وقد دارت مناقشة ماثلة بين ابن عمر رضي الله عنهما وبين رجل
من أهل مصر حج البيت ووجد ابن عمر فسأله عن بعض مواقف عثمان
ابن عفان رضي الله عنه ، في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأجابه
ابن عمر على ما سأل وذلك على النحو التالي (١) .

حدثنا موسى بن اسماعيل ، حدثنا أبو عوانة حدثنا عثمان - هو
ابن موهب .

- قال : جاء رجل من أهل مصر حج البيت فرأى قوما جلوسا .
- فقال : من هؤلاء القوم ؟
- فقالوا : هؤلاء قريش .
- قال : فمن الشيخ فيهم ؟
- قالوا : عبد الله بن عمر .

قال : يا ابن عمر اني سائلك عن شيء فحدثني ؟ هل تعلم أن
عثمان فر يوم أحد ؟

- قال : نعم .
- فقال : تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد .
- قال : نعم .
- قال : تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدا .
- قال : نعم .
- قال : الله أكبر .

فقال ابن عمر : تعال أبين لك . أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله
عفا عنه وغفر له (٢) .

وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله صلى الله عليه
وسلم وكانت مريضة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان لك
أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه .
وأما تغيبه عن بيعة الرضوان ، فلو كان أحد أغر ببطن مكة
من عثمان لبعثه مكانه . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان ،

(١) صحيح البخارى - الجزء السادس ص ١٠٦ ، ١٠٧ طعة المجلس الأعلى للشئون
الإسلامية .

(٢) يشير ابن عمر بذلك الى الآية التي أوردناها في الفقرة السابقة .

وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب الى مكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده ، فقال هذه العثمان .

فقال له ابن عمر : اذهب بها الآن معك .

أى اذهب بهذه الأجوبة التى أجبتك بها مقرونة بأعذارها فانها لا تنفعك فى النيل من عثمان رضى الله عنه (١) .

مجمع ملامح شخصية عثمان بن عفان :

من الصور السابقة يتضح أن عثمان بن عفان رضى الله عنه قبل توليه الخلافة توفرت فيه الموصفات التالية :

- من أوائل من اعتنقوا الاسلام .
- له صلات متعددة بالرسول صلى الله عليه وسلم .
- يتسم بالحياء .
- يتسم باللين .
- خبير بأمور المال فى التجارة .
- تطوع بماله فى سبيل الله .
- حل محل بيت المال فى الانفاق على سقيا المسلمين .
- ساهم بماله فى تفريج قحط المسلمين وعمارة مسجد الرسول .
- حل محل الرسول صلى الله عليه وسلم فى ولاية المدينة .
- كان كاتب الوحي .
- كان سفير الرسول صلى الله عليه وسلم الى أهل مكة يوم الحديبية .

- من أهل المشورة فى المال والحرب والصلح وغيرها من مسائل الدولة العليا .

- كان حكمه فى مرحلة شيخوخته .

بهذه المناقب والصفات وبمناصب هذه الشخصية تحمل عثمان ابن عفان أمانة حكم الدولة الاسلامية بعد عمر وأصبح مسئولاً عن رعاية الدولة الاسلامية التى أشار اليها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى حديث الرعاية المشهور وهو :

(٢) التعليق ورد فى هامش صحيح البخارى ص ١٠٧ .

« كلکم راع وکلکم مستول عن رعیتہ » فالأمیر الذی علی الناس راع علیهم وهو مستول عنهم والرجل راع علی أهل بیتہ وهو مستول عنهم وامرأة الرجل راعیة علی بیت زوجها وولدها وهی مستولة عنهم ، وعبد الرجل راع علی مال سیده وهو مستول عنه ، ألا فکلکم راع وکلکم مستول عن رعیتہ » (١) .

غیر أنه قبل بحث کیفیة قیام عثمان بن عفان رضی الله عنه بهذه الرعاية عن طریق سیاسته المالیة ینبغی التعرف علی أوضاع عامة تصدرت حکمه من شأنها أن تكون ذات صلة بسیاساته العامة ومنها السیاسة المالیة .

(١) کتاب الاموال • لأبی عبید القاسم بن سلام ص ١٠ -

الفصل الثاني

مقدمات تصدرت عهد عثمان بن عفان لها صلة

بسياساته العامة

ومنها السياسة المالية

سبق عهد عثمان بن عفان أوضاع عامة ومقدمات ووصايا ونبوة توحى بأن سيكون لها شأن مع تحرك السياسات العامة ومنها السياسة المالية في عهده ، وهذه المقدمات هي :

— وجود صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ولهم صدارة المجتمع بما لهم من فضل نتيجة جهادهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في نشر الدعوة الإسلامية والتطوع بأنفسهم وأموالهم في سبيلها ومصاحبتهم للرسول عليه الصلاة والسلام .

— خليفة سابق وهو عمر بن الخطاب اتسم بالزهد وبالحزم وتعفف هو وعائلته وأفرأوه عن المال العام ونوايا له أعلنها ووصايا أوصى بها الخليفة بعده وحديث له عن فتنة كبرى كان بابها موصدا في عهده .

— تنافس قبلي له جذورة في الجاهلية بين آل هاشم وآل أمية علما بأن الخليفة الجديد ينتمي لآل أمية .

— منازعات ومناوشات في الامصار .

— دخول عثمان بن عفان في مرحلة الشيخوخة قبل توليه الخلافة .

— نبوة سابقة تنبأ بها الرسول صلى الله عليه وسلم لعثمان ابن عفان .

صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم صدارة المجتمع :

شريعة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم تصدرت مجتمع الدولة الإسلامية بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي عهد الخلفاء الراشدين كان منهم أهل الشورى وأصحاب الافتاء ورواة الحديث ومنايع العلم وأساطين الكلم ومجاهدو الفتوح ومقيموا العدل وحراس التقوى

ورقباء الأموال العامة وهم من المهاجرين والانصار ، فكان المهاجرون أول الناس اسلاما وأكرمهم أحسابا وأمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الانصار هم الذين أورا الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ما هاجر اليهم من مكة الى المدينة وآزروه ونصروه وجاهدوا هم والمهاجرون مع الرسول صلى الله عليه وسلم حتى تحقق نصر الاسلام والمسلمين .

وقد أشار اليهم القرآن الكريم في سورة التوبة فقال جل وعلا :

« والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم » (التوبة / ١٠٠) .

ويشير القرآن الكريم كذلك الى مراتبهم فيقول جل وعلا :

« لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى » (الحديد / ١٠) .

ويقول عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » (١) .

— أبو بكر وعمر يغشيان فتنة الصحابة

وقد استبقي الصديق عنده كبار الصحابة ليجمع بين معونتهم له في الرأي والعمل وبين تجنبهم الفتنة ومازق الولاية ، وكان يتذمر من ترخص بعض الصحابة في أمور تؤذن بما بعدها .

فقال لعبد الرحمن بن عوف يعظه ويحذره :

« والذي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه خير له من أن يخوض غمرات الدنيا » ثم أنتم غدا أول ضال بالناس يمينا وشمالا . لا تضيعوهم عن الطريق » .

وقال لعمر يحذره من عواقب انطلاق الصحابة في الأقطار .

فقال له وهو يجود بنفسه :

« واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه عليه

(١) البخارى - الجزء السادس - طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلاميه ص ٨٩ .

وسلم - الذين انتفخت أجوافهم - وطمحت أبصارهم - وأحب كل امرئ منهم لنفسه وإن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم ، فايك أن تكونه ، وأعلم أنهم لا يزالون منك خائفين ما خفت الله (١) .

وكان عمر - يسمح لهم بمغادرة المدينة إلا باذن منه ولأجل محدود واستبقاهم بجانبه ليستعين بهم في مسائل الدولة ولأنه كان يخشى عليهم الفتنة وتأثرهم بحضارات البلاد المفتوحة فشكوه من أجل ذلك فقام وقال :

(ألا انى قد سننت الاسلام سن البعير ، يبدأ فيكون جذعا (٢) ثم ثنيا (٣) ثم رباعيا (٤) ثم سدسيا (٥) ثم بازلا (٦) ، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ، ألا فإن الاسلام قد بزل ، ألا وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادة ، ألا فأما وإن الخطاب حى فلا انى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وعجزها أن يتهافتوا على النار (٧) .

— رسول الله يتنبأ بوقوع الفتن بين الصحابة

ولعل ما حدا بأبى بكر وعمر رضى الله عنهما أن يعاملا الصحابة تلك المعاملة المنضبطة هو أن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة لغيرهم ، وأن ترخصهم بمتاع الحياة الدنيا يجعل الناس يقتدون بهم بل ويزيدون خصوصا وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نبههم الى فتن ستقع بينهم فيقول أسامة بن زيد رضى الله عليهما : أشرف النبی صلى الله عليه وسلم على أطم — أى مرتفع — من أطام المدينة ،

وقال : هل ترون ما أرى .

قال الصحابة الذين كانوا معه : لا

قال : فانى لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر .

(١) عثمان بن عفان ذو النورين — عباس الصفاد — ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) الجذع من البعير : أجذع الأبل فى الخامسة فهو جذع .

(٣) الثنى من البعير : ثنى الجمل يدخل فى السن الخامسة .

(٤) الرباعى من البعير : هو ما كان فى السن بين الثنى من البعير والسديس منه .

(٥) السديس : الجمل فى الثامنة .

(٦) البازل : الجمل فى التاسعة .

(٧) مع الخلفاء الراشدين فى الاسلام — عبد الحاقى أبو رابية — طبعة المجلس الأعلى

للشئون الاسلامية ص ٥٥ .

ويقول عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إذا مشيت أمتي المطيطاء - أى الخيلاء - وخدمتها أبناء الملوك فارس والروم سلط شرارها على خيارها) (١) .

وهو بهذا يشير لردود الفعل للفتوح التى تمت فعلا بعده فى عهود الخلفاء الراشدين

- نماذج تحليلية لبعض الصحابة فى عهد عثمان

وفيما يلى تحليل لشخصيات من الصحابة عاصروا عهد عثمان وكان لبعضهم أثر فى مجريات الامور فى عهده (٢)
على بن أبى طالب - باب مدينة العلم

ولد على بن أبى طالب فى مكة المكرمة بجوار البيت العتيق ، أبوه أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم عم النبي وكافله بعد عبد المطلب وأمه هى فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهى أول هاشمية ولدت هاشميا ، وقد أسلمت ونوفيت بالمدينة وتولى النبي دفنها وألبسها قميصه واضطجع فى قبرها .

يقال ان أمه أسمته حيدر وقيل بل أسمته أسدا والحيدرة اسم من أسماء الأسد وكنى على بأسماء كثيرة عرف بأبى الحسين ، وسماه الرسول صديقا ، فعن أبى ليل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« الصديقون ثلاثة » : حبيب بن مرى التجار مؤمن آل ياسين الذى قال يا قوم اتبعوا المرسلين وحزقيل مؤمن آل فرعون الذى قال : « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله » وعلى بن أبى طالب الثالث وهو أفضلهم .

وسماه الرسول أيضا أبا الريحانين ، فعن جابر بن عبد الله قال ، قال رسول الله لعلى بن أبى طالب السلام عليك أبا الريحانين ، فعن قريب يذهب ركنك .. والله خليفتي عليك » .

فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على « هذا أحد الركنتين ، ولما ماتت فاطمة قال هذا الركن الآخر » .

وكناه النبي المصطفى أبا تراب فقد غاصب يوما غاطمة فخرج

(١) وداعا عثمان - خالد محمد - خالد - ص ٩٢ .

(٢) تضمنت الأبواب التالية نماذج أخرى من الصحابة وردت فى ثنايا البحث .

فاضجع الى الجدار فى المسجد فجاءه النبى صلى الله عليه وآله وسلم
- وقد امنلا ظهره ترابا - فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يمسح عن ظهره
ويقول اجلس ابا تراب .

أصابته قريشاً أزمة شديدة وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة
وتخفيفاً عنه أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً فضمه اليه فلم يزل
على مع رسول الله حتى بعثه الله فتابعه وآمن به وصدقه وكان أول المسلمين
من الصبيان فقد أسلم وهو لا يزال دون الخامسة عشرة وفى روايات
أخرى دون الثالثة عشر ، وكان أول من صلى مع النبى صلى الله عليه
وسلم .

وكان من أثر صحبة النبى صلى الله عليه وسلم ومن كنة ماتردد
على مسامعة من أى الذكر الحكيم ومن تفسير لآيات هذا الذكر أن تفقه
فى أمور الدين والدنيا وفى الأخذ بأسباب البلاغة والقصاحة الذين
ضرب فيهما بسهم لم يتح لغيره ، ووصل فيهما جميعاً مرتبة لم يستطع
أحد أن يدانية فيهما .

ولقد أخرج البراز والطبراني عن جابر بن عبد الله ، كما أخرج
الترمذى والحاكم عن علي أنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم
« أنا مدينة العلم وعلى بابها فمن أراد العلم قلياًته من بابي » .

وكان على يقول : « سلونى . . . والله لا تسألونى عن شىء الا
أخبرتكم ، وسلونى عن كتاب الله فوالله ما من آية الا وأنا أعلم بليل
نزلت أم بنهار » فى سهل أم فى جبل » . وكانت فتاواه مرجعاً للخلفاء
والصحابة ويصح أن يقال أن علياً رضى الله عنه أبو علم الكلام فى
الاسلام لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه ، شهد كل السرايا
والغزوات فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة . ويقول فيه الرسول
صلى الله عليه وسلم :

« ان علياً من أحب خلق الله الى الله وأنه أخوه فى الدنيا
والآخرة » (١) .

(١) مقتبس من كتاب مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم تأليف الأستاذ عبد المنعم
جهاوة أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الصفحات من ١٠٣ الى ١٤٠ .

وكما سبق الايضاح كان على أحد الذين وشحهم عمر بن الخطاب للخلافة من بعده

وقد قال ع لى بن أبى طالب واصفا نفسه أبيات الشعر التالية :

وحمزة سيد الشهداء عمى	محمد النبى أخى وصهرى
يطير مع الملائكة ابن أمى	وجعفر الذى يمسى ويضحى
مسوط (١) لحمها بدمى ولحمى	وبنت محمد سكنى وعرسى
فأيكمو له سهم كسهمى	وسبطا أحمد ولداهى منها
صغيرا ما بلغت اوان حلمى (٢)	سبقتموا الى الاسلام طرا

— عبد الرحمن بن عوف — أمين الأمة :

ومن الصحابة الأتقياء الأغنياء عبد الرحمن بن عوف ، أسلم قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ، هاجر الى الحبشة وإلى المدينة وشهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى دومة الجندل وعمه بيده وسد لها بين كتفيه وقال : ان فتوح الله عليك فتزوج ملكهم أو قال شريفهم .

وكان شريفهم الأصبح بن ثعلبة بن ضمضم الكلبي فنزوج ابنته تماضر . وكان أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر بن الخطاب الخلافة منهم وأخرج نفسه منها واختار للمسلمين . وكان عظيم التجارة محدودا فيها كثير المال . كان كثر الصدقة من أمواله فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده .

وقال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم « عبد الرحمن بن عوف أمين فى السماء وفى الأرض » توفى سنة ٣٢ هـ وهو ابن ٧٥ سنة وأوصى بخمسين ألف دينار فى سبيل الله ، وأوصى لمن بقى بمن شهد بدرا لكل رجل ٤٠٠ دينار وكانوا مائة فأخذوها وأوصى بألف فرس فى سبيل الله ، وخلف مالا عظيما من ذهب قطع بالفؤوس وترك ألف بغير ومائة فرس وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع (٣) .

(١) مسوط : مختلط .

(٢) على امام المققن لعبد الرحمن الشرفاوى من مقال طهر بعدد جريدة الاهرام

يوم ٢٤/١٠/١٩٨٤ ص ١٢ .

(٣) عثمان بن عفان ذو النورين تأليف محمد رضا ص ١٠٤ ، ١٠٨ .

ـ طلحة بن عبد الله - الخير الفياض

يجتمع نسبه مع الرسول صلى الله عليه وسلم في (مرة بن كعب) كان في تجارة له بأرض بصرى حين لقي أحد رهبانها وأنبأه أن النبي الذي سيخرج في بلاد الحرم قد أهل عصره وأشرقت أيامه ، فلما عاد إلى بلده مكة علم بظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، فذهب إلى أبي بكر فصحبته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فأسلم ، وكان من المسلمين المبكرين ، حمل حظه من اضطهاد قريش وهاجر إلى المدينة حين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عدا غزوة بدر فقد كان في مهمة كلفه بها الرسول صلى الله عليه وسلم خارج المدينة ولما عاد كان نصر الله في بدر قد تحقق فأنبأه الرسول أن له أجر المقاتلين وأعطاه نصيبه من غنائم المعركة .

وفي غزوة أحد لما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم ينزف وقف طلحة يدافع عنه يضرب بسيفه البنار يميناً وشمالاً وساند الرسول صلى الله عليه وسلم وحمله بعيداً عن الحفرة التي زلت بها قدمه ، وتلقى بضغ وسبعون بين طعنة وضربة ورمية وقطعت أصابعه . وكان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد يقول : ذلك كله يوم طلحة .

كان من أكثر المسلمين ثراءً وأغناهم ثروة ، كان ينفق منها على الدعوة بغير حساب وعلى أقربائه وعلى الفقراء والمساكين ولقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم (طلحة الخير) « وطلحة الجود » « وطلحة الفياض » اطراه لجوده المفض (١) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« من سره أن ينظر إلى رجل يمشى على الأرض وقد قضى نحبه ، فليتنظر إلى طلحة » أي من المشاء اليهم في قول الله تعالى :

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبهم ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً » (الأحزاب / ٢٣) .

ـ الزبير بن العوام - حوازي رسول الله

يلتقى نسبه مع الرسول صلى الله عليه وسلم في « قصي بن كلاب » كما أن أمه صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو زوج أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين .

(١) مقتبسة من كتاب « رجال حول الرسول » - تأليف خالد محمد خالد ص ٢٣٩

وما بعدها »

كان واحدا من السبعة الأوائل الذين سارعوا الى الاسلام وكان
عمره يومئذ خمس عشرة سنة عذبه عمه ليرجعه عن اسلامه فكان يقول :
« والله لا أعود للكفر أبدا » .

هاجر الى الحبشة الهجرتين الأولى والثانية وأول سيف شهر في
الاسلام كان سيف الزبير ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم وتلقى الكثير من الطعنات . وفي غزوة أحد بعد أن انقلب
جيش المسلمين راجعا الى المدينة ندبه الرسول صلى الله عليه وسلم هو
وأبو بكر لتعقب جيش قريش ومطاردته وقاد سبعين من المسلمين فأسرعت
قريش أوتيتها الى مكة .

ويوم اليرموك اخترق جيوش الروم الزاحفة صائحا « الله أكبر » .

وقد قيل في تاريخه أنه ما ولى اماراة قط ولا جباية ولا خراجا
ولا شيئا الا الغزو فى سبيل الله ، فتح هو وعلى بن أبى طالب أبواب
حصن بنى قريظة بعد أن طال حصارهم كان يحبه الرسول صلى الله
عليه وسلم ويباهى به ويقول :

« ان لكل نبي حواري وحواري الزبير بن العوام » .

كان يدير تجارة ناجحة وكان نراؤه عريضا ولكنه أنفق في الاسلام
حتى مات مدينا (١) .

— أبو موسى الأشعري : سيد الفوارس —

اسمه عبد الله بن قيس المكنى بـ (أبى موسى الأشعري) ، سمع
برسول الله صلى الله عليه وسلم فغادر اليمن بلده الى مكة وأسلم ، ثم
رجع الى بلده وعاد معه بضعة وخمسون رجلا من أهل اليمن الذين لقنهم
الاسلام واخوان شقيقان له هما أبو رهبم وأبو بردة وسمى الرسول
صلى الله عليه وسلم قومهم جميعا بالأشعريين وكان يقول عليهم :

« ان الأشعريين اذا أرموا فى غزوة أو قل فى أيديهم الطعام ،
حملوا ما عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بالسوية فهم منى وأنا منهم » .

وهو فقيه يتألق فى الافتاء والقضاء حتى قيل :

« قضاء هذه الأمة أربعة عمر وعلى وأبو موسى وزيد بن ثابت » .

وفى مواطن الجهاد يقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم :

« سيد الفوارس أبو موسى » .

(١) رجال حول الرسول — خالد محمد خالد — ص ٤٥٣ وما بعدها .

وفى المعارك التي خاضها المسلمون ضد امبراطورية الفرس كان لأبى موسى بلاؤه العظيم وكذلك ضد الروم .

يقرأ القرآن بصوت يهز أعماق من يسمعه حتى قال عنه الرسول الكريم :

« لقد أوتى أبو موسى مزامرا من مزامير آل داود » .

ولى فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مع معاذ بن جبل أمر اليمن ، وفى عهد عمر ولاء أمير المؤمنين البصرة (١) .

ـ أبو هريرة : راوى الحديث

نشأ ينما مسكينا أجيرا لبسة بنت غزوان لطعام بطنه كان اسمه فى الجاهلية عبد شمس .

قدم على النبى سنة سبع وهو بخيبر فأسلم ولما أسلم سماه الرسول عبد الرحمن وأطلق عليه أبو هريرة لأنه كانت له هرة فلزمه يطعمها ويحملها وينظفها ويأويها .

ومكث معه سنوات أربع الى أن ذهب النبى الى الرفيق الأعلى . كان حافظا له ذاكرة قوية دعا له الرسول أن يبارك الله له فيها تفرد بكثره الرواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم روى عنه نحو من ثمانمائة أو أكثر من الصحابة والتابعين وأهل العلم ، جمع مالا حلالا حينما ولاء عمر البحرين فأمره عمر بدفعها الى بيت مال المسلمين فدفعها ، مات عن ثمان وسبعين سنة فى العام التاسع والخمسين للهجرة (٢) .

ـ العباس بن عبد المطلب : شيخ قريش

ومن الصحابة الرؤساء فى قومهم العباس بن عبد المطلب ، كان فى الجاهلية رئيسا فى قريش واليه كانت عمارة المسجد الحرام والسقاية فى الجاهلية وهو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ممن خرج مع المشركين يوم بدر مكرها وأسر يومئذ فيمن أسر ثم هاجر الى النبى صلى الله عليه وسلم وشهد معه فتح مكة وانقطعت الهجرة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظمه ويكرمه بعد اسلامه . فكان وصولا لأرحام قريش محسنا اليهم ذا رأى سديد وعقل غزير وقد قال رسول الله صلى

(١) رجال حول الرسول - خالد محمد خالد - ص ٧٥٩ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٥٣٣ وما بعدها .

الله عليه وسلم « أيها الناس من أذى عمي فقد آذاني فانما عم الرجل
صنو أبيه » .

وعن العباس قال : أنيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقلت : علمني يا رسول الله .

فقال : سل الله العافية .

ثم أتيت مرة أخرى فقلت : يا رسول الله علمني شيئا أدعو به .

فقال : يا عباس يا عم رسول الله سل الله العافية في الدنيا
والآخرة .

واسنسقى عمر بن الخطاب بالعباس رضى الله عنهما عام الرمادة لما
اشتد القحط على المسلمين فسيقاهم الله تعالى وأخصبت الأرض .

وكان الصحابة يعرفون للعباس فضله ويقدمونه ويشاورونه ويأخذون
برأيه توفي بالمدينة وصلى عليه عثمان ودفن بالبقيع وهو ابن ثمان
وثمانين (١) .

ـ أبو الدرداء الأنصارى : حكيم الأمة

ومن الصحابة الحكماء أبو الدرداء الأنصارى وكان اسمه عويمر بن
مالك تاجر اسلامه قليلا وحسن اسلامه ، وكان فقيها عاقلا حكيما وقال
الرسول صلى الله عليه وسلم عنه (عويمر حكيم أمتي) وشهد ما بعد
أحد من المشاهد .

ومما يروى عن حكمته أنه مر يوما على رجل أصاب ذنبا وكان الناس
يسبونونه .

فقال : أرايتم لو وجدتموه في قليب (بئر قديمة) ألم تكونوا
مستخرجيه ؟

قالوا : بلى .

قال : فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذى عافاكم .

قالوا : أفلا تبغضه .

قال : انما أبغض عمله فاذا تركه فهو أخى .

وكان أبو الدرداء مقرئ أهل دمشق وقاضيهم وتوفي في سنة ٣٢
هجريه ، ولما نزل به الموت بكى .

(١) عثمان بن عفان ذو النورين - محمد رضا - ص ١٠٨ وما بعدها .

فقال له أم الدرداء : فأنت تبكي يا صاحب رسول الله .
قال : نعم ومالي لا أبكي ولا أدري علام أهجم من ذنوبي (١) .

— عبد الله بن عمر : المتتبع لأثار الرسول صلى الله عليه وسلم

بدأت علاقته بالاسلام وبالرسول صلى الله عليه وسلم وهو في
الثالثة عشر من عمره حين صحب أباه الى غزوة بدر ، ولكن الرسول عليه
الصلاة والسلام رده لصغر سنه .

تعلم من أبيه عمر بن الخطاب وتعلم مع أبيه من الرسول صلى الله
عليه وسلم كان ينظر ماذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل فيحاكيه
في دقة واختبات .

قالت عنه عائشة رضي الله عنها : ما كان أحد يتبع آثار النبي صلى
الله عليه وسلم في منزله كما كان يتبعه ابن عمر .

روى الأحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يروى عنه
حديث الا اذا كان ذاكرة كل حروفه . دعاه عثمان بن عفان رضي الله
عنهما . وطلب اليه ان يشغل منصب القضاء فاعتذر والح عليه فاعتذر
وسأله عثمان : أتعصيني .

فأجاب ابن عمر : كلا ولكن بلغني أن القضاء ثلاثة ، قاض يقضى
بجهل فهو في النار ، وقاض يقضى بهوى فهو في النار ، وقاض يجتهد
ويصيب فهو كفاف لا وزر ولا أجر . واني لسألك بالله أن تعفيني .
فأعفاه عثمان .

وكان يصلي ويذكر ربه كثيرا وكان كأبيه تهطل دموعه حين يسمع
آيات التذير في القرآن وكان تاجرا ناجحا وكان له عطاؤه من بيت المال
فكان يتصدق به على الفقراء والمساكين . عرضت عليه الخلافة أكثر من
مرة فأبى . كان حريصا على أن لا يكون له في الفتن النى مرت بدولة
الاسلام نصيب .

ولقد لقي ربه بالغا من العمر خمسة وثمانين عاما في العام الثالث
والسبعين للهجرة (٢) .

(١) عثمان بن عفان ذو النورين — محمد رضا — ص ١١٤ .

(٢) رجال حول الرسول — خالد محمد خالد — ص ١٢١ .

— عبد الله بن العباس : حبر الأمة

هو ابن العباس بن عبد المطلب بن هاشم عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم وهو غلام ومات الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يبلغ ابن عباس سن الرجولة ، أدناه الرسول عليه الصلاة والسلام منه وهو طفل وربت على كتفه ودعا له قائلا « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » ، ويلقب بحبر هذه الأمة ، ونعلم من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، امتلك ثروة كبرى من العلم ومعها ثروة أكبر من أخلاق العلماء فقد كان يفيض على الناس من ماله بنفس السماح الذي يفيض عليهم من علمه ، عابده قانت أواب .

يصفه سعد بن وقاص فيقول « ما رأيت أحدا أحضر فهما ولا أكبر لباً ولا أكثر علماً ولا أوسع حلماً من ابن عباس » .

كان متنوع الثقافة في تفسير القرآن وتأويله وفي الفقه وفي التاريخ وفي لغة العرب وآدابها وتوفي في عامه الحادى والسبعين (١) .

هذه نماذج من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان عليهم بعد عمر بن الخطاب أن يوجهوا مع عثمان بن عفان الدولة الإسلامية الى مزيد من الرقعة والازدهار ويصلوا بالاسلام الى مزيد من القوة والانتشار ، ويقدموا مشورتهم فى مسائل الدولة العليا ومنها مسائل السياسة المالية ، فهل هم فاعلون ؟

زهد الخليفة السابق عمر ونواياه بشأن المال العام ووصاياه وخشيته من فتنة كبرى :

— كان يقود المجتمع قبل عثمان عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وكان شديدا حازما عفيقا عن المال العام هو وإفراد عائلته ، وانعكس حزمه على ادارة المالية العامة وعلى ولاته .

— وقد بدا له أن الفروق بدأت تنسع بين الأغنياء والفقراء اتساعا قد يؤدى الى ميل المجتمع عن التوازن الآمن ، فأعلن قرارين بشأن المال العام فقال :

« لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء (٢) » .

(١) المرجع السابق ص ٧١٣ .

(٢) عبقرية عمر — عباس العقاد — ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

وقال :

« والله لئن بقيت الى العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ولأجعلنهم
بيانا واحدا » •

— كما أوصى المرشحين للخلافة بعده أن يبقى من يتولى منهم الخلافة
الولاية الذين كانوا على الأمصار حين وفاته في مناصبهم لمدة عام (١)
ولعله خشي أن ينم أحلال هؤلاء الولاية بغيرهم فور نولي الخليفة الجديد
الخلافة مما قد يعرض الدولة الاسلامية لهزة غير مأمونة العواقب ،
خصوصا وقد كان عمر يجتهد في اختيار هؤلاء الولاية ويدقق في
مواصفاتهم ويحصى أموالهم قبل الولاية ويراجع ثرواتهم في نهايتها
ويرد الى بيت مال المسلمين ما زاد منها مما يحوطه الشك والريبة ،
وفيما يلي أسماء الولاية الذين كانوا على ولايات الدولة الاسلامية قبل أن
تؤول الخلافة لعثمان بن عفان رضى الله عنه •

نافع عبد الحارث الخزاعي	على الطائف
سفيان بن عبد الله الثقفي	على مكة
يصلى بن منية	على صنعاء
عبد الله بن أبي ربيعة	على الجند
المغيرة بن شعبة	على الكوفة
أبو موسى الأشعري	على البصرة
عمرو بن العاص	على مصر
عمير بن سعد	على حمص
معاوية بن أبي سفيان	على دمشق
عثمان بن أبي العاص الثقفي	على البحرين وما ولاهما
شريح	على قضاء الكوفة
كعب بن سور	على قضاء البصرة (٢)

— وأوصى عمر أيضا بأن لا يؤثر الخليفة بعده أهله وعشيرته على رقاب
الناس فقبل موته وجه الحديث لمن رشحهم ليختار المسلمون الخليفة
بعده •

(١) تاريخ الطبري — الجزء الرابع — طبعة دار المعارف — الطبعة الرابعة — نقلا عن
الواقدي ص ٢٤٤ •
(٢) المرجع السابق ص ٢٤١ •

فقال لعلى بن أبى طالب أحد المرشحين :

« يا على قد يعرف الناس لك صهرك وقرايبك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أذاك الله من العلم والفقه فان وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل بنى هاشم على رقاب الناس » .
وقال لعنمان بن عفان :

« قد يعرف الناس لك سنك وصهرك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرfk ، فان وليت من أمر الناس فاتق الله ألا تحملن بنى أبى معيط على رقاب الناس »
وقال لسعد بن أبى وقاص :

« أنشدك الله يا سعد ان وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل أقاربك على رقاب الناس » .

وناشد الآخرين بمنل هذه المناشدة .

هذا وابتار الحكام الأقرباء والأصهار بالمال العام — وهو من صور حملهم على رقاب الناس — يمثل اعتداء على المال العام واستحواز له بغير حق وأكل للمال بالباطل ويضعف ثقة الرعية بالسياسات العامة للدولة خصوصا سياستها المالية .

— كما ألح عمر فى أحد أحاديثه الى احتمالات فتنة تحقيق بالمجتمع الاسلامى فقد كان يجلس الى بعض أصحابه وفيهم حنيفة بن اليمان فجرى بينهما هذا الحوار الذى يرويه البخارى. فى صحيحه فى باب الفتن :

عمر : أياكم يحفظ قول النبى صلى الله عليه وسلم فى باب الفتن .
حنيفة : فتنة الرجل فى أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

عمر : ليس عن هذا أسألك ، ولكن التى تموج كموج البحر :
حنيفة : ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين . ان بينك وبينها بابا مغلقا .

عمر : أيكسر الباب أم يفتح .

حنيفة : بل يكسر .

عمر : اذا لا يخلق أبدا .

حنيفة : نعم .

فلما سأل الجالسون حنيفة : أكان عمر يعلم الباب .

قال : نعم كما أعلم أن دون غد ليله ، وذلك أن حدينه ليس
بالأغاليط فهبنا أن نسأله من الباب ، فأمرنا مسروقا .

فسأله : من الباب ؟

قال عمر : عمر .

والفتنة اذا اندلعت تذهب بالاستقرار فتضعف شوكة المسلمين
وتوشن تنفيذ سياسات الدولة ومنها سياستها المالية .

تنافس قبلي بين الهاشميين والأمويين له جذوره في الجاهلية :

من الأوضاع التي كانت قائمة قبل عهد عثمان تنافس قبلي له
جذوره كان قائما بين الهاشميين والأمويين علما بأن الخليفة عثمان
من الأمويين .

ويرجع هذا التنافس الى ما قبل الاسلام بعشرات السنين وسببه
أن سقاية ورفادة البيت الحرام تعتبر بين العرب شرفا عظيما منذ
الجاهلية ، وقد حظي بهذا الشرف هاشم من بنى عبد مناف فكان ينولي
خدمة البيت الحرام ، فلما طعن في السن حاول ابن أخيه أمية بن
عبد شمس أن ينزح منه شرف خدمة البيت الحرام ، ولكنه لم يقدر
على اطعام حجاج البيت فعيره قومه فهاجر الى الشام وكون له أسرة
واشتغل بالتجارة وأصبح واسع الثراء ، بينما اهتم هاشم بأمر البيت
الحرام وصيانة الحاج أكثر من التجارة .

فلما جاء الاسلام واختار الله رسوله محمدا ابن عبد الله من
بنى هاشم ، أثار ذلك حفيظة بنى أمية ، فتصدوا لدعوته وعلى رأسهم
أبو سفيان بن حرب ، وسخروا من النبي صلى الله عليه وسلم ومن دعوته
واتهموه بالجنون والسحر والشعوذة « وألحقوا باتباعه صوف الأذى
بل والنعذيب » وشهروا بمكة ضدهم سلاح المقاطعة وكتبوا بهذه المقاطعة
صحينه علقوها على الكعبة وبذلك منعوا عن محمد وأتباعه الطعام
والماء وامتنع عليهم التعامل مع أهل مكة بسبب هذه المقاطعة ، حتى اذا
أكل الأرض الوثيقة ما عدا كلمة (باسمك اللهم) استمر بنو أمية
وكفار العرب في ايداء الرسول وأصحابه وحاولوا قتل النبي نفسه فهاجر
الى المدينة ، وقامت حروب كان أبو سفيان يعبى جيوش الكفار وينظمها
ويخطط لها ويمولها ، واستمرت تلك الحروب حتى حقق الله لرسوله
صلى الله عليه وسلم النصر بفتح مكة وعفا عليه الصلاة والسلام
عن أهل مكة وقال قولته المشهورة « أذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وان كان أبو سفيان ومعظم بنى أمية قد اعتنقوا الاسلام الا أن
نفوسهم ما زالت يعود اليها بين الحين والآخر رجع ذلك التنافس الذي

امندت جذوره الى الجاهلية الأولى « ويخشى وعثمان رضى الله عنه أموى وقد نولى الخلافة أن يعتبرها بنو أمية فرصة سنحت لتعويض حرمانهم من شرف خدمة البيت الحرام ، فيطفو على سطح المجتمع ذلك التنافس القبلى بين آل هاشم وآل أمية فتشيع فيه دعاوى الجاهلية الأولى »

هذه اذا مقدمة من المقدمات التى سبقت حكم عثمان وعليه أن يأخذها فى حسابانه عند ادارة شئون الدولة الاسلامية وعند توزيعه فى المسلمين فلا يؤثر به ذا قرابة لقربته ولا يميز أمويا على هاشمي ويعتبر أن الناس فى عهده سواسية كاسنان المشط كما أنبا بذلك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

منازعات ومناوشات قبيل عهد عثمان وشيكة التفتخم فى عهده :

— كانت منازعات العرب الذين استوطنوا البصرة والكوفة منصلة، وكانت كل واحدة من المدينتين تسرع الى مناوأة عامل الخليفة عليها ، حتى اضطر عمر غير مرة الى أن يولى عماله وأن يقول : هات امرا اصلح به قوما أن أبدلهم اميرا مكان أمير » (١) .

— كان يزدرج كسرى الفرس لا يزال مقيما فى فرغانة عاصمة الترك بسمرقند ينتظر الفرصة للعود الى بلاده ومناجزة المسلمين (٢) .

— كان الروم قد اطمانت أمورهم بعض الشيء بعاصمة قسطنطين وكانوا يتهيئون للأخذ بالثار وشن الفارة من جديده على الشام وعلى مصر (٣) .

وقد فكر الفرس والروم فى الانتفاض لما جاءتهم الانباء بمقتل عمر وببيعة عثمان فتمردت ولايات كانت أذعنّت لسلطان العرب وصالحتهم فنقضت صلحها ومنعت الجزية التى صالحت عليها ، فكان على الخليفة الجديد أن يرد هذه الولايات الى الطاعة ، وأن يفرض عليها جزاء أقله ما صالحت عليه فى عهد عمر مخافة أن ننقض غيرها من الولايات صلحها وتعلن الثورة والعصيان (٤) .

دخول عثمان بن عفان فى مرحلة الشيخوخة قبل تولية الخلافة :

ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه الخلافة كما سبق أن ذكرنا وهو ابن ثمانى وستين سنة وقال آخرون وهو ابن ست وثمانين وقال آخرون وهو ابن ثمان وثمانين أو تسعين (٥) أيا كان الخلاف فى سنه فمدة حكمه كانت فى مرحلة الشيخوخة .

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) عثمان بن عفان — محمد حسن هيكل ص ٥٥ .

(٥) الطبرى — الجزء الرابع — ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

يقول المتخصصون ان الشيخوخة مرحلة من مراحل العمر تكون من خمسين الى آخر العمر وقيل الى الثمانين وقد نوه القرآن الكريم عن مرحلة الشيخوخة في أكثر من موضع منها قوله تعالى :

« هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون » (غافر / ٦٧) -

وعندما يتجاوز المرء سن الخمسين يبدأ شعوره ببعض علامات الشيخوخة وكبر السن ، فيقل نشاطه ويحس بالتعب بسرعة عند بذل أى مجهود فكري أو جنماني وتأخذ الغدد في الضعف تدريجيا وينقص افرازها للهرمونات ، ولذلك يميل الى الهدوء والدعة والسكون وتتضاءل الآمال الكبيرة امامه ويفقد الحماس لكل جديد ، وعندما يبلغ الستين من العمر تظهر عليه بوضوح علامات الضعف والاضمحلال وتفقد العضلات والعظام مرونتها فيحس بتصلبها ويزيد خفقان القلب ونصلب الشرايين، وعند هذا السن يشحب الوجه وتتجعده البشرة ويزول يريق العين وتظهر جيوب تحتها ويتهدل الجلد عند الرقبة وحول الذقن وتصلح الرأس أو شيب شعرها ويصيب بعض الاعضاء فلة الحيوية من الارتقاء ويلحقه الاعياء الشديد عند محاولة تركيز ذهنه في شيء منها مدة طويلة وتضمحل الذاكرة (١) .

ويشير القرآن الكريم الى الوهن الذي يصاحب الشيخوخة في نداء زكريا لربه ، فيقول جل وعلا :

« قال ربى انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم آكن بدعائك رب شقيا » (مريم / ٤) -

ولما سبق يخشى أن تحد شيخوخة الخليفة عثمان من انطلاق نشاطه واتخاذ القرارات العامة في حينها ويخشى كذلك أن لا يتحمس بسبب شيخوخته لاجراء التعديلات والتغيرات للسياسات الموضوعة ومنها السياسات المالية اذا قضت بذلك ضرورات تتطلبها المصلحة العامة .

نبوة للرسول صلى الله عليه وسلم بدخول عثمان الجنة علي بلوى
تصيبه :

عن سعيد ابن المسيب قال :

· (١) نحن المبرون - تأليف حسن عبد السلام - ص ١٥ ، ١٧ .

« أخبرني أبو موسى الأشعري : أنه توضأ في بيته ثم خرج فقال :
لألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاكونن معه يومى هذا .

قال : فجاء المسجد فسأل عن النبي صلى الله عليه وسلم .

فقالوا : خرج ووجه (١) ههنا ، فخرجت على أثره أسأل عنه حتى
دخل بئر أريس (٢) - فجلست عند الباب - وبابها من جريد - حتى
قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته ، فتوضأ فقامت إليه فإذا
هو جالس على بئر أريس وتوسط قفها (٣) وكشف عن ساقيه ودلاهما
فى البئر ، فسلمت عليه ثم انصرفت فجلست عند الباب .

فقلت : لاكونن بواب رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم فجاء
أبو بكر فدفع الباب .

فقلت : من هذا ؟

فقال : أبو بكر .

فقلت : على رسلك (٤) .

ثم ذهب .

فقلت : يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن .

فقال : أئذن له وبشره بالجنة .

فأقبلت حتى قلت لأبى بكر : أدخل ورسول الله صلى الله عليه
وسلم يبشرك بالجنة فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله صلى
الله عليه وسلم فى القف ودلى رجله فى البئر كما صنع النبي صلى الله
عليه وسلم وكشف عن ساقيه ثم رجعت فجلست وقد تركت أخى (٥)
يتوضأ ويلحقنى .

فقلت : أن يرد الله بفلان خيرا - يريد أخاه - يأت به .

فإذا انسان يحرك الباب .

فقلت : على رسلك .

ثم جئت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه .

فقلت : هذا عمر بن الخطاب يستأذن .

(١) ووجه : بفتح الواو الجيم المشددة أى توجه .

(٢) أريس : بستان بالقرب من قباء .

(٣) قفها : بضم القاف وتشديد الفاء أى حافتها أو الدكة التى حولها .

(٤) على رسلك : أى تمهل وتأن .

(٥) يريد أخاه أبا بردة أو أخاه أبا رهم ، وقيل كان له أخ ثالث اسمه محمد .

فقال : ائذن له وبشره بالجنة •

فجئت فقلت : أدخل وبشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة
فدخل فجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في القف عن
يساره ودلى رجله في البئر ثم رجعت فجلست ،

فقلت : أن يرد الله بقلان خيرا يأت به •

فجاء انسان يحرك الباب •

فقلت : من هذا •

فقال : عثمان بن عفان •

قلت : على رسلك •

فجئت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ،

فقال : ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه (١) •

فجئت فقلت له : أدخل وبشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالجنة على بلوى تصيبك فدخل فوجد القف قد ملء فجلس وجاهه (٢)
من الشق الآخر •

قال سعيد بن المسيب : فأولتها قبورهم (٣ ، ٤) •

— رواية أخرى عن نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم لعثمان

كان عبد الله بن سعد وجه مروان بن الحكم الى عثمان بن عفان
من أفريقية ووجه معه رجل من العرب من لحم جذام •

قال مروان بن الحكم : فسرنا حتى اذا كنا ببعض الطريق قرب
الليل •

فقال لي صاحبي : هل لك الى صديق لي ما هنا •

قلت : ما شئت •

(١) يريد ما أصاب عثمان - رضى الله عنه - من المحاصرة ثم الشهادة يوم بدر •

(٢) وجاهه : يضم الوار وكسرهما أى مقابله •

(٣ ، ٤) يريد أنه أول حالة اجتماع للرسول صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر
في القف وانفراد عثمان في مكان آخر مواجه للرسول صلى الله عليه وسلم ، بما نكون
عليه قبورهم بعد موتهم ، فالنبي وأبو بكر وعمر في مكان واحد بالمسجد وعثمان رضى الله
عنه منفرد في البقيع • البخارى - الجزء السادس طبعة المجلس الاعلى للشئون الاسلامية
ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ •

فعدل بي عن الطريق حتى اذا أتى على دير ، واذا سلسلة معلقة
فاخذ السلسلة فحركها ، وكان أعلم مني ، فأشرف علينا رجل ، فلما
رآنا فتح الباب فدخنا فلم ينكلم حتى طرح لي فراشا ولصاحبي فراشا .
ثم أقبل على صاحبي يكلمه بلسانه فراطنه (١) حتى سوت ظنا نم
أقبل على ،

فقال : أى شيء قرابتك من خليفتهم ؟

قلت : ابن عمه .

قال : هل أحد أقرب اليه منك ؟

فقلت : لا ، الا أن يكون ولده .

قال : صاحب الأرض المقدسة أنت .

قلت : لا .

قال : فان استطعت أن تكون هو فافعل .

ثم قال : أريد أن أخبرك بشيء وأخاف أن تضعف عنه .

قلت : ألى تقول هذا وأنا وأنا ،

ثم أقبل على صاحبي فراطنه ، ثم أقبل على فسألتني عن مثل ذلك
وأجبتة بمثل جوابي ،

فقال : ان صاحبك مقتول وأنا نجد أنه يلى هذا الأمر من بعده
صاحب الأرض المقدسة (٢) فان استطعت أن تكون ذلك فافعل .

فأصابتني لذلك وجمة (٣) .

فقال لي : قد قلت لك انى أخاف ضعفك عنه .

فقلت : ومالى لا يصيبني وقد نعتت لذلك سيد المسلمين
وأمر المؤمنين .

ثم قدمت المدينة فأقمت شهرا لا أذكر لعثمان من ذلك شيئا ، ثم
دخلت عليه وهو فى منزل له على سرير ، وفى يده مروحة فحدثته
بذلك ، فلما انتهيت الى ذكر القتل بكيت وأمسكت .

فقال عثمان : تحدث لا تحدث .

(١) راطنه : أى كلم بلغته .

(٢) صاحب الأرض المقدسة : ربما يقصد على بن أبى طالب .

(٣) وجمة : وجه وجوما أى سكيت وأطرق من الحزن .

فحدثته . فآخذ بطرف المروحة يعرضها واستلقى على ظهره . وأخذ
بطرف عفيه يعركه ، حتى ندمت على اخبارى اياه .

ثم قال : صدق وسأخبرك عن ذلك :

لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك أعطى أصحابه سهما
وأعطاني سهمين . فظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أعطاني
ذلك لما كان من نفقتى ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ولكن أحببت أن يرى
الناس مكانك منى أو منزلتك منى » .

فأدبرت فلحقني عبد الرحمن بن عوف ،

فقال : ماذا قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما زال يتبعك
بصره فظننت أن قولى قد خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمهلت
حتى إذا خرج الى الصلاة ، أتيت به .

فقلت : يا رسول الله ، ان عبد الرحمن بن عوف أخبرنى بكذا وكذا
وأنا أتوب الى الله .

فقال صلى الله عليه وسلم : لا ولكنك مقتول أو قاتل فكن المقتول .
الله أعلم (١) .

— حديث المرسول صلى الله عليه وسلم يتضمن نبوة لعمر وعثمان
بالاستشهاد

فعن سعيد عن قتادة أن أنس بن مالك رضى الله عنه ، حدثهم ،
أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد أحلا وأبر بكر وعمر وعثمان
فرجف بهم ،

فقال : أثبت أحد . فأنما عليك نبى وصديق وشهيدان (٢) .

عبد ثقليل ينتظر عثمان بن عفان :

وإذا نظرنا نظرة شاملة الى المقدمات التى نوهنا عنها سابقا ، نجدها
تتضمن احتمالات بميل بعض الصحابة عن القمة الايمانية التى تركهم

(١) هذه الرواية وردت فى كتاب فتوح مصر وأخبارها — مرجع سابق — ص ١٢٧
ويشير المؤلف الى أنها من حديث لعبد الله بن معشر الأيل ويذكر أنه لا يدري أكان فى
فتح إفريقية أم بعده وميل الى الأخذ بها فيما ضمنه عما دار بين الرسول صلى الله عليه
وسلم وعثمان رضى الله عنه .

(٢) صحيح البخارى — الجزء السادس — طبعة المجلس الأعلى للمسنون الاسلامية

عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن فتحت الأمصار ، ونوايا سابقة من خليفة سابق بتعديلات جذرية في السياسة المالية ، وتنافس قبلي إذا سرى أضر بوحدة الأمة وتماسكها ، وانتفاضات بالأمصار إذا لم ترد إلى الطاعة زالت هيبة الدولة وانكمش سلطانها ، ونبوءات بفتن يفتح بابها ونبوءات أخرى بقتل الخليفة الجديد نفسه .

انه حمل ثقل القي على كتفى عثمان ولذلك لما بايعه أصحاب الشورى يذكر المؤرخون أنه خرج فيهم وهو أشدهم كآبة (١) حتى أتى منبر الرسول صلى الله عليه وسلم وقام يخطب الناس فارتج عليه .

بلورة السياسة المالية لمقابلة التحديات التي ستواجه عثمان :

وفي ضوء ما تقدم يصبح على السياسة المالية للخلافة الثالثة علاوة على أداء وظائفها التقليدية أن تنهيا لمقابلة هذه التحديات فيتم بلورتها بمراعاة ما يلي :

— أن تقوم السياسة المالية بصفة عامة على الحق والعدل والأمانة لأن هذه السمات تنبع من أحكام الإسلام نفسه ، ولأنها منجيات للدولة من الباطل والظلم والخيانة في المال العام والثلاث من وقود الفتنة .

— توضع السياسة المالية بحيث تحقق نوايا الخليفة السابق بأخذ فضول أموال الأغنياء وتوزيعها على الفقراء وجعل الناس في العطاء بيانا واحدا .

— أن تلتزم السياسة المالية بقاعدة عدم إثارة بعض ذوى قرى الخليفة أو الولاة بالمال العام تنفيذا لوصية عمر لعثمان رضى الله عنهما بعدم حمل آل معيط على رقاب الناس ولعدم اذكاء التنافس بين آل هاشم وبين بنى أمية .

— أن لا تقوم الدولة بإجراءات خاصة من شأنها زيادة غنى الأغنياء من الصحابة ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبيه من بعده خشوا عليهم الفتنة ، والمال أحيانا يكون مصدرا من مصادر الفتنة .

— أن تمول السياسة المالية جند الإسلام لرد الأمصار المنقضة إلى الالتزام بعهودها ومواثيقها وأداء حقوق بيت المال من جزية وخراج وحتى لا تتفسخ الدولة .

— أن تمول السياسة المالية جند الإسلام لنشر الدعوة وتحقيق

نصر الله بفتوحات جديدة تمكن لدين الله في الأرض ، وتؤدي الامصار
المفتوحة الجزية صاغرة وخراج الأرض لبيت مال المسلمين .

- أن يراعى في وضع السياسة المالية الأخذ بقاعدة المشورة
فتعرض على هيئة المشورة بالدولة الاسلامية وهم صحابة رسول الله
صلى الله عليه وسلم للاستئناس بأرائهم ومن نتائج المشورة أنها توحد
الرعية وراء السياسات العامة وتقلل أو تمنع قيام معارضة بسبب
نواح في السياسة العامة لم تكن روعيت عند اعدادها .

الباب الثاني

**السياسة المالية العامة الإسلامية
في عهد عثمان بن عفان ومسائل تنفيذها**

الفصل الأول

السياسة المالية المملّكة لعثمان بن عفان

تعريف السياسة المالية للدولة الإسلامية (١) :

« السياسة المالية للدولة الإسلامية عبارة عن إدارة الإيرادات العامة والنفقات العامة لهذه الدولة وتوازنها بفرض تحقيق أهداف الدولة الإسلامية » .

بناءً على هذا التعريف تكون عناصر السياسة المالية للدولة الإسلامية كالآتي :

الإيرادات العامة للدولة الإسلامية وإدارتها :

— وكانت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تشمل بصفة أساسية الزكاة وخمس الغنائم والجزية ، واستمرت كذلك في عهد أبي بكر الصديق ، ثم زادها عمر بن الخطاب بإيرادات خراج الأرض وعشور التجارة .

وقد يتحقق لببيت المال إيرادات عارضة كإيرادات الضوائع والتركات التي لا وارث لها .

— والزكاة فرضت بالقرآن أيام الرسول صلى الله عليه وسلم غير أنه بعد وفاته امتنع البعض عن دفعها فحاربهم أبو بكر الصديق وانتصر عليهم فاستقر أداؤها لببيت مال المسلمين ، فلما آلت الخلافة لعمر بن الخطاب أفتى فيما عرض عليه من مسائلها ودعم حصيلتها بالتابعة والرغبة ، وفي عام الرمادة أرجأ تحصيلها ، وقد زادت في عهده نتيجة دخول أهل البلاد المفتوحة في دين الله أفواجا .

— وخمس الغنائم يؤول لببيت مال المسلمين استناداً لآية الخمس (٢) في القرآن . طبقها الرسول صلى الله عليه وسلم فأعطى المحاربين أربعة أخماس ما غنموه في الغزوات والسرايا وآل لببيت المال خمس هذه

(١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع لكتابنا - النظم المالية في الإسلام - وكتابنا السياسة المالية لعمر بن الخطاب .
(٢) سورة الأنفال - الآية ٤١ .

الفنائم ، وقد سار أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب على سنة الرسول الكريم ، فكان يؤول خمس غنائم الفتوحات التي تمت في عهدهما لبيت مال المسلمين .

- والجزية فرضت أيضا بالقرآن الكريم (١) على أهل الكتاب الذين آلت بلادهم للدولة الإسلامية فدخلوا في حوزة المسلمين وآثروا البقاء على دينهم وعدم اعتناق الإسلام . وقد طبق الرسول الكريم نص القرآن وطبقه خليفته من بعده ، قال لبيت المال ما يدفعه أهل الكتاب من جزية مفروضة . وقد نظم عمر أوضاعها الفنية فحدد فئاتها طبقا لدرجة يسار أهل الكتاب وبين المعفون منها وأوضح طرق تحصيلها ومواعيد التحصيل بما يلائم ظروف أهل الكتاب .

وقد زادت حصيلتها تدريجيا من أيام الرسول حتى نهاية عهد عمر بن الخطاب بتوالي الفتوحات الإسلامية .

- أما الخراج فاستقر مبدأ فرضه على الأراضي الزراعية في البلاد المفتوحة بمعرفة الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب . فقد طلب الفاتحون تقسيم الأرض بينهم كباقي غنائم الفتوحات الإسلامية ، ولكن عمر احتكم الى أهل الشورى من المهاجرين والأنصار فأيدوه في عدم التوزيع ، وفرض الخراج عليها ليؤول لبيت مال المسلمين . وفي ضوء ذلك اتخذ عمر الخطوات اللازمة للتنفيذ ، فمسخ عماله الأرض وحددوا فئات الخراج بما يحقق عدالة عبئه وملائمة مواعيد تحصيله .

- والعشور أول من فرضها عمر فقد كان يؤخذ عشر قيمة تجارة المسلمين اذا أتوا أرض البلاد التي لم تدخل في حوزة الدولة الإسلامية ، وفرض عمر ضريبة مماثلة على تجار تلك البلاد اذا أتوا أرض الإسلام .

وكانت فئاتها العشر على تجارتهم ونصف العشر على قيمة تجارة أهل الكتاب الذين في ذمة الدولة الإسلامية أما بالنسبة للتجار المسلمين فلا يؤدون الا زكاة تجارتهم ان لم يكونوا قد أدوها من قبل .

- الضوائع والتركات التي لا وارث لها وهي عارضة ولا تكون موردا غزيرا منتظما للدلالة الإسلامية .

النفقات العامة للدولة الإسلامية وإدارتها :

الانفاق العام في المالية العامة الإسلامية منظم على النحو التالي :

(١) سورة التوبة - الآية ٢٩ .

- ينفق من إيرادات الزكاة على وجوها المحددة بالقرآن (١) فتؤول للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل .

وقد طبق الرسول الكريم ذلك وتبعه أبو بكر وعمر ، غير أن عمر رأى عدم الانفاق منها على المؤلفة قلوبهم لانتفاء حكمته بعد أن قويت الدولة الإسلامية .

- ينفق من إيرادات خمس الغنائم على وجوها المحددة بالقرآن (٢) فبكون لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

وقد طبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، غير أن خليفته من بعده رضى الله عنهما وجها سهم الرسول وذى القربى للانفاق على الكراع والسلاح .

- ينفق من إيرادات الجزية والخراج وعشور التجارة على سائر النفقات العامة التى تتطلبها ادارة الدولة الإسلامية وأداء الخدمات العامة وتحقيق سائر أهداف الدولة الإسلامية ، وهذه النفقات العامة زادت تدريجيا منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الى نهاية عهد عمر وذلك بسبب اتساع الدولة الإسلامية تدريجيا وتزايد رعاياها واكتمال كيانها .

- ينفق من إيرادات التركات التى لا وارث لها والضوائع على الفقراء .

توازن السياسة المالية الإسلامية :

التوازن التقليدى للمالية العامة هو أن يكون الانفاق العام للدولة فى حدود إيراداتها غير أنه حديثا يقصد بتوازن السياسة المالية أن تساهم فى تحقيق التوازن الاقتصادى العام وعلى ذلك من الممكن أن يزيد الانفاق العام عن الإيرادات العامة للدولة واحداث عجز محدد يغطى بقروض تعدها الدولة لتحقيق التوازن العام .

وقد حققت المالية العامة الإسلامية فى عهد كل من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فائضا مكنهما من توزيع أعطيات على الرعية وإن كان نصيب أفراد الرعية زاد فى عهد عمر بن الخطاب وبعد أن كان أبو بكر يوزع الأعطيات بالتساوى خالف عمر ذلك فزاد أنصبة ذوى قربى

(١) سورة النوبة آية ٦ .

(٢) سورة الأقال آية ٤١ .

الرسول صلى الله عليه وسلم والذين كان لهم فضل السبق والجهاد في الاسلام .

تحقيق أهداف الدولة الإسلامية :

ينبغي أن توصل إدارة الإيرادات العامة والتفقات العامة وتوازن المالية العامة الإسلامية الى تحقيق تمويل أهداف الدولة الإسلامية وهي متعددة ولعل أهمها وأعمها نصره الاسلام وانتشاره وما يدخل في نطاق الرعاية التي أشار اليها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في حديثه المشهور عن الرعاية الذي نوهنا عنه سابقا .

السياسة المالية لعثمان بن عفان كما أعلنها في كتابه :

عند ما ولي عثمان بن عفان الخلافة خطب الناس الخطبة التالية :

« الحمد لله . أيها الناس ، اتقوا الله ، فان الدنيا كما أخبر الله عنها « لعب ولهو وزينة وتفاسخ بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمنبل غيت أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور فخير العباد فيها من عصم الله واستعصم بالله وبكفاية . وقد وكلت من أمركم بعظيم ولا أرجو العون عليه الا من الله ولا يوفق للخير الا هو وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » .

ويعلق أحد الكتاب على ذلك فيقول :

« وكانت كلماته هادئة رصينة لينة كلها نصائح تتعلق بالدين بعيدة كل البعد عن السياسة وكأنه أراد أن لا يلزم نفسه بنهج خاص يقيده ويأخذ عليه طريقه » (١) .

غير أن الطبري أورد خطبة أخرى .

خطب عثمان الناس فحمد الله وأثنى عليه صلى الله عليه وسلم وقال :

« انكم في دار قلعة وفي بقية أعمار ، فبادروا أجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتكم ، صبيحتم أو مسيتكم ، ألا وأن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تفرنكم الحياة الدنيا ، ولا يفرنكم بالله الغرور ، اعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا ، فانه لا يغفل عنكم » أين أبناء الدنيا واخوانها الذين أثاروها وعمروها ، ومتعوا بها طويلا ، ألم تلفظهم ، ارموا بالدنيا حيث رمى بها الله ، واطلبوا الآخرة ، فان الله قد ضرب لها مثلا وللذي هو خير فقال عز وجل :

(١) مع الخلفاء الراشدين للأستاذ عبد الحاق أبو راببة ص ٥٠ .

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا - المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا : » (الكهف ٤٥ ، ٤٦) (١) .

ويورد الطبري عن مصدر آخر خطبة أخرى لعثمان بعد ما يبيع فقال :

« أما بعد ، فاني قد حملت وقد قبلت ، ألا وأني لتبع لست مبتدع إلا وان لكم على بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثا :

اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم ، ومن سنة أهل الخير فيما لم تستنوا عن ملأ - والكف عنكم إلا فيما استوجبتم ، ألا فان الدنيا خضرة قد شهيت الى الناس ، ومال اليها كثير منهم ، فلا تركنوا الى الدنيا ولا تثقوا بها ، فانها ليست بثقة ، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها (٢) .

ويقول البعض أنه لما يبيع عثمان خرج الى الناس وأراد أن يخطبهم فارتج كما سبق أن ذكرنا ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس ان أول مركب صعب ، وان بعد اليوم أياما - وان أعشر تأتكم الخطبة على وجهها وما كنا خطباء وسيعلمنا الله . » (٣)

ولم تتضمن هذه الخطبة أية إشارة للسياسة المالية ، مع أن الخطب الأولى لمن يلون أمر الأمم تنبئ الشعب بالسياسة العامة ومنها السياسة المالية التي نوى ولي الأمر تطبيقها غير أنه فيما بعد وجه عثمان رضى الله عنه كتابا الى الولاة وكتابا آخر الى عمال الخراج وأذاع كتابا على العامة هذه نصوصها .

كتاب عثمان بن عفان الى الولاة :

« أما بعد ، فان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم ينقدم اليهم أن يكونوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة . فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء والامانة والوفاء بما عليهم ، ثم تثنوا بالآمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذى عليهم ثم العدو الذى ينتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء (٤) .

كتاب عثمان الى عمال الخراج :

(١) الطبرى مرجع سابق ٢٤٣ .

(٢) الطبرى مرجع سابق ص ٤٢٢ .

(٣) عثمان ذو النورين - محمد رضا - ص ٣٢

(٤) الطبرى جزء - - ص ٢٤٥ طبعة دار المعارف - الطبعة الرابعة .

وكتب عثمان الى عمال الخراج يقول « أما بعد فإن الله خلق ، الخلق بالحق فلا يقبل الا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق به . والأمانة ، الأمانة ، قوموا عليها . ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم ، والوفاء ، الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن لله خصم لمن ظلمهم » (١) .

كتاب عثمان الى العامة :

وأذاع عثمان الى العامة كتابا ، قال فيه :

« أما بعد ، فإنكم إنما بلغت ما بلغت بالاعتداء والاتباع . فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم ، فإن أمر هذه الأمة صائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الاعراب والاعاجم القرآن . وقد قال رسول الله : (الكفر في العجمة) فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا (٢) .

تحليل ورد بكتب عثمان السابقة خلاصا بالسياسة المالية :

تضمن كتاب عثمان للولاة فيما يتعلق بالمسائل المالية ما يلي :

- أن يكون الولاة رعاة ولا يكونوا جباة .
- اعطاء المسلمين مالهم وأخذ ما عليهم فيما يتعلق بالأموال العامة .
- اعطاء أهل الذمة مالهم وأخذ ما عليهم فيما يتعلق بالأموال العامة .

وتضمن كتاب عثمان لعمال الخراج المسائل التالية :

- أخذ الأموال العامة بالحق واغطائها بالحق .
- التخلق بالأمانة في التعامل بالمال العام .
- التخلق بالوفاء لسواء لبيت المال أو للممول .
- عدم ظلم اليتيم في مسائل المالية العامة .
- عدم ظلم المعاهد في علاقاته المالية مع الدولة .

وتضمن كتاب عثمان بن عفان رضي الله عنه للعامة حقيقة لها علاقة بالمسائل المالية وهي :

- تكامل النعم يؤدي للابتداع .

ومما يلاحظ على ما تضمنته الكتب السابقة أن بعض ما ورد بكتاب عثمان للولاة تكرر في كتابه لعمال الخراج كتطبيق الحق في الأخذ وتطبيقه في العطاء وعدم ظلم أهل الذمة .

ويلاحظ كذلك أن كتبه لم تتضمن عزمه على تطبيق سياسة مالية عامة اسلامية وهذه لها مقومات تختلف عن السياسات المالية غير الاسلامية وهو أمر مفترض التطبيق ولا يحتاج من خلفاء المسلمين الى تنويه عندما يعلنون سياساتهم المالية لأنهم يحكمون تحت راية الاسلام -

السياسة المالية المعلنة لعثمان بن عفان :

وفي ضوء ما سبق تكون عناصر السياسة المالية العامة التي أعلنتها ثالث الخلفاء الراشدين قامت على الأسس العامة التالية :

- تطبيق سياسة مالية عامة اسلامية -
- عدم اخلال الجباية بالرعاية -
- أخذ ما على المسلمين بالحق لبيت مال المسلمين .
- اعطاء المسلمين ما لهم من بيت المال بالحق .
- أخذ ما على أهل الذمة لبيت مال المسلمين بالحق واعطائهم ما لهم وعدم ظلمهم .
- تخلق عمال الخراج بالأمانة والوفاء .
- تفادي أية انحرافات مالية يسفر عنها تكامل النعم لدى العامة -

ونناقش فيما يلي هذه الأسس :

الأساس الأول : نية عثمان بن عفان تطبيق سياسة مالية عامة اسلامية :

من البديهي أن الخليفة الثالث عثمان بن عفان نوى أن يطبق سياسة مالية عامة اسلامية وان لم يعلن عن ذلك صراحة ، وكان ذلك أمراً لا ريب فيه ، فقد بويح رضى الله عنه على أساس تطبيق حكم الله وسنة رسوله وان ينهج نهج الخليفتين قبله .

وتطبيق حكم الله يلزم من يلي أمر المسلمين ، أن يتخذ القرآن دستورا ، فالقرآن تتضمن آياته نصوصا خاصة بالمالية العامة ، فالزكاة والجزية وخمس الغنائم وهي من الإيرادات العامة للمالية الاسلامية تستند الى آيات فى القرآن الكريم والانفاق العام من الزكاة وخمس الغنائم تحدد كذلك بنصوص القرآن .

وقد طبق أبو بكر الصديق رضى الله عنه ما نزل به القرآن الكريم وما سنه الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل ان أبا بكر كما نوهنا سابقا قاتل الممتنعين عن أداء الزكاة .

وطبق عمر بن الخطاب كذلك المالية العامة الاسلامية ونظم قواعدها وأرسى مبادئها وزاد مواردها ورشد انفاقها ، ومما يجزم بنية التطبيق لدى عثمان وان لم يعلن عنها شواهد أخرى نوهنا عنها عن مناقب عثمان قبل مبايعته وهي أنه صحابي جليل كان من السابقين الى الاسلام ، ذو صلات عديدة بالرسول صلى الله عليه وسلم وكان كاتب الوحي وتطوع بماله الخاص في سبيل دعوة الاسلام وقضاء حاجات المسلمين وتفريج عسرهم .

وأهمية تطبيق المالية العامة الاسلامية أنها تنفذ حكم الله في الأرض فالأغنياء يدفعون الزكاة سنويا لبيت المال وبيت المال يوزعها على الفقراء والمساكين ، وأهل الكتاب يدفعون الجزية لبيت مال الدولة الاسلامية وبذلك يدخلون في ذمتها نحميهم وتوفر لهم الأمان وتضفي عليهم سائر خدماتها العامة ، والمحاربون المسلمون يحاربون لنشر دعوة الاسلام ، ويحقق الله لهم النصر ويفنون أموال الأعداء ، فيرسلون خمسها بالحق لبيت مال المسلمين ويفوم بيت المال بتوزيعها على اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وغيرها من وجوه الانفاق طبقا لآية الخمس .

وبذلك تتميز المالية العامة الاسلامية بأنها مرتبطة بالاسلام . تطبق تعاليمه وتحمي ايراداته ويساند الانفاق العام فيها نشر راية الاسلام وخير المسلمين .

وهي مرشدة الانفاق العام لأن تعاليم الاسلام تمنع الاسراف وتحاربه والله لا يحب المرففين ، وهي مرشدة الادارة لأن السفهاء وهم من لا يجيدون ادارة الأموال ممنوعون بنص القرآن من أن يؤثروا المال عموما سواءا كان عاما أو خاصا .

وهي مالية عامة خيرة لأن بعض مواردها العامة توجه للبنية الضعيفة من الرعاية .

وهي مالية عامة نقية من الدنس ولا تتضمن مواردها كسبا من حرام لأن الله ﷻ يبارك الكسب الحرام فلا تتضمن ايراداتها مثلا ايرادا من انتاج خمر أو بيعه أو من ادارة بيوت للمراهقات أو الميسر أو ايرادات من فوائد ربوية عن قروض قدمتها الدولة للغير ، وهي مالية عامة ثواب المسلمين فيها مزدوج ، فلا يدفعون الفرائض المالية لبيت المال لخدمات عامة تعود عليهم فقط بل يبغون أيضا ثواب الله في الدنيا والآخرة ، فمن يدفع الزكاة يؤدي فريضة الله التي هي نفس الوقت فريضة الدولة تؤول لبيت مال المسلمين ، فهناك توافق اذا بين ما أمر به الله وما تطلبه الدولة .

الأساس الثاني : علم اخلاص الجباية بالرعاية

ينبه عثمان بن عفان رضى الله عنه فى كتابه للولاة أن جباية أموال بيت المال كادت تطفى على الواجب الأول للولاة وهو رعاية الرعية ، ذلك أن الجباية احدى واجبات الرعاية المكلف بها رئيس الدولة الاسلامية ، فلا يصح أن تطفى على سائر الواجبات ، وقد حدد الفقهاء تكاليف الرعاية أى واجبات الأمة لتحقيق رعاية الشعب كما يلى :

فيقول أحدهم (١) : ويلزم الامام من أمور الأمة عشر أشياء

- حفظ الدين على الأصول التى أجمع عليها سلف الأمة .

ليكون الدين محروسا من الخلل والأمة ممنوعة من الزلل .

ويختص به حديثا مرفق التعليم والخدمات الدينية وذلك بتعليم علوم الدين ونشرها .

- تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بينهم . حتى تظهر النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم .

وهذا يتولاها حديثا مرفق العدالة من محاكم وقضاة وسائر ادارات وزارات العدل .

- حماية البيضة والذب عن الحوزة ، لينصرف الناس فى المعاش وينتثروا فى الاسفار أمنين .

وهذا يقوم به حديثا مرفق الشرطة والأمن الداخلى .

- إقامة الحدود لتصان محارم الله عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده عن اتلاف واستهلاك .

وهذا يقوم به حديثا مرفق العدالة الذى ينبغى أن يطبق أحكام الشريعة الاسلامية .

- تحصين الثغور بالقوة المانعة والقوة الدافعة ، حتى لا يظفر الأعداء بثغرة ينهكون بها محرما ويسفكون فيها دماء مسلم أو معاهد . وهذا يقوم به حديثا مرفق الدفاع والحرب .

- جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل فى الذمة . والفروض أن يقوم به حاليا مرفق الدفاع والحرب .

(١) النظم الاسلامية - الجزء الثانى - تأليف د. محمد عبد الله العربى ص ٦٩ وقد نقل هذه التكاليف عن ابو يعلى فى الأحكام السلطانية .

— « جباية الفىء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا
من غير عسف » . وتقوم به حاليا مصالح الإيراد بالدولة وتتبع عادة
وزارات المالية أو الخزانة .

— « تقدير العطاء وما يستحق فى بيت المال من غير سرف ولا تقصير
فيه فى وقت لا تقديم فيه ولا تأخير » .
وتقوم به حاليا وزارات المالية أو الخزانة .

— « استكفاء الأمانة وتقليد النصحاء فيما يفوضه اليهم رئيس
الدولة من الأعمال ويكله اليهم من الأموال لتكون الأموال محفوظة
والأعمال مضبوطة » .

وحديثا يتولى ذلك وزارات وأجهزة العمل والعاملين .

— « أن يباشر الامام بنفسه مشاركة الأمور وتصفيح الأحوال ليهتم
بسياسة الأمة وحراسة الملة ، ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو
عبادة ، فقد يخون الأمين ويشس الناصح — وقد قال تعالى : .

« يا داوود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق
ولا تتبع الهوى » (ص/٢٦) .

ويقوم بذلك حاليا رئيس الدولة ويتبعه مرفق الرئاسة .

— اعداد موازنة عامة حديثا يتوضح بها تكاليف الرعاية

هذه هى تكاليف الرعاية كما يوردها الفقهاء ، وهى قابلة للتطوير
بما يلائم تطور الأزمان والعصور بحيث لا يخالف التطوير نصا من نصوص
القرآن أو حكما من أحكام الدين .

وحديثا تعد كل دولة موازنة عامة سنوية يتوضح بها أنشطة الدولة
نشاطا نشاطا وما قدر لكل نشاط من اعتمادات توجه للانفاق العام على
أدائه خلال السنة المالية ، كما تتضمن الموازنة العامة بيانات بتقديرات
الإيرادات العامة المنتظر جبايتها خلال السنة المالية .

وتوزع الاعتمادات على مرافق الدولة المختلفة وأنشطتها طبقا
لأولويات معينة وفى ضوء أهميتها فى المدة المعدة عنها الموازنة العامة
وبذلك لا يخل نشاط للدولة بنشاط آخر لها وبذلك تقوم الدولة ببعض
تكاليف الرعاية التى حدث بها الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديثه
السابق عن الرعاية .

الأساس الثالث : أخذ ما على المسلمين بالحق لبیت مال المسلمين :

عمال الخراج نواب عن الدولة في استثناء حقوق بيت المال ، فإذا أخذوا ما على المسلمين بالحق أدوا واجبه المنوط بهم . وإذا غالوا في جباية حقوق بيت المال ، ظلموا الممولين وألحقوا بهم الضرر وحملوهم فوق ما يطيقون والرسول صلى الله عليه وسلم يحذر من المغالة في استثناء حقوق بيت المال كما يتضح مما يلي :

ـ نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن جباية كرائم الأموال في الزكاة

جباية كرائم الأموال في الزكاة لا يسائر الحق الذي يجب على عامل الخراج اتباعه عند استثناء حقوق بيت المال ، ذلك لأن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم نهى عنه أكثر من مرة ، بسبب أن أخذ كرائم الأموال غبن لصاحب المال والغبن لا يقره الشرع ولأنه ينفر أصحاب الأموال من إخراج الزكاة ، وفي ذلك مضية للفقراء والمساكين ، فقضت عدالة الإسلام أن تؤخذ الزكاة من أوساط الأموال لا من كرائمها ولا من أدائها ، وأحاديث الرسول على الله عليه وسلم في ذلك كثيرة نورد منها ما يلي :

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً إلى اليمن فقال :

« انك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تسعوهم إليه عبادة الله تعالى ، فإذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أن الله تعالى قرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فأنها ليس بينها وبين الله حجاب » (١) .

وعن سمر بن ديسم الكنانى الدلى ، عن مصدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهما قالا : نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نأخذ شافعا والشافع التى فى بطنها ولدها .

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشافع لأن الشافع من كرائم الأموال (٢) .

عن صنباح بن الأعسر الصنابحي - رضى الله عنه قال :

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى - ورد فى كتاب المنتخب من السنة المجلد السادس - طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .
(٢) الحديث أخرجه الامام أحمد وأبو داود والنسائى وأخرجه أيضا الطبرانى وقد ورد فى كتاب المنتخب من السنة - الجزء السادس - ص ٢٢٠ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم - في ابل الصدقة ناقة مسنة
فغضب ، وقال : ما هذه ؟

فقال : يا رسول الله انى ارتبعتها ببعيرين من حاشية الصدقة
فسكت (١) -

وقد غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الناقة المسنة من
كرائم الأموال ، فلما أوضح له المصدق أنه أخذها بدلا من بعيرين من
حاشية الصدقة وجبا على صاحب الأموال أقره رسول الله صلى الله عليه
وسلم على ذلك حيث لم يجاوز المصدق أمره صلى الله عليه وسلم بعدم
الأخذ من كرائم الأموال .

- أمر الرسول الكريم بالتخفيف في استثناء زكاة الثمر

جباية زكاة الثمار على أساس قيمة المحصول بالكامل يجافى الحق
الواجب على جابى الزكاة تطبيقه ، لأن هذه المحاصيل تتعرض للنقصان
بسبب أكل أصحابها منها ولما يهبونه منها للغير وبسبب أكل المارة
وحيواناتهم ، ولذلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المصدقين أن يخفوا
في استثناء زكاة الثمار لأن المحصول يتعرض للنقصان بسبب العرية
وهي نخلات يهبها رب المال لشخص يجنى ثمارها - أو بسبب الواطنة -
وهم المارة في الطريق وقد سموا بذلك لوطنهم بلاد الثمار مجتازين -
أو بسبب الآكلة - وهم من يأكلون من الثمار وهم أرباب الثمار وعمالهم
وأقاربهم وجيرانهم .

فقد روى أبو عبيد بإسناده عن مكحول قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بعث الخراس قال :

« خففوا على الناس ، فان في المال العرية والواطنة والآكلة » (٢) .

وقد أوضح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كذلك مقدار هذا
التخفيف فعلى الخراس أن يترك ثلث أو ربع الخرص توسعه على أرباب
الأموال لأنهم يحتاجون الى الأكل هم وأضيافهم ويطعمون جيرانهم وأهليهم
وأصدقاءهم ، فان استوفى العامل الكل منهم أضر بهم ولا ضرر ولا ضرار
في الاسلام .

وإذا كان المتروك بين الربع والثلث فان المرجح في ذلك الى المصدق
باجتهاده فان رأى الآكلة كثيرا ترك الثلث وإن كانوا قليلا ترك الربع .

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - مرجع سابق - ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٢) الأموال لأبي عبيد ، ص ٥٨٦ .

فعن سهل بن أبي حثمة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إذا خرصتم فجنوا (١) ودعوا الثلث (٢) فإن لم تجنوا أو تدعوا فدعوا الربع » (٣) .

الأساس الرابع : اعطاء المسلمين ما لهم من بيت المال بالحق :

عطاء بيت المال للمسلمين اما أن يكون مباشرا كصرف الزكاة للمستحقين لها وما يقضى به نظام الأعطيات من توزيع فائض الأموال على المسلمين أو يكون العطاء العام غير مباشر يتمثل فى الخدمات العامة التى تؤديها الدولة للرعية وهذه ينطق عليها من بيت مال المسلمين .

وفى كلا العطاءين ينبغى أن يتسم العطاء بالحق - فلا يجوز فى العطاء المباشر أن تخالف الأسس التى تحددت لوضعه محاباة لبعض الأفراد أو حرمانا أو نقصانا للبعض الآخر دون مبرر ولا يجوز أن يتأخر العطاء عن موعده بسبب تعقد الاجراءات أو كثرة الحجب التى تعجب أرباب الظلامات عن الوصول لمن بيدهم أمر العطاء لبحث ظلاماتهم من تأخير العطاء أو قلته أو عدم وصوله اليهم - ولا يجوز فى العطاء غير المباشر المتمثل فى الخدمات العامة التى تؤديها الدولة للشعب أن تكون لمنفعة فرد معين بل يجب أن يعود نفعها على الأمة جمعاء .

الأساس الخامس : عدم ظلم أهل الذمة واخذ ما عليهم لبيت المال بالحق واعطائهم حقوقهم بالحق كذلك :

لا يجوز ظلم أهل الكتاب عند استثناء الجزية منهم لان أهل الكتاب من الدميين الذين يقيمون فى الدولة الاسلامية وهم فى ذمتها ورعايتها ماداموا يؤدون الجزية وقد أوصى بهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ولى عبد الله بن أرقم على جزية أهل الذمة - فلما ولى من عنده ناداه فقال « ألا من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقتة أو انتقصه أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة » (٤) .

استنادا لذلك فقد أوصى بهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين موته فقال :

(١) جلدوا : أى اقطعوا .

(٢) دعوا الثلث : أى اتركوه .

(٣) الخراج لأبى يوسف ص ١٢٥ .

(٤) المنتخب من السنة - مرجع سابق - ص ٢٦١ .

« أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيرا ، أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم » (١) .

فاذا آذى عمال الجزية الذميين أو كلفوهم فوق طاقتهم أو عذبوهم أو أخذوا الجزية من الشيخ الكبير الذى لا شيء له ولا يستطيع العمل أو أخذوها من الذمى الذى أسلم كان هذا لونا من ألوان الظلم الذى نبه الخليفة الثالث فى كتابه عمال الخراج بعدم ارتكابه مستندا فى ذلك لتعاليم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

هذا وعلاوة على الجزية يؤدى أهل الذمة الذين يزرعون أرض الخراج وهى التى آلت للدولة الإسلامية كضريبة نتيجة للفتح الإسلامى ما يستحق عليها من خراج لبیت مال المسلمين ويجب أن يراعى عمال الخراج الحق فى تحديد قيمته المستحقة على الأرض التى يزرعها أهل الذمة . وذلك بمراعاة العوامل التى تحكم تحديده لان اغفالها كلها أو بعضها يوقع الظلم بأهل الذمة الذين يزرعونها وهذه العوامل أربع وهى :

أحدها : ما يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها أو رداءة يقل بها ريعها .

الثانى : ما يختص بالزرع من اختلاف أنواعه من الحبوب والثمار فمنها ما يكثر ثمنه ومنها ما يقل ثمنه فيكون الخراج بحسبه .

والثالث : ما يختص بالسقى والشرب لان ما التزم المشونة فى سقية النواضح والدوالى لا يحتمل من الخراج ما يحتمله سقى السيوح والأمطار .

والرابع : أن لا يستقضى فى وضع الخراج غابة ما تحتمله ليجعل فيها لأرباب الأرض بقية يجبرون بها فى النوائب والجوائح (٢) .

هذا وإذا كانت الدولة الإسلامية قد أبرمت عهدا أو عقدت صلحا مع أهل الكتاب فوجب الدولة الإسلامية وعمال خراجها أن يلتزموا بما ورد بها من شروط ومنها الشروط التى تحدد قيمة ما يدفعونه من جزية أو خراج ، لان المسلمين اذ أبرموا عقدا أو عهدوا عهدا التزموا بالوفاء بالعقود والعهود .

(١) الخراج لأبى يوسف ص ١٢٥ .

(٢) مقال عن الموارد المالية فى الإسلام بقلم فضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن منشور

بالجزء الثانى من بحوث مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية .

الأساس السادس : عدم ظلم اليتيم :

لليتيم حقوق في المال العام بنصوص القرآن الكريم فهو من المستحقين لأموال الزكاة ان كان فقيرا تطبيقا لقول الله سبحانه وتعالى :

« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (التوبة / ٦٠) .

ولليتيم نصيب في خمس الغنائم تطبيقا لقوله جل وعلا :

« واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » (الأنفال / ٤١) .

ولليتيم نصيب في عطاء بيت المال فقد كان يفرض للأطفال عموما ومنهم يتامى الأطفال .

واليتيم هو من مات أبوه قبل البلوغ ، وقد سئل ابن عباس عن اليتيم متى ينقطع عنه اسم اليتيم فأجاب :

« أما اليتيم اذا احتلم وأونس منه الرشيد فقد انقطع عنه اليتيم ، (١) » .

واذا كان اليتيم غنيا فيؤدى الزكاة المفروضة على أمواله اذا توفرن شروطها تطبيقا لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم :

« ابتغوا بمال اليتيم لا تذهبها الزكاة » (٢) .

وواجب المصدق أن يأخذ الزكاة بالحق والعدل حتى لا يذهب ظلمه بمال اليتيم أو جزء منه بغير وجه حق .

الأساس السابع : تخلق عمال الخراج بالأمانة والوفاء :

يطالب الخليفة الثالث عمال الخراج أن يتحلوا بالأمانة وهي صفة لازمة لجميع من يشتغلون بالأموال العامة « واذا لم تتوفر فيهم هذه

(١) مقال « الموارد المالية في الاسلام » لفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن - نشر بالجريدة الثانية من مجلدات مؤتمر البحوث الاسلامية .

(٢) الأموال لأبي عبيد ص ٥٤٨ ومعنى الحديث أن مال اليتيم ينبغي أن يستثمر حتى لا تأخذ الزكاة جزءا منه كل عام فتفنيه .

الصفة جاروا على حقوق بيت المال وجاروا على الممولين ، وانتكست العلاقة بين بيت المال والممولين . القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة تنبه وتحض على التزام الأمانة :

فيقول الله تعالى :

- « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » (النساء / ٥٨)
- « لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم » (الأنفال / ٢٧)
- « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » (المؤمنون / ٨)
- وعن أبي موسى الأشعري يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
- « ان الخازن المسلم الأمين الذي يعطى مالا أمر به كاملا موفورا ، طيبة به نفسه حتى يدفعه الى الذي أمر له به ، أحد المتصدقين » (١) .
- وعن بريدة الأسلمي رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
- « من استعملناه على عمل فرزقناه رزقا فما أخذ بعد فهو غلول » (٢) .

ويطالب الخليفة عثمان كذلك عمال الخراج بأن يتحلوا بالوفاء ، وقد ورد الوفاء مطلقا في كتاب الخليفة فيشمل الوفاء لبيت المال بمراعاة استثناء كامل حقوقه من الرعية والوفاء للممولين بعدم ظلمهم بالمغالة في تحديد الفرائض المالية المطلوبة منهم والوفاء لاهل الذمة بالرفق وحسن المعاملة وتطبيق ما تضمنته شروط الصلح معهم من جزية وخراج دون زيادة .

الأساس الثامن : أثر تكامل النعم على مسار الأمة :

لم يرد عثمان بن عفان رضى الله عنه أن يترك العامة دون نصير فحذرهم من أن تجذبهم الدنيا الى ملاذها ومتاعها وخشى أن أمر الأمة صائر الى الابتلاء بعد أن توفرت لهم ثلاث : وهى تكامل النعم ، وبلوغ أولاد السبائيا وقراءة الأعاجم القرآن .

(١) المنتخب من السنة النبوية الشريفة عدد ٣٦ المجلد الثاني ، ص ١٠٠٠ ، ١٠٠١

هدية منبر الاسلام .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٠٢ .

فعثمان بن عفان أدرك أن تكامل النعم لدى البعض سيميل بأولى النعم عن المسار السليم ، لأن تكامل النعمة بزيادة الأموال لدى أفراد الرعية قد يفسدهم بسبب ما ينفقونه على الترف والملذات .

والله تعالى يقول :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (الإسراء / ١٦) .

سياسة عثمان المعلنة تشابه سياسة عمر المعلنة :

هذا هو تحليل للسياسة المالية التي أعلنها عثمان بن عفان وهي عموما تكاد تتفق مع السياسة المالية العامة التي أعلنها سلفه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين ولي أمر المسلمين ، فقد أعلن وقتئذ :

« أن المال العام لا يصلحه إلا خلال ثلاث ، أن يؤخذ بالحق ويعطى فى الحق ويمنع من الباطل » (١) .

ألا ترى أن السياستين تنبعان من مشكاة واحدة وهي مشكاة الاسلام ومبادئه .

غير أنه مما يلاحظ على سياسة عثمان بن عفان المعلنة أنها لم تعرض على الصحابة لاستشارتهم فيها ولم تستوف بعض النقاط العامة السابق التنويه عنها فى نهاية الباب السابق كى تتمكن السياسة المالية من مقابلة بعض التحديات التى سبقت عهد عثمان بن عفان ، على أن الأمر فى هذا الشأن يتوقف على تنفيذ السياسة المالية وما إذا كان روعى فى تطبيقها تفادى تأثير تلك التحديات من عدمه ، وهو ما سنتبينه فى الأبواب التالية .

(١) السياسة المالية لعمر بن الخطاب - تأليف قطب إبراهيم محمد ص ٢٣ وما بعدها .

الفصل الثاني

تنفيذ السياسة المالية الإسلامية في عهد

عثمان بن عفان

تصور موازنات عامة للمالية العامة في عهد عثمان :

في المالية العامة الحديثة تكون الموازنة العامة للدولة ركنا هاما من أركان سياستها المالية لان الموازنة العامة تشمل في جانب منها بيانا بالايادات العامة للدولة وفي الجانب الآخر بيانا بنفقاتها العامة والايادات تحصل من موارد محددة تصدر بها قوانين تحدد فرضها والخاصين لها وكيفية تحديده أويعيتها والفئات التي تستقطع من هذه الأوعية وطرق تحصيلها ، والنفقات العامة تنفق على أغراض مقررّة وفي حدود اعتمادات محددة وفي ظل نظم وقوانين ولوائح تضبط الانفاق وتراقبه وترشده .

ولم تعرف الموازنة العامة الا في القرن الثامن عشر ، فلم يكن الفن المالي في عهد الخليفة عثمان بن عفان ولا في عهد غيره من رؤساء الدول الأخرى غير الإسلامية في ذلك الوقت قد تطور نحو اعداد الموازنة العامة للدولة .

غير أن المتأمل في النظام المالي الإسلامي يلحظ أنه اشتمل على العناصر والمقومات التي تمكن من اعداد هذه الموازنة وتحقيق أهدافها .

فالنظام المالي الإسلامي نظام متكامل له ايراداته العامة على النحو الذي ذكرنا وله نفقاته العامة وبذلك شمل على جانبي الموازنة العامة للدولة وكان يراعى التوازن المالي في عهد الخلفاء الراشدين وغيرهم وذلك بأن يكون الانفاق العام في حدود الموارد العامة بل ان النظام المالي الإسلامي حقق فائضا مكن من توزيع إعطيات على المسلمين كما سبق ان ذكرنا .

والموارد والنفقات العامة في الإسلام يحكمها القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة أو الأئمة معاً ، فالزكاة كما ذكرنا مفروضة بالقرآن وكلنا وجوه انفاقها ويعزز تفاصيلها ما طبقه الرسول الكريم

صلى الله عليه وسلم . وكذلك خمس الغنائم حدد القرآن وتطبيقات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إيراداتها ووجوه انفاقها ، والجزية فرضت بالقرآن الكريم وطبقها الرسول صلى الله عليه وسلم بكتبته التي كان يرسلها للملوك يدعوهم للإسلام أو الجزية وكان يراعى التيسير والعدل في استئذائها من أهل الكتاب . وكان تطبيق الرسول صلى الله عليه وسلم لها مرشدا لخلفاء الإسلام وولاة الدولة الإسلامية من بعد الرسول صلى الله عليه وسلم . والخراج وعشور التجارة فرضا في إطار الشورى التي تعتبر في الإسلام دعامة هامة من دعائم السياسات العامة ومنها السياسة المالية .

إذا ففي الإسلام إطار قرآني وسنن رسول كريم تحيط بحركة المالية العامة وتوجه مسارها كل هذا يدعونا في مناقشتنا للسياسة المالية المنفذة والمطبقة في عهد عثمان بن عفان أن نقدم بحث هذه السياسة بتصور موازنة عامة في سنة مالية من سنوات عهده تشمل إيرادات الدولة الإسلامية ونفقاتها العامة .

ومسايير : للنهج المالي الإسلامي ولما يستلزمه من تخصيص بعض الإيرادات العامة لوجوه اتفاق محددة ، فإن الموازنة العامة للدولة الإسلامية تتكون من أربع موازنات عامة ثلاث منها تخصص إيراداتها للاتفاق على وجوه اتفاق محددة والرابعة عامة ينفق منها على جميع وجوه الاتفاق العام للدولة ، وهي :

الموازنة العامة للزكاة :

وايراداتها العامة من منحصلات الزكاة وأوجه نفقاتها العامة محددة بالقرآن وهي للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل .

موازنة الضوائع :

وهي موازنة عارضة بطبيعتها لأن مواردها عارضة مصدرها الضوائع وتركات من لا وارث له وينفق منها على الفقراء فهي بذلك تتضمن مع موازنة الزكاة في تمويل حاجات الفقراء .

الموازنة العامة لخمس الغنائم :

وايراداتها العامة من خمس الغنائم الذي يؤول لبيت المال وينفق في وجوه حددها القرآن الكريم وهي للرسول ولدى القريبى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

الموازنة العامة للجزية والخراج وعشور التجارة :

وتكون مواردها من الجزية وأموال الخراج وعشور التجارة ويمثل جانب النفقات فيها كل ما ينفق على المصالح العامة كرواتب الخلفاء والولاة والقضاة والجند ونفقات إدارة مرافق الدولة الإسلامية وإعانات ومعاشات رجال الإسلام وما ينفق على المشروعات العامة كأقامة المساجد وحفر الآبار واقامة الجسور وغيرها .

وقد جرت العادة في الموازنات العامة الحديثة أن تقسم إيرادات الموازنة ونفقاتها الى أبواب ، وتطبيقا لذلك يمكن تقسيم الإيرادات العامة للدولة الإسلامية ونفقاتها العامة الى الأبواب التالية :

يمكن أن نقسم الإيرادات العامة للدولة الإسلامية في عهد عثمان بن عفان الى الأبواب التالية :

- باب (١) إيرادات الزكاة .
- باب (٢) إيرادات خمس الغنائم .
- باب (٣) إيرادات الجزية .
- باب (٤) إيرادات الخراج .
- باب (٥) إيرادات عشور التجارة .
- باب (٦) إيرادات عارضة من الضوايق وتركات من لا وارث لهم .

ويمكن أن نقسم النفقات العامة للدولة الإسلامية من حيث طبيعتها الى الأبواب التالية :

- باب (١) ويشتمل جميع ما يعطى للعاملين بالدولة الإسلامية كرواتب الخلفاء والولاة والقضاة والجند .
- باب (٢) ويشمل النفقات الجارية خلاف ما سبق في الباب الأول اللازمة لإدارة الدولة والمعاشات التي تعطى للمفقراء والمساكين والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفي سبيل الله والأعطيات التي تتقرر لرجال الإسلام من غير العاملين بالدولة .
- باب (٣) ويشمل ما ينفق على المشروعات العامة التي تقوم بها الدولة لبناء المساجد أو توسعتها وحفر الآبار وغيرها .

وفى ضوء ما سبق نناقش فيما يلي تنفيذ المالية العامة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه عن طريق :

- تصوير وتنفيذ موازنة الزكاة .

- تصوير وتنفيذ موازنة الضوائع باعتبار أن مواردها مخصصة للفقراء فتتشابه مع الزكاة في الانفاق عليهم .

- تصوير وتنفيذ موازنة خمس الغنائم .

- تصوير وتنفيذ موازنة الجزية والحراج وعشور التجارة وهي تقابل الموازنة العامة في النظم المالية الحديثة .

وسيشمل هذا الفصل مناقشة الثلاث موازنات الأولى وذلك على النحو التالي :

تصوير وتنفيذ موازنة الزكاة في عهد عثمان بن عفان

تصور موازنة عامة للزكاة في عهد عثمان بن عفان :
في ضوء ما سبق يمكن تصور موازنة عامة للزكاة في عهد الخليفة
الثالث على النحو التالي :

الموازنة العامة للزكاة في عهد الخليفة عثمان بن عفان عن السنة المالية

المبلغ	الايرادات العامة	المبلغ	النفقات العامة
دينار ...	باب (١) ايرادات الزكاة	دينار ...	باب (١) رواتب العاملين عليها باب (٢) نفقات جارية وتشمل اعانات : الفقراء المساكين المؤلفة قلوبهم في الرقاب الغارمين في سبيل الله ابن السبيل
...	اجمالى	...	اجمالى

ونوضح فيما يلى الأوضاع العامة التى أثارها تنفيذ وتطبيق الزكاة
ايرادا وانفاقا وإدارة فى عهد عثمان بن عفان -

عثمان بن عفان يوضح للناس قواعد زكاتهم :

عن ابراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن السائب ابن يزيد قال
عثمان بن عفان : « هذا شهر زكاتكم فمن كان عليه دين فليؤده حتى
تخرجوا زكاة أموالكم . ومن لم تكن عنده لم تطلب منه » حتى يأتي بها
تطوعا ومن أخذ منه حتى يأتي هذا الشهر من قابل .

قال ابراهيم : « أراه يعنى شهر رمضان » (١) .

وقال أبو عبيد : « وقد جاءنا فى بعض الأثر أن هذا الشهر الذى
أراده عثمان هو المحرم » (٢) . يؤكد عثمان بن عفان رضى الله عنه بهذا
القول المبادئ التالية :

— مبدأ سنوية الزكاة اذ يشترط لأداء الزكاة ما عدا زكاة الزروع
حولان الحول ويظهر ذلك من قول عثمان أن من أخذ منه لا يؤد زكاة عن
أمواله حتى يأتي نفس الشهر فى السنة التالية فلا تتكرر عليه الزكاة فى
عام واحد .

ومبدأ السنوية مبدأ مقرر فى المالية الحديثة بالنسبة للضرائب على
الايادات فهى تؤدى سنويا فى التاريخ الذى يحدده قانون الضريبة .
وغالبا ما تكون السنة الضريبية لهذا النوع من الضرائب مطابقة للسنة
الميلادية .

— اذا أخذنا بقول أبو عبيد أن الشهر الذى قصده عثمان بن عفان
هو شهر المحرم فكانه أراد أن تكون السنة المالية الاسلامية مطابقة للسنة
الهجرية . فعلى المسلمين بعد مرور سنة هجرية كاملة على ما لديهم من
أموال أن يسندوا ما عليها من زكاة فى أول السنة الهجرية التالية وهو
شهر المحرم اذا توفرت شروطها .

— ويدعو عثمان بن عفان رضى الله عنه الناس الى حساب وعاء
الزكاة ، فيطلب منهم أداء ما عليهم من ديون حتى تؤخذ الزكاة على الباقي ،
وهذا يدعو الى مناقشة هل أداء الديون شرط لحصنها من الزكاة ونرى
أنه يكفي أن يكون المزكى مدين بالدين لحصنه من وعاء الزكاة ما دام الدين
حقيقيا لا تتطرق اليه الصورية .

(١) الأموال لأبي عبيد ص ٥٣٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٣٥ .

ويورد أبو عبيد الأقوال التي تؤيد ذلك فيقول :

عن كثير بن هشام عن جعفر بن يرقان عن ميمون ابن مهران قال :

« إذا حلت عليك الزكاة فانظر كل مال لك ثم اطرح منه ما عليك من الدين ثم زك ما بقى » (١) . ولعل عثمان أراد أن يستحث الناس على أداء ما عليهم من ديون وفاء منهم للدائنين وتسهيلا لحساب المال الخاضع للزكاة ، وحتى يقطع بجدية الدين وعدم تطرق الصورية اليه .

— يقول عثمان « ومن لم تكن عنده لم تطلب منه حتى يأتى بها تطوعا » وبذلك يفتح عثمان بن عفان الدعوة الى التطوع ، فقد يرى بعض المسلمين أنه لا يستحق عليهم زكاة ومع ذلك يرون النطوع بأداء صدقات من أموالهم يؤدونها لبيت المال ، فيقبلها منهم ويضمها الى موارد الزكاة وتصرف الدولة منها على نفس مصارف الزكاة ، وهذا يشبه حديثا ما تلجأ اليه بعض الحكومات من دعوة المواطنين الى المساهمة فى بناء مصحة أو معهد أو ملجأ للفقراء والمساكين ، فيبادرون بالتطوع ببعض أموالهم تقربا الى الله وتخفيفا عن فقراء ذوى مسغبة أو مساكين ذوى متربة ، وفى ذلك يقول الله جل وعلا :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » (التوبة / ١٠٣) .
وعن أبى هريرة قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله يقبل الصدقات ولا يقبل منها الا الطيب » ويقبلها بيمينه ثم يريها لصاحبها كما يري أحدكم مهرة أو فصيلة حتى أن اللقمة لتصير ملء أحد » (٢) .

وقد يكون قول عثمان « ومن أخذنا منه لم نأخذ منه حتى يأتينا بها تطوعا » ،

أنه يقصد أن لا يجبى بيت المال صدقة الذهب والفضة الا اذا أتى بها صاحبها لبيت المال وأما الصدقة التي يكره الناس عليها ويجاهدون على منعها فهي صدقة الماشية والحراث والنخل .

وبذلك يكون عثمان قد ترك لأصحاب الأموال أداء الزكاة على ما يعرف بالأموال الباطنة وهى أموال الذهب والفضة والتجارة ولا يقبلها منهم الا اذا أتى بها صاحبها تطوعا .

(١) المرجع السابق ص ٥٣٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٣٧ .

ويقول في ذلك أبو عبيد :

« ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان يبعث مصدقيه الى الماشية فيأخذونها من أربابها بالكره منهم والرضا ، وكذلك كانت الأئمة بعده ، وعلى منع صدقة الماشية قاتلهم أبو بكر ، ولم يأت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحد بعده أنهم استكروها الناس على صدقات الصامت ، الا أن يأتوا بها غير مكرهين وانما هي أماناتهم يؤدونها فعلهم فيها أداء العين والدين لأنها ملك إيمانهم ، وهم مؤتمنون عليها . وأما الماشية فانها حكم يحكم بها عليهم وانما تقع الأحكام فيما بين الناس على الأموال الظاهرة وهي فيما بينهم وبين الله على الظاهرة والباطنة جميعا » (١) .

وفي هذا تختلف الزكاة عن الضرائب الحالية ، فان الدولة تستأدى ضرائبها عن الأموال الظاهرة والباطنة معا اذا كانت من عناصر الوعاء الخاضع للضريبة ولمثل الدولة المختصين باستثناء هذه الضرائب حق الاطلاع على كافة الدفاتر والمستندات والأوراق وغيرها التي تمكنهم من تحديد الوعاء الخاضع للضريبة أو تقديره واستثناء الضرائب المستحقة للدولة .

ولعل من نتائج عدم استكراه الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده المسلمين على صدقات الأموال الباطنة أنها تترك عمليات حصر المسلم لأمواله الباطنة وتحديد ما عليها من زكاة وأداء هذه الزكاة لضمير المسلم ورقابة الله وحده دون بيت المال وممثليه ، فان أداها المسلم أداء سليما في ظل رقابة الله بارادته ودون جبر من بيت المال وممثليه زكت نفسه وثقت سريره وانشرح صدره وطهرت أمواله .

عثمان بن عفان يبدي الرأي في زكاة دين الدائن :

— عن عبد الله بن صالح وابن بكير عن الليث عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد أن عثمان كان يقول :
« ان الصدقة تجب في الدين الذي لو شئت تقاضيته من صاحبه والذي هو مليء تدعه حياء أو مصانعه ففيه الصدقة » (٢) .
— وعن عثمان رضي الله عنه قال :
(زكه — يعني الدين — اذا كان عند الملاء) (٣) .

(١) الأموال لأبي عبيد ، ص ٥٣٧ .

(٢) الأموال لأبي عبيد ، ص ٥٣٧ .

المنتخب من السنة - المجلد السادس - طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

فمن هذين القولين لعثمان بن عفان يبين أن الصدقة واجبة على الدين للدائن على المدين الملى ويستطيع الدائن أن يحصل من المدين على دينه ولكن يستحق أن يذكر المدين به أو أن الدائن يدع دينه للمدين مصانعة له . والمصانعة تعنى سكوت الدائن عن المطالبة بدينه نظير منفعة يحصل عليها من المدين .

وقد تواترت الأحكام على ذلك .

— فعن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهما قالا : (من أسلف مالا فعليه زكاته في كل عام إذا كان في ثقة) (١) .

والمعنى أن من كان له دين عند غيره وكان المدين موثوقا به من جهة الغنى والقدرة على سداد الدين وموثوقا به من جهة دينه وأمانته وأنه يخاف الله تعالى ، فلا يجحد الدين ولا يماطله إذا حل وقت سداده ، فمثل هذا الدين كالمال الذي في يده الشخص وحينئذ يجب عليه أن يزكيه كل عام كما يزكى ماله الذى عنده كل عام (٢) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن زكاة المال الغائب .

فقال : اد عن الغائب من المال كما تؤدي عن الشاهد .

فقال له الرجل : إذا يهلك المال .

فقال : هلاك الدين خير من هلاك الدين .

والمال الغائب هو الذى ليس في قبضة يده صاحبه ولا تحت تصرفه وإنما هو عند المدين له والمال المشاهد هو الذى في قبضة صاحبه وتحت تصرفه .

فابن عباس يرى وجوب زكاة الدين وإن أدى ذلك إلى هلاك الدين بتوالى ما يؤخذ عليه من زكاة . لأن هلاك المال لا يضير صاحبه في الآخرة ولكن ضياع الدين سبب في الخسران والهلاك في الآخرة لأن أداء الزكاة ركن من أركان الإسلام .

— وإذا طبقنا الحكم الذى ورد في هذه الأحاديث على ديون التجارة التى جرى العرف على تقسيمها إلى ديون جيدة وديون مشكوك فيها وديون منعدمة . فإن الديون الجيدة التى للتاجر تجب فيها الزكاة والديون

(٢ ، ١) المرجع السابق ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

المنعقدة لا تجب فيها الزكاة والديون المشكوك فيها وهي التي يحتمل تحصيلها أو عدم تحصيلها لظروف أحاطت بالمدين قد يتحقق معها عدم أداء الدين أو قد تزول هذه الظروف ويتحقق الوفاء بالدين ، ففي قول عثمان لا تجب فيها الزكاة لأن شروط الأداء طبقا لما ورد في حديثه وهو ملاءة المدين غير متوافر في الدائن .

وفى قول ابن عباس تجب فيه الزكاة لأنه لم يشترط ملاءة المدين لأداء الزكاة . على أنه إذا ما زال الشك وتم التيقن من ملاءة المدين أو قويت احتمالات أداء الدين وجبت فيه الزكاة .

اقتراض عثمان بن عفان من مصرف الزكاة لمصرف المصالح العامة :

يذكر التاريخ أن عثمان بن عفان أخذ بصسفة عامة من أموال الصدقة (١) فأنفق منها في الحرب وفي غير الحرب على المرافق العامة .

فواجهه الناس قائلين : ان لأموال الصدقة مصارف معينة بينها الله في قوله :

« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » .

والله قد بين هذه المصارف بهذا القصد الذي نص عليه في أول الآية وبقوله فريضة من الله فلا يجوز للامام أن ينفق من أموال الصدقة الا في المصارف التي بينها الله عز وجل في هذه الآية .

وقد رد عثمان رضى الله عنه بأنه لم يفعل ذلك الا حين رأى في أموال الصدقة سعة وحين رأى حاجة الحرب الى مزيد من الأموال ، فاقترض من أموال الصدقة لينفق على الحرب على أن يرد ذلك اذا اتسع المال لرده ، ومن حق الامام أن يقترض من مصرف لمصرف ، لا يخالف بذلك الدين ولا يغير سنة موروثة ما دام مصمما على أن يرد على أموال الصدقة ما أخذ منها .

ويجيب المعارضون على عثمان بأن ذلك ليس به بأس من ناحية الدين ولكن الخطأ هو أن يأخذ الامام من مصرف لينفق على مصرف آخر ، فان ذلك يدل على شيء من سوء التدبير المالي ، وعلى اسراف في أموال الحرب والمرافق الأخرى بانفاقها في غير احتياط ولا تحفظ .

(١) الفتنة الكبرى ، طه حسين ، ج ١ ص ٧٤ وما بعدها .

يبين من رد الخليفة عثمان رضى الله عنه أنه لم ينقص من أموال الزكاة بصفة نهائية ، وإنما اقترض منها ليردها ثانية .

ونرى أن ذلك من حق الامام لا مطعن عليه في أحكام الدين ولا في القواعد المتفق عليها في المالية العامة ، فأما من ناحية الدين فإن حالة الحرب حالة من حالات القوة القاهرة التي تبيع مرونة في المسائل التشريعية وكذلك في المالية العامة ، فلا يمكن أن تغل يد الخليفة في الاقتراض من مصرف الى مصرف آخر خصوصا في حالة الحرب ، والا أدى قصور التمويل الى قصور معلات الحرب وأدواتها والحق الهزيمة بجند المسلمين .

ومن المبادئ المسلم بها في الاسلام أنه يمكن دفع ضرر كبير بضرر صغير فلأن تضيق مصارف الزكاة بصفة مؤقتة نتيجة ما تم اقتراضه منها وهو ضرر مؤقت ان وجهه ، خير من أن تنتكس الفتوحات الاسلامية ، وتنتكس الدعوة تبعا لذلك ، وهو ضرر بالغ الأثر وهو أكبر من الضرر المؤقت الذى لحق نفرا من المسلمين ان كان هناك ثمة ضرر وإنما المخالفة الدينية في هذه الحالة تقع اذا أخذ الخليفة من أموال الزكاة بصفة نهائية وليس على سبيل القرض ، ومع ذلك تذهب بعض الآراء الى أن أحد مصارف الزكاة وهو مصرف في سبيل الله يعطى للغاى في سبيل الله من أموال الزكاة لأن انقطاعه للجهاد أقعده عن العمل والكسب وليس هذا من باب التشجيع على البطالة فهنا الصنف قد أثر مصلحة الوطن على مصلحة نفسه وترك العمل لشخصه ليعمل في مجال أوسع وهو العمل لاعلاء كلمة الله وخطمة المجتمع الاسلامى كله .

ويرى البعض كذلك أن سبيل الله يشمل الغزو الشرعى وغيره من مصالح الاسلام ويجوز صرف الزكاة في المنافع العامة وما تقتضيه حاجات الأمة (١) .

إذا فمن الناحية الدينية يكون توجيه النقد للخليفة الشيخ على اقتراضه من مصرف الزكاة في غير محله .

ومن ناحية المالية العامة فإنه لدواعى المرونة خصوصا في حالة الحرب يجوز الاقتراض من مصرف لمصرف آخر بشروط أو بغير شروط طبقا للنظام المالى للدولة .

(١) النظم المالية في الاسلام . للأستاذ قطب ابراهيم محمد ، طبعة ثانية ص ١٥٨ .

لي أنه من ناحية أخرى لا ينبغي أن يتسم الاتفاق العام بالاسراف
والا أدى ذلك الى ضياع الأموال العامة في غير منفعة عامة تعود على الشعب،
والاسلام ينهى عن الاسراف عموما فيصف الله جل وعلا عباد الرحمن
بأنهم الذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوما . والله
لا يحب المسرفين وفي ذلك يقول الله جل وعلا « والذين اذا أنفقوا لم
يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوما » (الفرقان / ٦٧) .
ويقول جل وعلا :

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا .
ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا
(الاسراء / ٢٦ و ٢٧) »

ولا يجوز للأمر كذلك ان يعطى الأموال العامة على سبيل الهبة لمن
لا يستحقها الله يعطيها أحيانا على سبيل الهبة ولكن لتحقيق منفعة عامة ،
فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتألف المسلمين ممن لم يرسخ
الايمان في قلوبهم ، أو غير مسلمين كرؤساء القبائل والمشائير لاتقاء
شرهم وليكونوا عوناً للمسلمين والاسلام ، وكانوا يعطون من مصدرين
فاذا كانوا مسلمين يعطون من أموال الزكاة ، واذا كانوا غير مسلمين
يعطون من أبواب المصارف الأخرى كالفى والغنائم .

**عثمان ينفق من الزكاة على الطعام في المسجد في رمضان للمفقر وأبناء
السبيل :**

سن عثمان سنة جديدة ، فكان يضع الطعام في المسجد في رمضان ،
وقال :

« للمتعب الذى يتخلف في المسجد وابن السبيل والمحتارين » (١) .

والخليفة عثمان رضى الله عنه بذلك يكرم المسلمين من بيت المال
وفى ذلك اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم الذى كان أجود الناس
وأجود ما يكون فى رمضان فعن بن عباس رضى الله عنه قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس وأجود ما يكون
فى رمضان حين يلقى جبريل وكان يلقاه جبريل فى كل ليلة من رمضان
فيدارسه القرآن ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يلقاه جبريل
أجود بالخير من الريح المرسلة » .

(١) الطبرى - مرجع سابق - ص ٢٤٦ .

وهذا الاجراء الذى اتبعه عثمان يساعد على الاستجابة لدعوة الرسول أيضا بافطار الصائمين فقله قال صلى الله عليه وسلم :

« من فطر صائما كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شئ » (رواه الترمذى) .

ومن باب أولى ينبغي افطار الصائم اذا كان فقيرا وهو المعتر أو من أبناء السبيل وهو المسافرين المنقطع عن أهله وماله .

كما أن السنة التى استنها عثمان ترغب المسلمين فى الاعتكاف فى المساجد ، ما دام آكلهم معدا ، وفى ذلك تشجيع على احياء سنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فمن ابن عمر رضى الله عنه قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الآواخر من رمضان » (١) .

عثمان بن عفان ينشئ منازل للضيافة بالكوفة من أموال الزكاة :

بلغ عثمان أن أبا سمال الاسدى ومعه نفر من هل الكوفة ينادى مناد لهم اذا قدم المييار (٢) ان من كان من القبائل ليس لقومهم بالكوفة منزل فمزله على أبى سمال فاتخذ عثمان بعض الدور كمنازل للضيافة ينزل بها الغرباء ممن ليس لهم منزل ومن هذه الدور منزل عبد الله بن مسعود فى هذيل . وكان الأضياف ينزلون داره فى هذيل اذا ضاق عليهم ما حول المسجد (٣) .

ويعتبر ما ينفق على الضيافة اتفاق عام من مصرف الزكاة حتى ولو كان الضيف غنيا لأنه يعتبر من أبناء السبيل .

عثمان بن عفان يعطى من بيت المال لكل مملوك بالكوفة :

مما زاد عثمان بن عفان على يده أن رد على كل مملوك بالكوفة من فضول الأموال ثلاثة فى كل شهر يتسعون بها من غير أن ينقص مواليتهم من أرزاقهم (٤) .

ويغلب أن يكون مصدر هذه الأموال التى وزعها عثمان على كل،

(١) وردت الأحاديث المتوفاة عنها فى كتاب رمضان والأعياد - دراسات فى الاسلام - أصدرها المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، ص ١٨ ، ١٩ ، ٢٠٢ ، تأليف فضيلة الشيخ أبو الوفا المرافى ، نقل عن البخارى .

(٢) المييار : وهو جمع مائر وهو جالب الميرة والميرة الطعام .

(٣) تاريخ الطبرى - الجزء الرابع - مرجع سابق ، ص ٢٧٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

مملوك هو أموال الزكاة باعتبار أن لهم فيها نصيبا لأنهم أحد الثمانية مصارف التي حددتها آية الزكاة وهو مصرف « وفي الرقاب » .

صحابي يعيد توزيع ابل الصدقة في عهد عثمان بن عفان

يذكر المؤرخون أن عبد الرحمن بن عوف أعاد توزيع ابل من ابل الصدقة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه . ذلك أن بعض السعاة أقبلوا بأبل الصدقة فوهبها عثمان لبعض أهل الحكم . فلما بلغ ذلك عبد الرحمن دعا بعض أصحاب النبي فاستردوا له هذه الأبل وقسمها في الناس . والخليفة عثمان في داره لم ينكر ذلك الأمر ولم يغيره بل لم يكلم فيه عبد الرحمن ولا أصحابه . فكان الخليفة أخطأ ورد عبد الرحمن بن عوف .

ويذكر بعض المعلقين على ذلك بأن جرأة ابن عوف كانت خطيرة ، لأنه تمرد على أمر الخليفة وكان سكوت عثمان على هذا التمر « سابقة أشد خطرا لأنه اعتراف بالخطأ ونقص من هيبة السلطان (١) » .

وقد يكون للمسألة وجهة نظر أخرى وهي أنه إذا كان الخليفة أخطأ وتبين له صواب هذا الخطأ بما فعله عبد الرحمن بن عوف فلم يعترض فيعتبر ذلك رجوعا للصواب ولا غضاضة في ذلك فالخليفة معرض للخطأ كسائر الناس وابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون .

وقد حدث مثل هذا الخطأ في عهد عمر بن الخطاب حينما نهى على المنبر عن المغالاة في المهور فردته امرأة في آخر المسجد مستشهدة بآية من القرآن الكريم فاعترف بخطئه وأقر بأن المرأة قد أصابت وعمر قد أخطأ .

(١) مع الخلفاء الراشدين ، عبد الخالق أبو ربيعة ، ص ٨ .

تصوير وتنفيذ موازنة الضوائع في عهد عثمان

موازنة الضوائع بطبيعتها موازنة غير أساسية في المالية العامة الإسلامية لأن إيراداتها غير دورية تتوقف على ما يؤول لبيت المال من تركات من لا وارث لهم وأموال الضوائع التي ترد لبيت المال ، ولذلك فلا تتأثر كثيرا باختلاف السياسات المالية ويتفق الانفاق منها مع أحد وجوه انفاق الزكاة وهو الانفاق على الفقراء ، فأموال موازنة الضوائع تصرف لاشباع حاجات الفقراء وعلاج مرضاهم وتعليمهم وغير ذلك من وجوه الخدمات العامة اللازمة لهم علاوة على ما ينالونه من موازنة الزكاة والموازنة العامة اذا لزم الأمر .

وفيما يلي تصوير موازنة الضوائع في عهد الخليفة عثمان بن عفان .

الموازنة العامة للضوائع

في عهد الخليفة عثمان بن عفان عن السنة المالية ٠٠٠٠

المبلغ	الايرادات العامة	المبلغ	النفقات العامة
دينار ٠٠٠	باب (٦) ايرادات الضوائع وتركات من لاوارث لهم	دينار ٠٠٠	باب (٢) نفقات جارية وتشمل اعانات الفقراء
			باب (٣) مشروعات عامة لصالح الفقراء
٠٠٠	اجمالى	٠٠٠	اجمالى

تصوير وتنفيذ موازنة خمس الغنائم في عهد عثمان ع

استمرار الجهاد في عهد عثمان بن عفان :

الجهاد فرض كفاية على المسلمين اذا قام به البعض سقط عن الآخرين وذلك في كل سنة ، فلا يجوز تركه في أى سنة ، والذي يدل على أنه فرض كفاية قوله تعالى :

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما »
(النساء / ٩٥) .

ولو كان الجهاد واجبا وجوبا عينيا لما وعد الله القاعدین بالحسنى كما أنه تواتر في السنة النبوية أنه صلى الله عليه وسلم أرسل قوما دون آخرين ، ولا يقاتل الأعداء حتى يدعوهم الى الاسلام فان امتنعوا فتطلب منهم الجزية فان لم يستجيبوا للاسلام ولم يستجيبوا للجزية قتلوا وقتلوا ، ولا يجوز قتل المرأة والصبي لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قتلها ، كما لا يقتل الأعمى والمعتوه والمجنون والشيخ الفاني والراهب الا أن يكون أحدهم مشتركا في تدبير الحرب فانه يجوز قتله .

ولما كان الجهاد فرض كفاية فقد بدأ في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم واستمر في عهد أبى بكر وعمر وكذلك في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وكانت نتيجة ذلك انتشار الاسلام واتساع رقعة الدول الاسلامية ، وكانت فتوحات عهد عثمان كبيرة حققت غنائم كثيرة آل لبيت المال منها الخمس « كما أنه يؤول الى بيت المال جزية من أثر البقاء على دينه من أهل الكتاب ولم يحارب ، فهناك ارتباط اذا بين بيت المال والفتوحات الاسلامية مما يقتضى ايضاح وجوه هذا الارتباط والتنويه تنويها مركزا عن الفتوحات الاسلامية في عهد عثمان بن عفان .

وعلى ذلك لنناقش فيما يلي :

— ارتباط المالية العامة الاسلامية بالفتوحات الاسلامية في عهد عثمان .

— فتوحات الاسلام في عهد عثمان .

— موازنة خمس الغنائم في عهد عثمان وما أثر بشأن إيراداتها

|

ومصروفاتها من مسائل .

وجوه ارتباط المالية العامة الإسلامية بالفتوحات الإسلامية في عهد عثمان .

تمت في عهد عثمان بن عفان عدة فتوحات ، والفتوحات في النظام المالي الإسلامي تتأثر بالمالية العامة كما تؤثر فيها وذلك على النحو التالي :

— تمول المالية العامة فتوحات الاسلام ، وكانت أيام الرسول صلى الله عليه وسلم تعتمد اعتمادا أساسيا على تطوع المسلمين بالمال والنفوس ، لكن بمرور الوقت وبعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية ونمو الإيرادات العامة ساهم بيت المال في تمويل هذه الفتوحات سواء بما كان يدفعه للجنود من مرتبات أو لشراء الأسلحة والعتاد بجانب التطوع بالأموال والأنفس .

— اذا تحقق النصر فرضت الجزية على من لم يسلم من أهل الكتاب والخراج على الأرض التي أخذت عنوة ، واذا أسلم أهل البلاد سددوا الزكاة اذا بلغت أموالهم نصابا وتوفرت شروطها باعتبارها من أركان الاسلام ولا يكمل اسلام المسلم الا بأدائها . وهذه كلها تساهم في زيادة الإيرادات العامة للدولة الإسلامية .

— أحل الله للمسلمين غنائم الحرب ويوزع أربعة أخماسها بين الفاتحين والخمس الباقي يؤول لبيت مال المسلمين .

— اذا عقد الصلح يشترط دائما في شروط الصلح أداء الجزية وهي مورد مالي باعتبارها واجبة الأداء على أهل الكتاب .

فتوحات الاسلام في عهد عثمان بن عفان :

نورد فيما يلي وصفا مركزا للفتوحات التي تمت في عهد عثمان بن عفان (١) .

— واذربيجان الى طاعة الدولة الإسلامية وأدائها الجزية وفتح أرمينية :

كانت ولاية أذربيجان وما والاها من ناحية الغرب آخر ما أخضعه المسلمون من ولايات فارس في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد أخضعها عتبة بن فرقد وصالح أهلها باذن حذيفة بن اليمان وأعطاهم كتابا بالأمان على سهلهم وجبلهم وشعائهم وأهل ملتهم وعلى أنفسهم وأموالهم وعقائدهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية ، وامتد الفتح بعد ذلك

(١) التنويه عن الفتوحات مقتبسة من كتاب عثمان بن عفان - محمد حسين ميكل ، طبعة رابعة ص ٥٧ وما بعدها .

من أذربيجان الى الباب والى موقات غير أنه فى عهد عثمان منعت أذربيجان ما كانت صالحت عليه حذيفة من جزية قدرها ثمانمائة ألف درهم فصار اليها الوليد بن عقبة فردها الى الطاعة وفرض عليها جزية حذيفة .

وكان أهل أذربيجان أقرب أهل فارس عهدا بغزو المسلمين ولم يكونوا تعودوا من أداء الجزية ما تعودوا الذين أدوها سنوات عدة فى عهد عمر فظنوا أن سياسة الحليفة الجديدة تخالف سياسة سلفه . ولكن عثمان لم يتردد حين عرف أمرهم أن بعث الوليد بن عقبة لغزوهم فغزاهم وردهم الى الطاعة والى أداء الجزية .

ثم أن الوليد بعث عبد الله بن شبل بن عوف الأحمس الى موقان والبير والطيلسان وكلها تجاور أذربيجان فغزاهما وسبى وغنم من أهلها ورد الى قلوبهم الايمان ببأس المسلمين وعظيم سلطانهم .

أرادت أرمينية وكانت ممتدة فى أرض فارس وفى أرض الروم معاضدة أذربيجان فى ثورتها فبعد أن أخضع المسلمون أذربيجان وما ولاها ، ساروا فى أرمينية من جانب فارس ومن جانب الروم فاستولوا عليها .

وقد خيل للروم حين جاءتهم الأنباء بثورة أذربيجان وقيام أهل أرمينية أنهم قادرون على استرداد ما ضاع من هيبتهم ومن سلطانهم فدحروهم المسلمون وردوهم على أعقابهم وفتحوا من بلادهم ما لم يكونوا فتحوا من قبل . وقد حدث هذا كله فى أول خلافة عثمان فكان بالغ الأثر فى رد السكينة الى ربوع الشام وأقاليم فارس فى إعادة اليقين الى أهل الأقاليم المفتوحة بأن مقتل عمر واستخلاف عثمان لم يوهن من بأس المسلمين ولم يضعف من شوكتهم .

ارتداد الاسكندرية لعدم منحها مزايا مالية وإرجاعها لدولة الاسلام

فى عهد عمر بن الخطاب فتح عمرو بن العاص مصر وأجل الروم عنها واستقرت له ولايتها وكانت سياسته فيها أن يتألف أهلها بتخفيف الضرائب ويتركهم أحراراً فى عقيدتهم وترك المناصب الادارية لأبناء للبلاد والروم الذين آثروا البقاء فيها على الهجرة الى وطنهم الأول . على أن هذه السياسة التى أرضت المصريين فى مجموعهم أغضبت أهل الاسكندرية ، فقد كان لهؤلاء قبل الفتح العربى ما أعفاهم من كثير من الضرائب ، فلما سوى القائد العربى بينهم وبين غيرهم وفرض عليهم ما فرضه على غيرهم احفظ قلوبهم وهياً للروم الذين لم يغادروا الاسكندرية فرصة ، التآليب على المسلمين ، وأرسلوا الى الامبراطور فنسطنطين الثانى يسأله أن

يخلصهم من حكم المسلمين ويهونون عليه الأمر بضعف مسلحة العرب في الاسكندرية وكان لها حامية لا تزيد على الألف تحفظ النظام وتفرض سلطان المسلمين وأغروه بأنه صاحب البحر دون المسلمين فاستجاب قنسطانز وجهاز أسطولا من ثلاثمائة سفينة أوقرها بالرجال وجعل على قيادتها مانويل الحصى وأخفى على الناس مقصدها .

وبلغ الاسطول الاسكندرية ونزل جنوده بها واضم اليهم الروم المقيمون بها وساروا معهم الى مسلحة العرب ، فقتلوا رجالها الا نفر لاذوا بالفرار وكان نزولهم بعد عام وشهر من بيعة عثمان . عهد عثمان الى عمرو بن العاص أن يتولى اجلاء الروم عن مصر كما أجلاهم أول مرة ففد سار الروم في بلاد مصر السفلى يغنمون وينهبون ويتوفرون على المملكات ينهبونها انتهابا ووقف المصريون من هؤلاء القساة موقف الحوف والفرع . وقلة رأى عمرو أن لا تسرع قواته اليهم حتى يزداد المصريون لهم بغضا . فلما اقترب الروم من نقيوس خرج على رأس خمسة عشر ألف والتقى الجيشان تحت أسوار حصينة نقيوس على شاطئ النهر واشتد القتال وحمل وطيسه واستمات الفريقان فيه فترجع النصر ورأى عمرو شدة القتال فاندفع بين الصفوف يحارب واشتدت حملات المسلمين ولم يصبر الروم لحملاتهم فانهزموا مولين الأدبار يريدون الاسكندرية فتعقبهم عمرو وبلغ أسوار الاسكندرية فآلى الروم تحصنوا بها وأخذ العرب المدينة عنوة وفرت جنده الروم منهم بالمدينة فلاذت بالبحر وقتل أكثرهم وكان القائد مانويل الحصى في القتلى وعادت الى الاسكندرية السكينة وتم بذلك جلاء الروم عن مصر للمرة الثانية .

فتح افريقية وكثرة الغنائم :

لما فتحت مصر للمرة الثانية أمر عثمان عبد الله بن سعد أن يسير الى افريقية وأمدّه بالرجال وتخطى عبد الله برقة وطرابلس حيث كان السلطان مطمئنا للمسلمين وبلغوا افريقية يريدون غزوها وكانت افريقية في تسمية العرب هي شمال القارة الافريقية الممتد من تونس الى طنجة في مراكش ، وكانت هذه الاصقاع خاضعة لنفوذ الروم متممة بحظ من الحكم الذاتي بأمره أمير من الروم يدفع جزية عظيمة كل عام الى بلاط بيزنطة فلما تخطى عبد الله بن سعد حدود طرابلس الى تونس لقيته قوات جريجورى بظاهر المدينة ومنعته من التقدم ، ولما أبطأ النصر أمر عثمان عبد الله بن الزبير على جماعة من كبار المجاهدين بينهم طائفة من الصحابة والتابعين وسيرهم مددا لعبد الله بن سعد يعينونه على النصر فتبين أن المسلمين يقاثلون عدوهم من بكرة كل يوم الى الظهر فإذا كان الظهر عاد كل فريق الى خيامه ليستأنف القتال ، ولكن عبد الله بن الزبير فأجا

الروم بتغيير الحطة فترك شجعان المسلمين في خيامهم وعندهم خيولهم وهم على أهبة القتال وسار مع بقية الجيش فقاتلوا الروم الظهر قتالا شديدا وتركوهم ساعة الظهر ، وعاد ابن الزبير وقد أيقن الروم أن القتال لن يستأنف الى بكرة الغد ولذا ألقوا سلاحهم واستراحوا في خيامهم ، ولكن ابن الزبير عاد عليهم ومعه شجعان المسلمين الذين لم يقاتلوا في الصباح فقتلوا منهم مقتله عظيمة وقتلوا أميرهم جريجورى وأخذوا ابنته سبية فكانت من نصيب رجل من الأنصار .

سار عبد الله بن سعد بعد ذلك الى سبيطة وكانت دار الملك فحاصرها وفتحها وغنم المسلمون منها أموالا عظيمة وبلغ سهم الفارس منها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار .

ومن سبيطة بعث ابن سعد جيوشه في البلاد فبلغت قصبة وصالح عبد الله ابن سعد أهلها على مليونين وخمسمائة ألف دينار وفي رواية أنه صالحهم على ثلثمائة قنطار ذهباً .

وبذلك فتح المسلمون افريقية سهلها وجبلها ومهدوا لانتشار دين الله فيها .

انشاء أسطول بحرى ومعركة ذات الصواري :

كان معاوية قد كنب الى عمر يستأذنه في بناء أسطول لغزو قبرص فلم يأذن له عمر ، فأعاد ذلك على عثمان فأجابه الى ما طلب بشرط أن يكون ركوب البحر والغزو فيه تطوعا لمن يشاء ، ولم يلبث معاوية أن جهز السفن للقتال وعرف عبد الله بن سعد أمر عثمان لمعاوية فجهز أيضا السفن في مرفأ الاسكندرية وحمل عليها من تطوع للقتال على متن الماء . واتجه الاسطول الى قبرص فلما بلغوها وارتقوا الى ساحلها لم يرد حاكمها ولا رأى أهلها قتالهم ، وتفاوض الفريقان في الصلح فصالحوا المسلمين على أداء الجزية كل عام على شريطة أن يؤدوا للروم منها . وفي مقابل هذا الصلح المزدوج لا يمنهم المسلمون ولا يقاتلون عنهم ويكون أهل قبرص عيوناً للمسلمين يؤذنونهم يسير عدوهم من الروم ولكن أهل قبرص بعد مرور عدة سنوات أمانوا الروم على الغزاة في البحر بمراكب أعطوهم اياها فسار أسطول الشام وأسطول مصر الى الجزيرة ففتحها عنوة وقتلوا وسبوا من أهلها وتحول المسلمون بعد ذلك الى جزيرة رودس التي سقطت في يد المسلمين كذلك .

كانت حرب البحار هي الأمل الباقي لدى الروم في مجابهة الغزو العربى ، لذلك أعاد الروم اسطولا مكونا من ٥٠٠ سفينة بقيادة الامبراطور

الجديده قسطنطين بن هرقل ، لم ينتظر كل من معاوية أمير الشام وعبد الله بن سعد أمير مصر طويلا حتى أعدا للأمر عدته وكانت سفنهم مائتين وتقدمت سفن عبد الله بن سعد ونشب قتال عنيف غاية العنف وأصاب قسطنطين جراحات أوهنت قوته وضعفت عزمه فلما بلغ منه ومن رجاله ورأى المسلمين لا يهن لهم عزم أيقن أن العاترة لهم عليه فولى مدبرا بما بقي من أسطوله ورجاله وقد آمن بأن بأس المسلمين في البحر لا يقل عن بأسهم في البر وأنهم لا غالب لهم ولم يتعقبه عبد الله بن سعد ويطلق المؤرخون على هذه الغزوة غزوة ذات الصواري لكثرة السفن التي اشترك فيها الطرفان ولم تقم للروم بعد هذه الغزوة في البحر قائمة فلم يفكر الروم من بعد في العودة الى افريقية أو الى مصر أو الشام .

وبهذه الفتوحات الواسعة التي تمت في عهد عثمان يكون قد خمدت ثورات الفرس والروم وغيرها التي تقدمت عهده وامتدت الدولة الاسلامية ودعوة الاسلام الى بلاد جديدة ومسلمين جدد .

— ويعلق أحد الكتاب على نتائج هذه الفتوحات فيقول :

ان علاج عثمان لمشكلات الدولة « الخارجية » التي فاجأته بعد ولايته كان كاحسن علاج يتولاه خليفة في تلك الأونة : عزم وسداد . وسرعة ، مع الحيلة والاناة والرفق في سياسة الاولياء والخصوم ولا شك أن الخليفة كان معانا على عمله ، ولم يكن منفردا بعيشه في تلك المحنة الجائحة : كان معانا عليه بحمية الجند وكفاية القادة ، وكانت حمية الدين التي حفزت دعاة الاسلام من نصر الى نصر ، ومن عزيمة الى عزيمة . وصحبته من يدر الى القادسية وتبوك وبابليون صاعدة على سميتها كأقوى وأقوم ما كانت في يوم من أيامها . بل لعلها في حروب الفرس والروم كانت أقوى وأقوم من حروبها في الجزيرة العربية ، اذ كانت أنفة العربي أن يهزم أمام المتعجرفين عليه من الأعاجم كقيلة أن تنفت في قلبه الغضبة القوية التي ألتى « ثيرها حرب العربي للعربي والشبيبه بالشبيبه (١) » .

(١) عثمان بن عفان ، ذو النورين ، عباس المعاد ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

الموازنة خمس الغنائم في عهد عثمان وما أثر بشأن إيراداتها ومصروفاتها من مسائل :

حققت الفتوحات السابقة غنائم آل لبيت المال خمسها ، واذا أردنا أن نطبق الاتجاهات الحديثة في تنظيم المالية العامة بأعداد موازنة عامة سنوية فإنه يمكن تصوير الموازنة العامة للخمس في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه على النحو التالي :

الموازنة العامة لخمس الغنائم في عهد الخليفة عثمان بن عفان عن السنة المالية

المبلغ دينار	الإيرادات العامة	المبلغ دينار	النفقات العامة
	باب ٢ إيرادات خمس الغنائم		٠٠٠٠ باب ٢ نفقات جارية
	٠٠٠٠ — غنائم موقعة		٠٠٠٠ إعانات لليتامي
	٠٠٠٠ — غنائم موقعة		٠٠٠٠ إعانات للمساكين
	٠٠٠٠ — غنائم موقعة		٠٠٠٠ إعانات لأبناء السبيل
	٠٠٠٠ — غنائم موقعة		٠٠٠٠ شراء كراع وسلاح (١)
٠٠٠	اجمالي	٠٠٠	اجمالي

وفيما يلي بعض المسائل التي أسفر عنها تطبيق سياسة المالية العامة في عهد عثمان بن عفان بشأن خمس غنائم الفتوحات :

لم يسهم للصبي من الغنائم في عهد عثمان بن عفان :

حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ حدثنا حرملة بن عمر أن عن تميم بن المهري قال :

« شهدت فتح الاسكندرية في المرة الثانية ، فلم يسهم لي حتى كاد أن يقع بين قومي وبين قریش منازعة » فقال بعض القوم : أرسلوا إلى بصرة الغفاري وعقبة بن عامر الجهني ، فانهما من أصحاب رسول الله صلى

(١) بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم استخدم سهم الرسول وذو القرمي في شراء الكراع (الخيل) والسلاح .

الله عليه وسلم فسألوهما عن هذا ، فأرسلوا اليهما فسألوهما ، فقالا :
انظروا فان كان أنبت (١) فأسهموا له .

فنظر الى بعض القوم فوجدوني قد أنبت فأسهموا لي (٢)

ومعنى ذلك أنه لا يسهم للصبي ولا للمرأة انما يرضخ لهم أى يعطون شيئا قليلا شأنهم شأن الأدلاء والرعاة الذين يساعدون فى غزوات المسلمين بمعاونتهم فى السقاية وفى الارشاد عن الطرق ، وغيرها من الخدمات التى لا تصل الى الاشتراك الكامل فى الفتوح وهذا ما كان يطبق فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

السلب للقاتل فى عهد عثمان بن عفان كما كان فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم :

السلب هو ما كان على القاتل فى الحرب وما كان من سلاح وما كان تحتة من فرس وقد قضى الرسول صلى الله عليه وسلم بالسلب للقاتل .
فمن أبى قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم حنين :
« من قتل قتيلًا له بينه فله سلبه » .

ومفاد هذا الحديث أنه لا يستحق للقاتل فى السلب الا بعد أن يقيم البينة على أنه هو الذى قتله حتى اذا تنازع اثنان كل منهما يدعى أنه قتله فالسلب لمن يقيم البينة منهما (٣) .

وقد حدث بعد انتفاض الاسكندرية وجاءت الروم وعليهم منوئل الحصى وأرسوا بالاسكندرية وتركهم عمرو حتى يسبروا اليه فيصبيون من مروابه فى البلاد فيخزى الله بعضهم ببعض ، فخرجوا من الاسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى ، فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورهم ، ويأكلون أطعمتها وينتهبون ما مروا به فلم يعرض لهم عمرو حتى بلخوا نفيس فلقوهم فى البر والبحر ، فحاربوا بالنشاب ثم خرجوا من البحر فاجتمعوا هم والذين فى البر واستمروا فى حرب النشاب ، وبرز بطريق ممن جاء من أرض الروم على فرس له عليه سلاح مذهب فدعا الى البراز فبرز له رجل من زييد يقال له « حومل » يكنى أبا مذجج - فاقتتلا طويلا برمحين يتطاردان ثم ألقى البطريق الرمح وأخذ السيف وألقى حومل رمحه وأخذ سيفه .

(١) أنبت أى ظهر شعر فى وجهه .

(٢) فتوح مصر وأخبارها لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، تقديم

محمد صبيح ص ١٢١ .

(٣) الاموال ، لأبى عبيد ، ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

وجعل عمرو يصيح : أبا مذحج .

فيجيبه : لبيك .

والناس على شاطئ النيل في البر على تعبثهم وصفوفهم ، فتجاولا ساعة بالسيفين ثم حمل عليه البطريق فاحتمله ثم أخذ حومل خنجرا كان في منطقته أو في ذراعه فضرب به نحر عدوه فأوتر قوته فأثبته ووقع عليه فأخذ سلبه ، ثم مات حومل بعد ذلك بأيام رحمة الله عليه ثم شد المسلمون على الروم فكانت هزيمتهم فطلبهم المسلمون حتى الحقوهم بالاسكندرية ففتح الله عليهم وقتل منويل الحصى ، (١) .

حساب قيمة الغنائم ونصيب بيت المال في أحد فتوحات الاسلام في عهد عثمان بن عفان :

من حديث لعبد الملك بن مسleme عن غيره قال (٢) :

« غزونا مع عبد الله بن سعد افریقیة فقسم بيننا الغنائم بعد اخراج الخمس ، فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار للفرس ألفا دينار ولفارسه ألف دينار وللراجل ألف دينار فقسم لرجل من الجيش توفي بذات الحمام فدفع لأهله بعد موته ألف دينار » .

ومن حديث لعثمان بن صالح وغيره قال (٣) :

« فكان جيش عبد الله بن سعد ذلك عشرين ألفا » .

ومن المعروف أن يؤول الخمس لبيت المال استنادا الى قول الله تعالى في آية الخمس السابق الاشارة اليها (٤) .

وقد رفع نصيب الرسول صلى الله عليه وسلم وذى القربى في عهد أبى بكر رضى الله عنه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ووجه إلى السلاح والكرام. وسأيره عمر بن الخطاب رضى الله عنه من بعده في التطبيق وكنا عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(١) فتوح مصر وأخبارها ، لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، تقديم وتحقيق محمد صبيح ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٢) ، (٣) للرجع السابق ص ١٢٥ .

(٤) انظر الفصل الأول من الباب الثانى - الأساس السادس .

والأربعة أخماس الباقية من الغنائم توزع على الفاتحين بنسبة ٣
للفارس وقرسه ، ١ للراجل .

فمن الحديثين السابقين يمكن حساب قيمة الخمس الذي آل لبيت
المال وكذلك قيمة الغنائم كلها ، فبافتراض أن الفوارس عشر الجيش الذي
بلغ عشرين ألفا وأن الباقين من الراجلين يكون الحساب كالاتي :

$$٢٠٠٠ \text{ فارس} \times ٣٠٠٠ \text{ دينار} = ٦٠٠٠.٠٠٠ \text{ دينار}$$

$$١٨٠٠٠ \text{ راجل} \times ١٠٠٠ \text{ دينار} = ١٨٠٠٠.٠٠٠ \text{ دينار}$$

مجموع ما خص المحاربين = ٢٤ مليون دينار وهو ما يمثل أربعة
أخماس قيمة الغنائم .

ويكون نصيب بيت المال خمس الغنائم أي = ٦ مليون دينار .

ويكون مجموع ما غنمه المسلمون = ٣٠ مليون دينار .

ويلاحظ أنه في هذه الغزوة تم تقسيم نصيب الفاتحين على أساس
ثلاثة أسهم للفارس وللراجل سهم واحد وكان الرسول صلى الله عليه
وسلم قد جعل في غزوة بدر للفارس سهمين وللراجل سهما ، وفي
غزوة حنين جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم للفارس ثلاثة أسهم
وللراجل سهما واحدا .

ولما كان الرأي في هذا وذاك يرجع لتقدير الامام وما يراه مناسبا
لكل حال ، فان معنى ذلك أن الخليفة عثمان أقر الأساس الثاني ولعل
السبب في ذلك ترغيب الناس في ارتباط الخيل في سبيل الله .

وفي هذا الصدد يرى الامام أبو حنيفة رضي الله عنه أن يكون للرجل
سهم وللفرس سهم أي سهمان للفارس وسهم للراجل ، ويقول لا أفضل
بهيمة على رجل ، غير أن أبا يوسف يفضل الرأي الثاني أي للفرس سهمان
وللرجل سهم ويناقش رأي أبو حنيفة فيقول بأنه ان كانت لا تفضل
بهيمة رجل ، فلا يجوز أن تتساوى بهيمة مع رجل ويستبعد أساس
المقارنة ويرى أن التميز في العطاء أساسه الترغيب في التطوع بالخيـل
في سبيل الله .

هذا ويبين كذلك من الحديثين السابقين أنه اذا مات المحارب قبل
توزيع الغنائم آل نصيبه من الغنائم الى أهله .

نموذج آخر على غنائم أفريقية في عهد عثمان بن عفان :

كان يوضح بين يدي عبد الله بن سعد عند فتحه لأفريقية الكوم
من الورق (١) .

(١) الورق : الفضة مضروبة كانت أم غير مضروبة جمعها أوراق ووراق .

فيقال للأفارقة : من أين لكم هذا ؟

فيقوم انسان منهم يدور كالذى يلتمس الشيء حتى وجد زيتونه .
فجاء بها الى عبد الله بن سعلد .

فقال : من هذا نصيب الورق .

قال : وكيف ؟

قال : ان الروم ليس عندهم زيتون ، فكانوا يأتونا فيشترون منا
الزيت فنأخذ هذا الورق منهم (١) .

القائد المسلم يرفض هدايا من ذهب وفضة :

أهدى أهل بلخ أسيد بن المتشمس وهو بن عم الأحنف بن قيس
قائد الجند وكان قد تركه عليها يجمع الحراج - هدايا من أئنة الذهب
والفضة ودنانير ودراهم ومتاع وثياب .

فقال ابن عم الأحنف : هذا ما صالحناكم عليه ؟

قالوا : لا ولكن هذا شيء تصنعه في هذا اليوم بمن ولينا نستعطفه به

قال : وما هذا اليوم ؟

قالوا : المهرجان .

قال : ما أدري ما هذا واني لاكره أن أرتد ولعل من حقي ولكن

أقبضه وأعزله حتى أنظر فيه .

فقبضه وقدم الأحنف فأخبره .

فسألهم عنه فقالوا له مثل ما قالوا لابن عمه .

فقال : آتني به الأمير .

فحمله الى عبد الله بن عامر فأخبره عنه .

فقال : أقبضه يا أبا بحر فهو لك .

قال : لا حاجة لي فيه .

فقال ابن عامر : ضمه اليك يا مسمار .

فضمه القرشي وكان مضما (٢) .

فأنظر كيف كان المسلمون الأوائل يرفضون أن يأخذوا ما يقدمه

(١) فتح مصر، وأخبارها - مرجع سابق - ص ٢٦ .

(٢) الطبرى - جزء ٤ - مرجع سابق ، ص ٣١٤ .

الشعب من هدايا ، ولو كان ذلك عادة اعتادها ، ولو كانت الهدايا آية من ذهب وفضة وغيرها من أنواع الأموال السميكة .

وأنظر الى مدى شيوخ صفة الأمانة بين قيادة الجيش ، وكبار العاملين بالدولة فابن عم الأحنف عزل الهدايا عن أموال الخراج وأبلغ الأحنف عنها وهذا بدوره أبلغها للوالي وهو عبد الله بن عامر فلما عرض عليه أن يأخذها أبي ، ولعله في رفضه هذا كان متذكرا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أحد رجال الازد وكان صلى الله عليه وسلم قد استعمله على الصدقة فلما قدم لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« هذا لكم وهذا أهدي لى » .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم .

« ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول هذا لكم وهذا أهدي لى ، فهلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أبهى اليه أم لا » (١) .

الانفاق العام من خمس الغنائم :

أوضحنا أن خمس الغنائم ينفق منها طبقا لنص الآية للرسول صلى الله عليه وسلم ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل بحق الخمس لكل منهم وأنه بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم آل نصيبه ونصيبه . ذى القربى الى بيت المال لينفق منها على الكراع والسلاح .

ولا شك أن الخليفة عثمان رضى الله عنه قد استنفذ نصيب الرسول وذى القربى والذى آل بعد وفاته صلى الله عليه وسلم الى بيت المال فى الاتفاق على الكراع والسلاح لكثرة الفتوحات التى تمت فى عهده وما استلزمته من أسلحة وخيول خصوصا وأن ثمن الفرس اللازم المفتوح ارتفع ارتفاعا كبيرا فى زمن عثمان ، فقد كثر المال فى زمن عثمان فبيعت جارية بوزنها وفرس بمائة ألف درهم ونخلة بألف درهم (٢) .

خمس الغنائم لعبد الله بن سعد وما أثر بشانه :

أثيرت قضية هامة فى عهد عثمان ، فتقول بعض الروايات أن عثمان بن عفان جعل لعبد الله بن سعد حين ولاء فتح أفريقية خمس ما يسنحه

(١) روى فى الصحيحين عن أبى سعيد الساعدى .

(٢) عثمان بن عفان - ذو النورين - ص ١٠٠ .

بيت المال من الفء وبيت المال يستحق الخمس من مجموع ما غنم المسلمون . فلما تم الفتح قسم ابن سعد أربعة أخماس الغنائم على المحاربين وأخذ من الخمس الباقي خمسة وأرسل أربعة أخماسه الى بيت مال المسلمين بالمدينة . وفى ذلك مخالفة لنص فى القرآن (١) ، فسار وفد من الجند الذين فتحوا أفريقية الى عثمان وشكوا ما احتجزه عبد الله لنفسه .

فقال لهم : أنا نفلته وأمرت له به وذلك اليكم الآن فان رضيتم فقد جاز وان سخطتم فهو رد .

قالوا : فانا نسخطه .

قال عثمان : فهو رد .

قالوا : وأعزله عنا فانا لا نريد أن يتأمر علينا وقد وقع ما وقع . فكتب اليه عثمان أن استخلف على أفريقية رجلا ممن ترضون وأقسم الخمس الذى كنت نفلتك فى سبيل الله فانهم قد سخطوا النفل (٢) .

تعليق عثمان بن عفان على ما أثير بشأن منحه الخمس لعبد الله بن سعد فى مجمع من الصحابة :

قال عفان فى مجمع من الصحابة كان يناقش معهم المسائل العامة التى أثرت هذه :

وقالوا : انى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه ، وانى انما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس . فكان مائة ألف ، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم (٣) .

دفاع أحد الكتاب عن عثمان فيما يتعلق بالخمس (٤) :

يدافع أحد الكتاب عن واقعة منح الخمس لعبد الله بن سعد فيقول :

« وأما طعنهم على عثمان أنه وهب خمس أفريقية لمروان بن الحكم فهو غلط منهم وانما المشهور فى القضية أن عثمان كان جهز ابن أبى

(١) سبق ذكر آية الخمس فى الصلحات السابقة .

(٢) الطبرى - جزء ٤ - مرجع سابق ، ص ٢٥٤ .

(٣) الطبرى - جزء ٤ - مرجع سابق ، ص ٣٤٧ .

(٤) الكاتب هو أبو جعفر الشهير بالمحب الطبرى صاحب كتاب الرياض النضرة فى مناقب العشرة ورد دفاعه فى كتاب عثمان بن عفان ذو النورين ، تأليف محمد رضا ، طبعة ثانية ، ص ٣٢٣ وما بعدها .

سرح أميراً على آلاف من الجند وحضر القتال بأفريقية . فلما غنم المسلمون أخرج ابن أبي سرح الخمس من الذهب وهو خمسمائة ألف دينار فأنفذها إلى عثمان ، وبقي من الخمس أصناف من الأنات والمواشي مما يشق حمله إلى المدينة ، فاستتراها مروان منه بمائة ألف درهم نفذ أكثرها وبقيت منها بقية ووصل عثمان مبشراً بفتح أفريقية ، وكانت قلوب المسلمين مشغولة خائفة أن يصيب المسلمين من أمر أفريقية نكبة فوهب له عثمان ما بقي جزءاً بشارته ، وللامام أن يصل المبشرين من بيت المال بما رأى على قدر مراتب البشارة .

نجاح السياسة المالية في تمويل فتوحات الاسلام ورد البلاد المنتكسة في عهد عثمان :

ذكرنا أنه من ضمن التحديات التي سبقت عهد عثمان بن عفان انتكاس بعض البلاد المفتوحة في عهد عمر وذكرنا أنه من واجب المالية العامة أن تساهم في رد هذه الانتكاسات وتمويل فتوحات جديدة لشر الدعوة الإسلامية . وفي ضوء ما تم في عهد عثمان بن عفان من اجبار البلاد التي نقضت العهد على الالتزام بعهودهم مع الدولة الإسلامية والانصياع لحكمها وفي ضوء ما تم من فتوحات جديدة فإنه يمكن القول أن تنفيذ السياسة المالية فيما يتعلق بهذه الفتوح قد أسفر عن قيام المالية العامة في عهد عثمان بن عفان بالملوب منها سواء من ناحية تمويلها لهذه الفتوح أو بما حققته الانتصارات من غنائم كثيرة حصل بيت المال على نصيبه منها أو من موارد أخرى وهي زكاة من أسلم من أهل الأمصار وجزية من أبي الاسلام من أهل الكتاب وخراج أراضيهم .

الباب الثالث

**تصوير وتنفيذ الموازنة العامة
للجزية والغراج وعشور التجارة
في عهد عثمان بن عفان
ومناقشة مسائلها**

الفصل الأول

ايرادات الجزية والخراج وعشور التجارة فى عهد عثمان بن عفان

تصوير موازنة الجزية والخراج وعشور التجارة فى عهد عثمان :

الموازنة التالية هى موازنه الجزية والخراج وعشور التجارة ، وتتكون ايراداتها من الجزية والخراج وعشور التجارة وينفق منها على النفقات العامة التى تحقق المصلحة العامة للدولة كرواتب العاملين فى الدولة وسائر نفقات ادارة أجهزتها ، وما تدفعه الدولة الاسلامية من عطاء على هيئة معونات أو معاشات للمسلمين وكذا نفقات المشروعات العامة التى تقوم بها الدولة وهى كما قلنا تقابل الموازنة العامة للدولة فى النظم المالية الحديثة .

وفى ظل التبويب السابق ايضا يمكن تصوير موازنة الجزية والخراج وعشور التجارة على النحو التالى :

الموازنة العامة للجزية والخراج وعشور التجارة

فى عهد الخليفة عثمان بن عفان

عن السنة المالية ٠٠٠٠

أو (الموازنة العامة)

المبلغ	الايرادات العامة	المبلغ	النفقات العامة
دينار		دينار	
٠٠٠	باب ٣ ايرادات الجزية	٠٠٠	باب ١ رواتب العاملين بالدولة
٠٠٠	باب ٤ ايرادات الخراج	٠٠٠	باب ٢ نفقات جارية مصاريف ادارة الدولة
٠٠٠	باب ٥ ايرادات عشور التجارة	٠٠٠	باب ٣ مشروعات عامة :
			- توسعة المسجد الحرام
			- توسعة مسجد الرسول
			- حفر الآبار
			- الخ الخ .
٠٠٠	اجمالى	٠٠٠	اجمالى

الخصائص العامة لموازنة الجزية والخراج وعشور التجارة في عهد عثمان :

موازنة الجزية والخراج وعشور التجارة ، أهم الموازنات في المالية العامة الإسلامية لأنها تحوى جزءا هاما من إيرادات بيت المال ولأنها ينفق منها على المصالح العامة للرعية . وهى موازنة غير مخصصة مواردها لانفاق عام محدد بالذات كموازنات الزكاة وخمس الغنائم والضوائع فيحق لولى الأمر أن ينفق منها على أى وجه من الوجوه يحقق المنفعة العامة للرعية ، هذا ويجوز الانفاق من هذه الموازنة على وجوه الانفاق المحددة للزكاة أو خمس الغنائم ، فاذا كانت حصيلة الزكاة لا تكفى لتغطية حاجة الفقراء ، والمساكين واذا كانت الموارد من خمس الغنائم لا تكفى لاشباع ضرورات الينامى والمساكين جاز لولى الأمر أن ينفق عليهم من إيرادات الجزية والخراج وعشورة التجارة . وبالعكس لا يجوز النقل بهائيا من إيرادات الزكاة وخمس الغنائم للانفاق منها على المصالح العامة لأن فى ذلك انتقاص لحقوق الفقراء والمساكين ، الا اذا أخذنا بالرأى الذى يرى أن الانفاق على المصالح العامة يعتبر اتفاقا فى سبيل الله وهو أحد وجوه اتفاق الزكاة .

سـ وناقش فيما يلى الإيرادات العامة لهذه الموازنة ونفقاتها العامة بادئين بالإيرادات العامة وهى الجزية والخراج وعشور التجارة فى هذا الفصل ثم تتبعها بالنفقات العامة فى الفصل الثانى .

الإيرادات العامة من الجزية في عهد عثمان بن عفان

استقرار المسائل الفنية للجزية حينما آلت الخلافة لعثمان بن عفان :

استقرت أحكام الجزية وقواعدها ونظام تطبيقها وتحصيلها في عهد عمر بن الخطاب . ولذلك كان دور بيت المال في عهد عثمان بن عفان أن يتلقى ما يتم تحصيله من جزية بعد الاتفاق على قيمتها وأن تقر الدولة ما تم عقده من صلح في عهود سابقة أو اقرار صلح جديد وأن تتكفل الدولة لمن أدوا الجزية بالحقوق التي تترتب على هذا الأداء ، وفي ضوء ذلك نوضح فيما يلي بعض نواحي تطبيق الجزية في عهد عثمان (١) .

نماذج مما آل لبيت المال من إيرادات الجزية في عهد عثمان :

— غزا الوليد بن عقبة في إمارته على الكوفة في عهد عثمان أذربيجان وصالح أهلها على ثمانمائة ألف درهم حبسوها عند وفاة عمر فوطئهم بالجيش فانقادوا له وقبض منهم المال (٢) .

— لما وجه عثمان عبد الله بن سعد إلى إفريقية كان الذي صالحهم عليه بطريق إفريقية جرجير ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وكان الذي صالحهم عليه عبد الله ثلثمائة قنطار ذهب (ولعل ذلك يعادل المبلغ الأول) (٣) .

— صلح قبرص وقع على جزية سبعة آلاف دينار يؤدونها إلى المسلمين (٤) .

— صالح سعيد بن صالح أهل جرجان وكان يجبون أحيانا مائة ألف ويقولون هذا صلحنا وأحيانا مائتي ألف وأحيانا ثلاثمائة ألف (٥) .

— غلب عبد الله بن عامر على نيسابور وخرج إلى سرخس فأرسل إليه أهل مرو يطلبون الصلح فبعث إليهم ابن حاتم الباهلي فصالح مرزبان مرو على ألفي ألف وقال آخر صالحهم على ستين ألف درهم (٦) .

(١) الطبري — الجزء الرابع — مرجع سابق ، ص ٢٤٧ .

(٢) الطبري — الجزء الرابع — مرجع سابق ، ص ٢٥٦ .

(٣) الطبري — الجزء الرابع — مرجع سابق ، ص ٢٦٢ .

(٤) الطبري — الجزء الرابع — مرجع سابق ، ص ٣٠٣ .

(٥) المرزبان : الرئيس المقدم في العجم .

(٦) الطبري — الجزء الرابع — مرجع سابق ، ص ٣١٠ ، ٣١١ .

- سار الأحنف بن قيس الى بلخ فحاصروهم فصالحه أهلها على
أربعمائة ألف . فرضى منهم بذلك واستعمل ابن عمه وهو أسيد بن
المتشمس ليأخذ منهم ما صالحوه عليه (١) -

وفى ضوء ما سبق يمكن ايضاح ما آل لبیت المال من الجزية رقميا
بالجدول التالي :

**جدول يوضح مقدار الجزية التي آلت لبیت المال نتيجة
بعض الفتوح أو الصلح في عهد عثمان بن عفان**

غزو أذربيجان و صلح أهلها	٨٠٠٠٠٠ درهم
صلح أفريقية مع جرجير	٢٥٢٠٠٠٠ دينار
	أو ٣٠٠ قنطار ذهب
صلح قبرص	٧٠٠٠ دينار
صلح أهل جرجان	١٠٠٠٠٠ درهم
	أو ٢٠٠٠٠٠ درهم
	أو ٣٠٠٠٠٠ درهم
صلح مرو	٢٠٠٠٠٠٠ درهم
	أو ٦٠٠٠٠ درهم
صلح بلخ	٤٠٠٠٠٠ درهم

عثمان بن عفان ينفذ كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل نجران :

كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أقر أهل نجران على شروط
اشتراطها عليهم واشتراطوها هم وكتب لهم بذلك كتابا يوضح هذه
الشروط ومنها دفعهم الجزية ومقدارها ، ثم جاءوا بعد الرسول صلى الله
عليه وسلم فكتب لهم أبو بكر رضى الله عنه كتابا بهذه الشروط ، ثم
جاءوا من بعد أن استخلف عمر رضى الله عنه اليه وكان عمر قد أجلاهم
عن نجران اليمن وأسكنهم بنجران العراق لأنه خافهم على المسلمين وكتب
لهم كتابا (٢) .

فلما قبض عمر رضى الله عنه واستخلف عثمان بن عفان أتوه الى
المدينة فكتب لهم الى الوليد بن عقبة وهو عامله الكتاب التالي :

(١) المرجع السابق ، ص ٣١٣ .

(٢) كتاب الحراج للقاضي أبى يوسف يعقوب بن ابراهيم ، ص ٧٤ .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عثمان أمير المؤمنين الى الوليد بن عتبة سلام الله عليك ، فأني أحمد الله الذي لا اله الا هو ، (أما بعد) فان الأسقف والعاقب وسراة أهل نجران الذين بالعراق ، أتوني فشكوا الى وأروني شرط عمر لهم ، وقد علمت ما أصابهم من المسلمين ، واني قد خففت عنهم ثلاثين حلة من جزينهم تركتها لوجه الله تعالى جل ثناؤه ، واني وفيت لهم بكل أرضهم التي تصدق عليهم عمر عقبي مكان أرضهم باليمن ، فاسنوص بهم خيرا . فانهم أقوام لهم ذمة . وكانت بيني وبينهم معرفة ، وانظر صحيفة كان عمر كتبها لهم فأوفهم ما فيها ، واذا قرأت صحيفتهم فأرددها عليهم والسلام .

كسبه حمران بن أبان للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين » .
ومما سبق يتضح :

— أن عثمان أوفى بعهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد صاحبيه رضى الله عنهما من بعده وأن ذلك ينبع من مبدأ عام فى الاسلام وهو أن من عقد عقدا أو عهد عهدا أو وعد وعدا أوفى به .

— خفف عثمان عنهم الجزية ووفى لهم بكل أرضهم وطلب من عامله الوليد بن عتبة أن يوفى لهم بما ورد فى كتاب عمر رضى الله عنه وأن يستوصى بهم خيرا لأنهم أقوام لهم ذمة .

ويوضح أبو يوسف طريقة معاملة أهل الذمة عموما فيقول :

ويوفى لهم بدمتهم ولا يحملوا فوق طاقتهم ولا يظلموا ولا يعسروا ولا يخسروا ولا يكلفوا مؤونة ولا نائبة وأن يبعث اليهم من يجيهم فى بلادهم ولا يلزم نساءهم ولا صبيانهم فى رؤوسهم جزية من الحلل ولا من غيرها » (١) .

أهل الكتاب فى ذمة المسلمين فى عهد عثمان ماداموا يؤدون الجزية :

بعد انتصار عمرو بن العاص فى الاسكندرية وكان قد جمع من القرى أثناء الحرب ما أصاب أهل القرى فجاءه أهل تلك القرى ممن لم يكن نقض ،

فقالوا : قد كنا على صلحنا وقد مر علينا هؤلاء اللصوص (أى الروم) وأخذوا متاعنا ودوابنا .

وهو قائم بين يديك .

(١) كتاب الحراج ، للفاضل أبى يوسف بن ابراهيم ، ص ٧٤ .

فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه وأفاموا عليه البينة .
وقال بعضهم لعمرو : ما حل لك ما صنعت بنا . كان لنا أن نقاتل
عنا لأننا في ذمتك . ولم ننقض فأما من نقض فأبعده الله .

فندم عمرو وقال : ياليتنى كنت لقيهم حين خرجوا من الاسكندرية .
فانظر كيف أن نظام الجزية يرتب لمن يدفعونها من أهل الكتاب
حقوقا تمسكوا بها وهي حمايتهم نظير ما يدفعون . بالرغم من أنهم
لا يشتركون في الدفاع عن البلاد مع المسلمين ، فلم تكن الجزية في الاسلام
عقوبة على أهل الكتاب كما يدعى بعض الكتاب وانما يدفعونها نظير حقوق
يحصلون عليها من الدولة الاسلامية ومن هذه الحقوق حق الحماية وحق
الرعاية ، وقد أقرهم عمرو بن العاص على هذه الحقوق وندم على ما فعل
ورد اليهم أموالهم ولم يعتبرها غنيمة يؤول منها لبيت المال الخمس وتوزع
الأربع أخماس الباقية على المسلمين الذين اشتركوا في القتال .

مشاركة أهل الدمة في الأعباء العامة في عهد عثمان :

ومما يذكر بشأن فتح الاسكندرية الثاني في خلافة عثمان بن عفان
مما يتصل بالجزية أن صاحب اخنا وكان اسمه طلما قدم على عمرو
ابن العاص .

فقال : أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبر لها ؟

فقال عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة : انما أنتم خزائن لنا ان
كثر علينا كثرنا عليكم ، وان خفف عنا خففنا عنكم .

فغضب صاحب اخنا فخرج الى الروم فقدم بهم فهزمهم الله واسر
فأتى به الى عمرو ،

فقال له الناس : أقتله .

فقال : لا .

وقيل ان عمرا لما أتى به سوره وتوجه وكساه برنس أرجوان ،

وقال له : اثنتا بمثل هؤلاء .

فرضى بأداء الجزية .

فقليل لطلما : لو أتيت ملك الروم .

فقال : لو أتيت لقتلني وقال قتلت أصحابي (١) .

(١) فتوح مصر وأخبارها - مرجع سابق - ص ١٢٠ .

- ومما يسترعى النظر في هذه المناقشة من ناحية السياسة المالية قول عمرو بن العاص ، « انما أنتم خزنة لنا ان كنز علينا كنزنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم » .

وبتحليل قول عمرو يمكن استنتاج المبادئ التالية لسياسة المالية العامة بالنسبة لغير المسلمين في مصر في عهد عثمان بن عفان :

— أهل الذمة يساهمون في بيت مال المسلمين بما يؤدونه من جزية ، فهم خزنة لبيت المال يحصل منها بيت المال على نصيبه في أموالهم على هيئة جزية .

— أن هذا النصيب في أموال أهل الذمة يتحدد في ظل الأعباء الملقاة على الدولة فان كبر هذا العبء ارتفعت قيمة الجزية وان خف هذا العبء خفت قيمة الجزية .

— هذا التحول في قيمة الجزية ارتفاعا وانخفاضاً مع أعباء الحكم ينبثق من مبدأ المشاركة المالية من الشعب في الأعباء بحيث يساهم كل على قدر طاقته وبما يحقق العدالة في توزيع الأعباء وفي ظل الوصايا التي أوصى بها الرسول الكريم بحسن معاملة أهل الذمة عامة وأهل مصر خاصة واتباعها الخلفاء الراشدون من بعده رضى الله عنهم .

فبالنسبة لأهل الذمة عامة سبق أن أوضحنا وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم « وأما بالنسبة لأهل مصر خاصة فيروى عن سعيد بن ميسرة عن اسحاق بن الفرات عن ابن لهيعة عن الأسود بن مالك الحميري عن بحير بن ذاخر المعفاري « عن عمرو بن العاص عن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لكم منهم صهرا وذمة » (١) .

وهذا يدعونا الى بحث النظام الذى كان مطبقا في مصر في عهد عثمان بن عفان لتقرير هذه المشاركة المالية في الأعباء العامة .

نظام تحديد أعباء الجزية والخراج في مصر في عهد عثمان بن عفان :

كان عمرو بن العاص لما استوثق له الأمر في مصر أقر قبطها على جباية الروم « وكانت جبايتهم بالتعديل اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد

(١) فتوح مصر وأخبارها - مرجع سابق - ص ١٤ .

عليهم وان قل أهلها وخربت نفصوا ، فيجتمع عرفاء (١) كل قرية ومارونها (٢) ورؤساء أهلها فيتناظرون في العمارة والخراب .

إذا أقروا من القسمة بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور (٣) ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع .

ترجع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة فيخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعداتهم من جملة الأرض ثم يخرج منها عدد لضيافة للمسلمين ونزول السلطان .

— إذا فرغوا نظروا الى ما في كل قرية من الصنائع والاجراء فقسموها عليهم بقدر احتمالهم فان كان فيها جالية قسموا عليها بقدر احتمالها .

— ينظرون ما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم .

— ان عجز أحد وشكا ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على الاحتمال (أى على من يحتمل العبء) .

— ان كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف (أى غير القادرين) .

— فان تشاحوا (أى اختلفوا) قسم ذلك على عدتهم (أى جماعتهم) .

— كانت قسمتهم على قراريط ، الدينار أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الأرض على ذلك .

الجزية في عهد عثمان كانت أحيانا غير نقدية كما كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم : —

فقد صالح عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامل عثمان بن عفان الأساود وهم بلاد النوبة في سنة احدى وثلاثين ، وعقد هدنة أمان جاء فيها من جانب المسلمين « انا عاهدناكم وعاهدناكم أن توفونا في كل سنة ثلاثمائة وستين رأسا وتدخلون بلادنا مجتازين غير مقيمين ، وكذلك ندخل بلادكم ، على أنكم ان قتلتم من المسلمين قتيلا فقد برئت

(١) عرفاء : من يدبرون أمور الناس .

(٢) مارونها : نوع من الرؤساء .

(٣) الكور : مصدرها كوره وهى الاصقاع ومفردها الصقع .

منكم الهدنة وعلى أنكم ان أويتم مسلمين عبدا فقد برئت منكم الهدنة
وعليكم رد أباقي (١) المسلمين ومن لجأ اليكم من أهل الذمة « (٢) » .

مناقشة ما قيل أن عثمان أخذ الجزية من البربر :

عن سعيد بن عفير قال : حدثني يحيى بن أيوب عن يونس بن يزيد
الأيلى عن الأيلى عن ابن شهاب « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ
الجزية من مجوس هجر ، وأن عمر أخذ الجزية من مجوس فارس وأن
عثمان أخذ الجزية من البربر » (٣) .

وقد ورد فى هامش كتاب الاموال لأبى عبيد « ولكن البربر لم
يكونوا مجوسا بل كانوا وثنيين » .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم كتب الى مجوس هجر بدعوتهم
الى الاسلام فمن أسلم قبل منه ومن قال لا ضربت عليه الجزية فى أن
لا تؤكل له ذبيحة ولا تنكح له امرأة وقال عمر : ما أدري ما أصنع بالمجوس
وليسوا أهل كتاب .

فقال عبد الرحمن بن عوف رحمه الله : سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول :

« سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

واذا كانت الجزية مأخوذة من أهل الكتاب استنادا لقول الله تعالى :

« فاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم
الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا
الجزية عن يد وهم صاغرون » (النوبة/٢٩) .

وكان المجوس ليسوا أهل كتاب فقد أخذت منهم بعد الرسول صلى
الله عليه وسلم بالسنة وقد كره بعض العلماء هذا التطبيق .

فعن أبى موسى الأشعري قال : « لولا أنى رأيت أصحابى يأخذون
الجزية ما أخذتها - يعنى المجوس - » .

فالجزية مخصوصة بأهل الكتاب بنص القرآن والمجوس لا يظهر أنهم
أهل كتاب فلا وجه لأخذ الجزية منهم ولكن صح منهم الحديث بأخذ الجزية

(١) الآبق : العبد الهارب من سيده وجمعها آباقي .

(٢) فتوح مصر وأخبارها - مرجع سابق - ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٣) المعروف أن الفرس كان لهم كتاب وضعه لهم زرادشت ويزعم بعض الناس أن

زرادشت كان نبيا ، كتاب الاموال ، لأبى عبيد ، ص ٤٠ .

منهم فوجب تطبيق السنة وان كان البعض يرى أن للمجوس شبهة كتاب .
فقد اختلف البعض في هذا الأمر فقد حدث أن فروة بن نوفل الأشجعي
قال :

« ان هذا الأمر عظيم يؤخذ من المجوس الجزية وليسوا بأهل
كتاب ؟ »

فقام اليه المستورد بن الأحنف فقال :

« طعنت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتب والا قتلتك والله »

فارتفعا الى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال :

سأحدثكما بحديث ترضيانه جميعا عن المجوس ،

ان المجوس كانوا أمة لهم كتاب يقرأونه وان ملكا لهم شرب حتى
سكر ، فأخذ بيد أخته فأخرجها من القرية واتبعه أربعة رهط ، فوقع
عليها وهم ينظرون اليه « فلما أفاق من سكره قالت له أخته أنك صنعت
كذا وكذا وفلان وفلان ينظرون اليك ،

فقال : ما علمت بذلك .

فقالت : فأنك مقتول ولا نجاة لك الا أن تطيعني .

قال : فاني أطيعك .

قالت : فاجعل هذا ديننا وقل هذا دين آدم وحواء من آدم وأدع
الناس اليه وأعرضهم على السيف فمن تابعتك فددع ومن أبى فاقتله .

ففعل فلم يبايعه أحد فقتلهم يؤمئذ حتى الليل .

فقالت له : اني أرى الناس قد اجترءوا على السيف وهم على النار
لكم ، فأوقد لهم نارا ثم أعرضهم عليها ففعل فهاب الناس النار فتابعوه .

قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : فأخذ منهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم لأجل كتابهم وحرم مناكرتهم وذبايحهم لشرکهم (١) .

وعلى ضوء ذلك يكون الرأى فى البربر الذين أخذ عثمان منهم الجزية
ان صح ذلك :

— أن البربر من المجوس فيكون عثمان بن عفان رضى الله عنه طبق
سنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) كتاب الحراج للمقاضي أبي يوسف يعقوب ، ص ١٣٠ .

— أن البربر ليسوا من المجوس وهم أهل كتاب فيكون عثمان قد طبق حكم آية الجزية .

— أن البربر من الوثنيين فما كان له أن يأخذ منهم الجزية لأنهم ليسوا أهل كتاب وانما يتبع بشأنهم ما يتبع مع الوثنيين عبدة الأوثان حكمهم القتل أو الاسلام ولا تقبل منهم الجزية (١) .

— أن عثمان بن عفان رضى الله عنه لم يأخذ الجزية من البربر أصلا وانما أخذها من المجوس وهو ما نرجحه لأن أحد المصادر في الخراج أشارت الى أخذ عثمان الجزية من المجوس ولم تشر الى أنه أخذها من البربر ولأن عثمان صحابي جليل عاصر عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد أبي بكر وعمر من بعده فلا يحتمل معه أن يخالف ما اتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم وخليفته .

نموذج من صلح يتضمن الجزية في عهد عثمان :

بعث مرزبان (٢) مروروذ في سنة اثنتين وثلاثين هجرية الى الأحنف ابن قيس الذي بعثه عبد الله بن عامر اليها لفتحها الكتاب التالى طالبا الصلح .

الى أمير الجيش ،

« انا نحمد الله الذى بيده الدول يغير ما شاء من الملك ويرفع ما شاء بعد الذلة ويضع من شاء بعد الرفعة » .

انه دعاني الى مصالحتك وموادعتك ما كان من اسلام جدى ، وما كان رأى من صاحبكم من الكرامة والمنزلة ، فمرحبا بكم وأبشروا ، وأنا أدعوكم الى الصلح فيما بينكم وبيننا على أن أؤدى اليكم خراجا ستين ألف درهم وأن تقروا بيدي ما كان ملك الملوك كسرى أقطع جد أبى حيث قتل الحية التى أكلت الناس وقطعت السبل من الأرضين والقرى بما فيها من الرجال ، ولا تأخذوا من أحد من أهل بيتى شيئا من الخراج ولا تخرج

(١) الخراج ، لأبى يوسف ، ص ١٣١ .

(٢) المرزبان : الرئيس المقدم منهم .

المرزبة (١) من أهل ببتى الى غبركم ، فان جعلت ذلك لى خرجت اليك ،
وقد بعثت اليك ابن أخى ماهك لبستوثق منك بما سألت *
فكتب اليه الأحنف :

بسم الله الرحمن الرحيم

من صخر بن قيس أمير الجيش الى باذان مرزبان مروود ومن معه
من الأساور والعجم سلام على من اتبع الهدى وآمن واتقى *

أما بعد

فان ابن أخبك ماهك قدم على ، فنصح لك جهده ، وأبلغ عنك ،
وقد عرضت ذلك على من معى من المسلمين ، وأنا وهم فيما عليك سواء ،
وقد أجبناك الى ما سألت وعرضت ، على أن تؤدى عن أكرتك وفلاحيك
والأرضين ستين ألف درهم الى الوالى من بعدى من أمراء المسلمين ،
الا ما كان من الأرضين التى ذكرت أن كسرى الظالم لنفسه أقطع جد
أبيك لما كان من قتله الحية التى أفسدت الأرض وقطعت السبل * والأرض
لله ورسوله يورثها من يشاء من عباده * وإن عليك نصرة المسلمين وقتال
عدوهم بمن معك من الأساورة ان أحب المسلمون ذلك وأرادوه * وإن لك
على ذلك نصرة المسلمين على من يقاتل من أهل ملتك ، جار لك بذلك منى
كتاب يكون لك بعدى * ولا خراج عليك ولا على أحد من أهل بينك من
ذوى الأرحام * وإن أنت أسلمت واتبعت الرسول كان لك من المسلمين
العطاء والمنزلة والرزق ، وأنت أخوهم * ولك بذلك ذمتى وذمة أبى وذمم
المسلمين وذمم آبائهم *

شهد على هذا الكتاب

جزء بن معاوية - أو معاوية بن جزء السعدى

وحمزة بن الهرماس

وحميد بن الحيار المازنيان

وعياض بن ورقاء الأسيدى

وكتب كيسان مولى ثعلبة يوم الأحد من شهر الله المحرم

وختم أمير الجيش الأحنف بن قيس

ونقش خاتم الأحنف : بعبد الله (٢) *

(١) المرزبة : الرئاسة فى العجم *

(٢) الطبرى - جزء ٤ - مرجع سابق ، ص ٣١٠ ، ٣١١

الايادات العامة من الخراج في عهد عثمان بن عفان

كثرت الفتوحات الاسلامية في عهد عثمان أدت الى زيادة خراج الأرض :

امتدت فتوحات الاسلام في عهد عثمان بن عفان على النحو الذي أوضحناه ، ونتج عن هذه الفتوحات أن دخلت الأرض الزراعية للبلاد المفتوحة في حوزة الدولة الاسلامية وكان عمر رضى الله عنه كما أوضحنا يعتبرها فيثا للمسلمين ويبقى عليها أهلها من أهل الكتاب الذين آثروا الإبقاء على دينهم يزرعونها ويؤدون عنها خراج الأرض لبيت مال المسلمين . فيمكن القول أن خراج هذه الأراضي ساهم في زيادة إيرادات بيت المال في عهد عثمان بن عفان بسبب امتداد الفتوحات الاسلامية في عهده ، خصوصا وأن عثمان كان يتابع الخراج الذي يرد لبيت المال من الأمصار كما يبين من الواقعة التالية :

متابعة مالية ونقاش عن خراج مصر في عهد عثمان :

نزع عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن خراج مصر واستعمل عبد الله بن سعد عليه ، فاختلفا .

فكتب عبد الله بن سعد الى عثمان يقول : ان عمرا كسر الخراج

وكتب عمرو : ان عبد الله كسر على حيلة الحرب

فعزل عثمان عمرو وولى عبد الله بن سعد الخراج والجند .

فقدم عمرو مغضبا فدخل على عثمان وعليه جبة يمانية محشوة قطنا

فقال له عثمان : ما حشو جبتك ؟

قال : عمرو

قال عثمان : قد علمت أن حشوها عمرو ولم أرد هذا انما سألت أقطن هو أم غيره .

وقد دخل عمرو على عثمان بعد ذلك وكان عبد الله بن سعد قد بعث الى عثمان بمال كثير من مصر .

فقال عثمان : يا عمرو هل تعلم أن تلك اللقاح درت بعدك .

فقال عمرو : ان فصالها هلكت (١) .

أراد عثمان أن عمرا كان يمنع الايرادات العامة عنه وأراد عمرو أن ابن أبى سرح يكلف أهل مصر فوق ما يطيقون .

(١) الطبرى - جزء ٤ - دار المعارف ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

وهذا النقاش يدل على أن عثمان بن عفان كان يتابع ما يؤول لبيت المال من خراج الامصار ويستقصى أسباب هبوطه . ويكون هذا الهبوط أحيانا سببا في نوم الولاة بل وعزلهم . هذا ومتابعة الخليفة لأموال الخراج شبيهة حاليا بنظم المتابعة المالية التي تضعها المصالح العامة للإيراد للتحقق من تدفق الموارد .

مسالتان متعلقتان بالخراج في عهد عثمان :

نشأت في عهد عثمان بن عفان مسالتان كان للرأى العام فيهما وجهة نظر وهما :

الأولى : بشأن سياسة عثمان في اقطاع الأرض .

الثانية : بشأن سياسة عثمان في حوى الأرض .

ونناقش فيما يلى كل مسألة ونوضح ما أثير بشأنها من نقاش ونبين وجهة نظر الخليفة بشأنها عندما ووجه بكل منها .

سياسة عثمان بن عفان في اقطاع الأرض :

أقطع عثمان بعض أراضى الدولة لبعض الصحابة يزرعونها ويؤدون ما عليها من فرائض دينية لبيت مال المسلمين وقد تعرضت هذه السياسة الى نقد من بعض المعارضين في أيام عثمان بن عفان وساندتهم بعض الكتاب فيما بعد ، والنقد الذى وجه الى هذه السياسة يستند الى أن هذه الأرض من أرض السواد أى أرض خصبة وأنه ما كان لعثمان أن يؤثر بها البعض وهى أرض الدولة وأن ذلك زاد من غنى هؤلاء الذين منحوا هذه الأرض . والغنى الزائد للصحابة الذين كانوا تعودوا الزهد أيام الرسول صلى الله عليه وسلم أمر غير مستحب قد يميل بهم عن القمة الدينية التى وصلوا إليها أيام الرسول ، وحاول أصحابه من بعده أن يبقوهم فى هذه القمة ، ونناقش الموضوع فيما يلى :

— من الذين أقطعهم عثمان الأرض ؟

يعدد أبو عبيد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أقطعهم عثمان بن عفان ،

فقال : وحدثنى قبيصة عن سفيان عن ابراهيم بن مهاجر عن موسى ابن طلحة أن عثمان بن عفان أقطع خمسة من أصحاب النبی صلى الله عليه وسلم : الزبير وسعدا وابن مسعود وأسامة بن زيد وخباب بن الارت — قال فكان جارى منهم ابن مسعود وخباب (١) .

(١) الأموال ، لأبى عبيد ، ص ٣٥٣ .

– نوع الأرض التي أقطعها عثمان ، هل هي أرض بور أم أرض خصبة ؟

ويقول أبو عبيد : وأما اقطاع من أقطع من الصحابة وقبولهم إياه فان قوما قد تأولوا أن هذا من السواد ، وقد سألت قبيصة هل كان فيه ذكر السواد ؟ فقال : لا .

فان يكن كما تأولوا فانه عندي من الأصناف التي كان عمر أصفاها من أرض السواد (١) وقد أصفى عمر من السواد عشرة أصناف منها أرض من قتل في الحرب (٢) وأرض من هرب من المسلمين وكل أرض لكسرى وكل أرض لأهل بيته وكل مغيض ماء (٣) وكل دير يريد (٤) .

ويقول أبو عبيد :

« فهذه كلها أرضون قد جلا عنها أهلها ، فلم يبق بها ساكن لها ولا عامر ، فكان حكمها الى الامام كما ذكرنا في عادى الأرض . فلما قام عثمان رأى أن عمارتها أرد على المسلمين وأوفر لخراجهم من تعطيلها فأعطاهم من رأى اعطاه على أن يعمروها كما يعمر غيرها غيرهم ويؤدوا عنها ما يجب للمسلمين عليهم (أى من فرائض مالية) . فاما أن يكون وجه هذا عندي على ما يحمله عليه ناس من الناس فلا . وقد روى عن عمر التغليظ فى مثل ذلك (٥) » .

ويؤيد أبو عبيد قوله :

« بأن أسماء القرى التي كان عثمان أقطعها هي صنعبا والنهرين وقرية هرمز وكان هرمز أحد الأكاسرة ، فهذا مفسر لما قلنا انه انما أقطع من تلك الأرضين التي لم يبق لها رب (٦) وأما اقطاع عثمان بن أبي العاص بالبصرة الأرض التي تعرف بشط عثمان فان أرض البصرة كانت يومئذ كلها سبأخا وآجاما (٧) فأقطع عثمان بن أبي العاص النقفى بعضها فاستخرجها وأحيها السبأخ ، بعد أن كانت موات كما قلنا (٨) .

ومما سبق يبين أن الأرض التي أقطعها عثمان بن عفان للصحابة.

(١) الأموال ، لأبي عبيد ، ص ٣٥٩ .

(٢) من قتل فى الحرب أى من الكفار .

(٣) مغيض ماء : الأرض المنخفضة التي يتجمع فيها الماء .

(٤) (٥) الأموال ، لأبي عبيد ، ص ٣٦٠ .

(٦) رب : أى مالك .

(٧) سبأخا وآجاما : أى غير صالحة للزراعة .

(٨) الأموال ، لأبي عبيد ، ص ٣٦١ .

ليست من الأراضي الخصبة المنزرعة فعلا وانما هي أرض كانت تحتاج الى
الاصلاح .

مناقشة سياسة عثمان في اقطاع الأرض من الناحية الدينية :

- ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم والخليفة الصديق والفاروق
عمر قد طبقوا مبدأ اقطاع الأرض للغير ، وبذلك لم يخالف عثمان بن
عفان سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وما اتبعه خليفته من بعده .

- فقد أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الانصار يقال له
سليط فكان يخرج الى أرضه التي أقطعها إياه الرسول صلى الله عليه
وسلم فيقيم بها الأيام ثم يرجع الى المدينة فيقال له :

« لقد نزل من بعدك من القرآن كذا وكذا وقضى رسول الله صلى الله
عليه وسلم في كذا وكذا » .

فانطلق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« يا رسول الله ان هذه الأرض التي أقطعنيها قد شغلتنى عنك ،
فاقبلها منى ، فلا حاجة لى فى شىء يشغلنى عنك » .

فقبلها النبى صلى الله عليه وسلم منه .

فقال الزبير : يا رسول الله اقطعنيها .

فاقطعها إياه (١) .

وقال أبو ثعلبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا رسول الله أكتب الى بأرض كذا وكذا .. أرض هي يومئذ
بأيدي الروم » .

فكان أعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال ثعلبة فقال
عليه الصلاة والسلام :

« ألا تسمعون ما يقول »

قال ثعلبة : والذى بعثك بالحق لتفتحن عليك .

فكتب الرسول عليه السلام له بها (٢) .

ومما يلاحظ أن ثعلبة أقسم على أمر مستقبل وهو غيب لا يعلمه

(١) الأموال ، لأبى عبيد ، ص ٣٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤٩ .

الا الله وانما كان ذلك استنادا الى ما في القرآن من مثل قوله تعالى :
 « ليظهره على الدين كله » (التوبة/ ٣٣) « والله متم نوره » (الصف/ ٨)
 وقوله عليه الصلاة والسلام « والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من
 صنعاء الى حضرموت لا يخشى الا الله والذئب على غنمه » .

لما أسلم تميم الداري قال :

« يا رسول الله ان الله مظهرك على الأرض كلها فهب لي قريتي من
 بيت لحم » .

قال : هي لك وكتب له بها .

فلما استخلف عمر وظهر على الشام جاء تميم الداري بكتاب النبي .
 صلى الله عليه وسلم ،

فقال عمر : أنا شاهد ذلك - فأعطاه اياه .

- وثبت كذلك أن أبابكر رضى الله عنه وافق على اقطاع طلحة بن
 عبيد الله أرضا ولعينة بن حصن وكتب لكل منهما كتابا وأراد أن يختم
 عمر على هذين الكتابين ولكن عمر رضى الله عنه لم يوافق وأقر أبو بكر
 رأى عمر .

- وثبت كذلك أن عمر بن الخطاب أتاه رجل من أهل البصرة من
 ثقيف يقال له نافع أبو عبد الله فقال لعمر بن الخطاب .

« ان قبلنا أرضا بالبصرة ليست من أرض الحراج ولا تضر بأحد
 من المسلمين » فان رأيت أن تقطعنيها اتخذ فيها قصبا لحبل فافعل .
 فكتب عمر الى أبي موسى الأشعري ان كانت كما يقول فاقطعها
 اياه .

مناقشة سياسة عثمان في اقطاع الأرض من الناحية الاقتصادية :

أثبت أبو عبيدة أن الأرض التي أقطعها عثمان رضى الله عنه أرض
 موات ، فاذا أقطعها الخليفة للبعض فعبروها فهي لهم « استنادا لحديث
 الرسول صلى الله عليه وسلم الذي روته عائشة رضى الله عنها وهو :
 « من عمر أرضا ليست لأحد فهو أحق بها » .

والتعمير اما أن يكون تعميرا زراعيا فتؤتى الأرض غلتها باذن ربها
 فيزيد الانتاج ويوظف العمال وينقل التجار المحصولات من مكانها الى
 الأسواق لتشبع حاجات المستهلكين وتساهم زيادة الانتاج في زيادة الدخل
 القومي .

واما أن يكون تعمير الأرض بتقسيمها وبيعها واقامة المباني عليها فتحرك حركة البناء الأنشطة الاقتصادية الأخرى وتكون هذه المباني مساكن للمسلمين أو محال للمتجرين أو أرباب الحرف وأصحاب الصناعات .

ويساهم ذلك كله في زيادة موارد بيت مال المسلمين بما يؤديه الجميع من زكاة على أموالهم اذا توفرت شروطها ، وما كان عثمان بمستطيع أن يجعل الدولة في عهده تقوم بعملية التعمير لأن فلسفة تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية لم تكن مألوفة وقتئذ ولم تظهر الا بعد خلافته بمئات السنين فضلا عما يعترى قيام الدولة حاليا باستصلاح البور من أراضيها من عيوب منها ارتفاع تكلفة الاستصلاح وبطء خطواته وطول اجراءاته .

ويعلق أحد الكتاب على اقطاع عثمان من الناحية الاقتصادية فيقول :

« وقد نجح مشروع عثمان بدليل زيادة إيراد الدولة من أملاكها الخاصة في العراق اذ بلغت خمسين ألف ألف درهم بعد أن كانت ٩٠٠٠٠ درهم في عصر الخليفة عمر » (١) .

مناقشة سياسة عثمان في اقطاع الأرض من الناحية الاجتماعية :

على أن لموضوع سياسة عثمان بشأن اقطاع الأرض آثارا اجتماعية ، فقد أدى تملك الصحابة لهذه الأرض الى زيادة ثروات بعضهم وكان منهم من يملكون أصلا ثروات كبيرة تكونت من التجارة فساهم تملك الأرض في زيادة ما يملكون .

وقد كان بجانب هؤلاء الأغنياء فقراء واجتمع الغنى والفقر فنشأ ما ينشأ عادة بينهما من مقارنات وتحرك أفكار وتولد مشاعر « فالفقراء يقارنون حالهم بحال الأغنياء فمنهم من يصبر راجيا الدار الآخرة ومنهم من تتحرك وتتوالى أفكاره » فيتذكرون كيف كان بعض الصحابة أيام الرسول صلى الله عليه وسلم يبيتون جائعين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا وكيف صاروا الآن الى النعيم والغنى ، وقد أثر ذلك في الفقراء فجعل بعضهم يتحمس للدعوى التي تحركت فيما بعد موجهة للنقد لسياسة عثمان في اقطاع الأرض .

تنقل الصحابة في الامصار زاد من حدة النقد لسياسة عثمان في اقطاع الأرض :

ومما زاد في الأثر الاجتماعي لاقطاع الأرض سماح عثمان بن عفان للصحابة بالتنقل الى الأمصار بعد ان كان عمر قد أبقاهم بجانبه وقد نقل

(١) النظام المالي الاسلامي ، للدكتور بدوى عبد اللطيف عوض ، ص ٦١ .

عثمان اليهم فيئتهم حيث يقيمون ، وقدمهم على غيرهم من سكان هذه الأمصار تكريما لهم واعترافا بفضلهم في الاسلام .

فقد جاء بكتابه الى واليه سعيد بن العاص على الكوفة ما يلي :

« أما بعد ففضل أهل السابقة والقدم ومن فتح الله عليه تلك البلاد ، وليكن من نزلها من غيرهم تبعاً لهم الا أن يكونوا نناقلوا عن الحق وتركوه وقام به هؤلاء ، واحفظ لكل منزلته ولهم جميعاً قسطهم من الحق ، فان المعرفة بالناس يصاب بها العدل » .

وحينما استقر بعض الصحابة في البلاد التي سافروا اليها التف حولهم معجبون كيرون شوقاً الى أحاديث الرسول صلى الله عليه وأعماله وأصبحوا مراكز ثقل في هذه البلاد تبعهم أناس كثيرون .

وجهة نظر عثمان في اقطاع الأرض

يقول عثمان بن عفان رضى الله عنه للصحابة مناقشا ما وجه الى سياسته من نقد بشأن اقطاع الأرض ،

قالوا : أعطيت الأرض رجالا ، وأن هذه الأرض شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت ، فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ، ومن رجع الى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له ، فنظرت في الذي يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنقلت اليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني (١) .

موقف السياسة المالية بشأن اقطاع عثمان الأرض للصحابة :

ذكرنا أنه لمقابلة التحديات التي سبقت عهد عثمان لا ينبغي على السياسة المالية أن تعمل على زيادة ثروات الصحابة حتى لا تكون زيادة الأموال سببا في تعرض بعض الصحابة لفتنة الأموال ، وهو ما خشاه الرسول صلى الله عليه وسلم وما احتاط له أصحابه أبو بكر وعمر ، فعلى ذلك تكون السياسة المالية بتوزيع الأرض قد تعارضت مع هدف من الأهداف العامة وهو المحافظة على القمة الايمانية التي وصل اليها الصحابة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وباعتبار أن زيادة المال قد تكون من عوامل تقليل درجة الزهد التي بلغها الصحابة ، والاتجاه نحو التمتع بزينة الحياة الدنيا ، والطيبات من الرزق ، وهي غير محرمة ، ولكن التمتع أقل درجة من الزهد في ميزان التقوى ، ومن ناحية أخرى فقد

(١) الطبرى ، جزء ٤ ، مرجع سابق ، ص ٣٤٨ .

ذكرنا أن موارد الدولة زادت نتيجة سياسة اقطاع الأرض في عهد عثمان. رضى الله عنه ، ويعتبر ذلك نجاح في السياسة المالية العامة غير الاسلامية ، ولكن في السياسة المالية العامة الاسلامية التي تطبقها الدولة الاسلامية اذا تعارض العامل المالى مع العامل الدينى فيرجح العامل الدينى الاسلامى -

سياسة عثمان في حمى (١) الأرض :

— ومن المسائل التي أثرت بشأن الأرض في عهد عثمان سياسته في حمى الأرض ، ففي حمى الأرض قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا حمى الا لله ولرسوله » رواه البخارى وأبو داود ، وقال الشافعى معنى الحديث سُيِّئِينَ :

أحدهما : ليس لأحد أن يحمى للمسلمين الا ما حماه النبي صلى الله عليه وسلم .

والآخر : الا على ما حماه عليه النبي صلى الله عليه وسلم .

فعلى الأول ليس لأحد من الولاة أن يحمى بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى الثانى يختص الحمى بمن قام مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو الخليفة خاصة . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم الناس شركاء فى الماء والكلا والنار .

— ويقول أبو عبيد للحمى مواضع متفرقة وأحكام مختلفة .

فأول ما أباحه رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس كافة وجعلهم فيه أسوة وهو الماء والكلا والنار ، وذلك أن ينزل القوم فى أسفارهم ، وبواديهم بالأرض فيها النبات الذى أخرجه الله للأنعام مما لم ينصب فيه أحد بحرث ولا غرس ولا سقى ، فهو لمن سبق اليه ليس لأحد أن ينتظر منه شيئا دون غيره ، ولكن ترعاه أنعامهم ومواشيهم ودوابهم معا ، وتورد الماء الذى فيه كذلك أيضا . فهذا الناس شركاء فى الماء والكلا .

« ومذهب الحمى لله ولرسوله يكون فى وجهين :

أحدهما : أن تحمى الأرض للخيال الغازية فى سبيل الله وقد عمل بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والوجه الآخر : أن تحمى الأرض لنعم الصدقة الى أن توضح

(١) حمى الأرض : معناها منعها عن الناس ويقصد بها هنا تخصيص أرض نبت بها الكلا نباتا طبيعيا من غير أن تزرع للخيال الغازية فى سبيل الله كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم والأنعام والزكاة الى أن تفرق على مستحقها كما فعل عمر .

مواضعها وتفرق في أهلها وقد عمل بذلك عمر . (١) -
وكان هذا الحمى يضايق رعاة العرب لأنه يمنعهم من رعى

مواشيهم في الأرض التي حميت فقد أتى أعرابي عمر فقال :
« يا أمير المؤمنين بلادنا قاتلنا عليها في الجاهلية وأسلمنا عليها في
الاسلام علام تحميها ؟ »

قال عمر :

« المال مال الله والعباد عباد الله والله لولا ما أحمل عليه في سبيل
الله ما حميت من الأرض في شبر » .

وقد حمى عمر لابل الصدقة ولابن السبيل جميعا (٢) .
ذلك هو مذهب الحمى كما أوضحه الرسول صلى الله عليه وسلم
وطبقه عمر رضي الله عنه ، فلما آلت الخلافة لعثمان كان للناس شكوى
بشأن الحمى .

فقد عارضوه في أنه حدد أرضا ترعى فيها ابل الصدقة ولم يكن ذلك
في عهد النبي وصاحبيه .

وجهة نظر عثمان في أرض الحمى :

وقد رد عليهم عثمان بن عفان رضي الله عنه قائلا :

« وقالوا حميت حمى واني والله ما حميت حمى قبل ، والله ما حموا
شيئا لأحد ما حموا الا غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعيته
أحدا واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لثلا يكون بين من يليها وبين
أحد تنازع » ثم ما منعوا ولا نحوا منها أحدا الا من ساق درهما وما لي
من بعير غير راحلتين ، ٠٠٠ واني قد وليت واني أكثر العرب بعيرا أو شاة ،
فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى ، كذلك ؟ فقال له الحاضرون :
« اللهم نعم » .

وبذلك أوضح عثمان رضي الله عنه أنه لم يحم شيئا لأحد ، وانما
حمى أنعام الصدقة لثلا يكون هناك تنازع بين الناس ، وأنه ليس له
ولا لغيره من المسلمين في أرض الحمى شاه ولا بعير ، وأنه حينما تولى
كان أكثر العرب أنعاما وليس له وقتئذ الا بعيرين لحجه . ونضيف الى ذلك

(١) الاموال ، لأبي عبيد ، ص ٣٧٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٨ .

أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حمى الأرض وحماها عمر من بعده
كما أوضحنا فلا تثريب على عثمان بن عفان رضى الله عنه فى هذا الشأن .

المالية العامة الرشيدة تؤيد حمى عثمان لأنعام الصدقة :

الأنعام التى حمى عثمان لها الأرض هى أنعام الصدقة أى حصل عليها
بيت المال من زكاة أرباب الأنعام . والأرض التى حفظت الدولة فيها هذه
الأنعام حتى توزع على مستحقى الزكاة هى أرض فيها نباتات أخرجها الله
دون حرب ولا غرس ولا سقى من أحد ، فاجراء عثمان بن عفان اجراء
يتسم بترسييد الانفاق العام ، لأنه ان لم يحم هذه الأرض لأنعام الصدقة
كان على الدولة أن تبحث على أرض أخرى مزروعة بمعرفة الناس فتستأجرها
منهم ، مما يلقى أعباء على بيت مال المسلمين ، فما فعله عثمان فيه اقتصاد
لنفقات الزكاة حتى لا تبتلع نفقة تحصيل الزكاة جزءا هاما من إيراداتها
ويقل بذلك ما يؤول الى الفقراء والمساكين ولسائر أوجه مصارف الزكاة ،
ومن سمات الفريضة المالية أو الضريبة الجيدة أن تكون نفقات الدولة
لتحصيلها أقل ما يمكن وبذلك تتسم بسمة الاقتصاد وهذا ما فعله
عثمان فى أنعام الزكاة .

الإيرادات العامة من عشور التجارة في عهد عثمان بن عفان

زيادة الإيرادات من عشور التجارة في عهد عثمان بن عفان :

أوضحنا القواعد العامة لعشور التجارة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وفي عهد عثمان بن عفان يبدو بصفة عامة أن إيرادات بيت المال زادت من عشور التجارة نتيجة لزيادة رقعة الدولة الإسلامية بسبب الفتوحات التي تمت في عهده ونتيجة لزيادة الثروات لدى البعض مما زاد القوة الشرائية بصفة عامة خصوصاً في السنوات الأولى من عهد عثمان بن عفان التي اتسمت بالاستقرار وزيادة القوة الشرائية تزيد الطلب على السلع وزيادة الطلب على السلع تدعو إلى تنشيط استيرادها وخضوعها لعشور التجارة متى توفرت شروط الإخضاع .

ومن العوامل التي أدت إلى زيادة حصيلة عشور التجارة في عهد عثمان بن عفان ارتفاع الأسعار ، وقد سبق أن أوضحنا نماذج لذلك (١) ، وارتفاع أسعار السلع يؤدي بالتالي إلى زيادة حصيلة عشور التجارة منها لأنها ضريبة قيمية تؤخذ بنسبة معينة على قيمة السلعة ، وليست نوعية تؤخذ على نوع السلعة .

(١) ورد ذلك فيما سبق تحت عنوان « الاتفاق العام من خمس القوائم » .

الفصل الثاني

نظام المصالح العامة

في عهد عثمان بن عفان

سمات الاتفاق العام في المالية العامة الاسلامية :

من المهم أن نهتدى الى بعض المبادئ العامة للاتفاق العام التي تضمنتها الشريعة الاسلامية لأن البعض قد وجه النقد الى بعض وجوه الاتفاق العام في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وذلك حتى نسترشد بها في مناقشة هذا النقد ، وفيما يلي بعض هذه المبادئ مدعمة بالآيات القرآنية :

- ترشيد الاتفاق العام

والترشيد هو جعل الاتفاق العام رشيدا أي يتسم بالصالح وكي يتسم الاتفاق العام بالصالح ينبغي أن يحقق في أمور الدنيا أقصى منفعة ممكنة من اتفاقه وأن تعود المنفعة على الأمة جمعاء أو شريحة منها فلا يوجه الاتفاق العام لمصلحة فرد دون غيره ، وأن يكون خاليا من الاسراف والتقتير لأن في الاسراف ضياع للأموال ، ولأن التقتير يقصر بالنفقة العامة عن أن تحقق أهدافها ، فإذا كانت تلك النفقة للصرف على خدمة عامة للرعية هبطت جودة أداء الخدمة بسبب التقتير أو ضاق نطاقها فيحصل أفراد الرعية على خدمات عامة غير جيدة أو لا يحصل بعضهم عليها أصلا .

ويصف القرآن المجيد اتفاق الراشدين من المؤمنين فيقول :

« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ،
(الفرقان / ٦٧) »

- حسن اختيار القائمين على الاتفاق العام

وكي يكون الاتفاق العام مرشدا ، يجب أن يتولاه من يحسن ادارته فتتوفر فيه الموصفات اللازمة من خبرة وأمانة وحسن تصرف وفي ذلك يقول الله تعالى :

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما » (النساء / ٥) -

٢٠ - ملائمة الانفاق العام للمصلحة العامة

يؤثر الانفاق العام في حالة المجتمع ، فإذا كان بعض أفراد المجتمع في حالة غنى والبعض الآخر في حالة فقر أخذت الدولة من الأغنياء في هيئة زكوات وضرائب وقامت بالانفاق العام على الفقراء سواء على هيئة إعانات أو خدمات عامة تؤدي لهم كالتعليم المجاني أو العلاج بدون أجر أو تدعيم السلع التي تستهلكها الشريحة الفقيرة في المجتمع وبيعها لهم بأسعار مخفضة ، وإن كان المجتمع في حالة تخلف عام بأن كان متوسط الدخل القومي منخفضاً انفقت الدولة على مشروعات عامة تزيد الدخل القومي وترفع مستوى معيشة الشعب وبذلك يكون الانفاق العام في هاتين الحالتين انفاقاً ملائماً ويتحقق بذلك الاحسان في توجيه الانفاق العام الوارد في قوله جل وعلا :

« الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » (آل عمران / ١٣٤) .

هذا وتنطبق هذه المبادئ على كافة أنواع الانفاق العام العلني منها والسري الذي ينفق على الحروب لأن الله جل وعلا كما أباح الانفاق العلني ، أباح الانفاق السري مادام يتصف بالمواصفات الطيبة التي تضمنتها أحكام الشريعة الإسلامية ، فيقول الله جل وعلا :

« قل لعباد الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خصال » (إبراهيم / ٣١) .

٢١ - أنواع النفقات العامة للموازنة العامة في عهد عثمان :

يمكن تقسيم أنواع الانفاق العام من حيث طبيعتها أو الأغراض التي تنفق عليها الى نوعين رئيسيين :

١ - نفقات عامة لإدارة الدولة كمرتب الخليفة ومرتبات الولاة ، والعمال ونفقات بعثة الحج التي كان يقوم بها خليفة المسلمين سنوياً . ونفقات إضاءة المساجد وكسوة الكعبة .

٢ - نفقات المشروعات العامة كإقامة المساجد أو توسعتها وحفر الآبار .

وهناك نوع آخر من الأموال العامة يخرجها بيت المال تشابه في طبيعتها النفقة العامة وهي الأعطيات التي يخرجها بيت المال وكانت

تعطى للمسلمين في ظل نظام الأعطيات الذي نوهنا عنه في عهد
أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما والفرق بين الأعطيات
والنفقات العامة أن الإعطيات لا تمنح الا اذا زادت الايرادات العامة وتحقق
فائض تصرف منه ، بينما أن النفقات العامة تكون في حدود الموارد
العامة المتاحة .

وفي ضوء ما سبق نناقش فيما يلى بعض النفقات العامة في عهد
الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

مرتب الخليفة عثمان وتقشف الخليفتين قبله :

— تتحمل موازنات الدول الحديثة أعباء قيام رئيس الدولة بمهام
عمله سواء أكانت هذه الأعباء تتمثل في مرتبه الذى يتقاضاه من الدولة
أو نفقات اقامته أو تنقلاته الداخلية والخارجية أو نفقات الأمن اللازمة
لحراسته أو نفقات الضيافة المرتبطة بعمله وأية نفقات عامة أخرى
يتطلبها القيام بمنصبه .

— وقد طبق عمر بن الخطاب ومن قبله أبو بكر رضى الله عنهما
المبدأ فى حدود ضيقة وذلك بأن الصحابة طلبوا منهما أن يتوقفا عن
التجارة ليتفرغا لمهام الدولة وشئونهما وحددوا لكل منهما مرتبا يتقاضاه
من بيت المال علاوة على ما كان يتقاضاه من عطاء بيت المال كأحد أفراد
الامة الاسلامية وعاش كل منهما عيشة الزهد والتقشف ، مانعا أفراد
أسرته وذوى قرياه من أن ينال أحدهم أية مزية مالية من بيت المال .
ولما حضرت أبو بكر رضى الله عنه الوفاة قال لابنته عائشة وهى
تمرضه :

« أما والله لقد كنت حريصا على أن أوفر فى المسلمين ، على أنى
قد أصبغت من اللحم واللبن ، فانظري ما كان عندنا فأبلغيه عمر ، » .

وما كان عنده دينار ولا درهم ، ما كان الا خادما ولقحة (١) ومحبيا،
فلما رجعوا من جنازته أمرت به عائشة الى عمر (٢) .

فقال : رحم الله أبا بكر لقد آتعب من بعده (٣) .

وأيام خلافة عمر بن الخطاب أوضح ما يحل له من بيت المال فقال :
ألا أخبركم بما أستحل من مال الله ، حلتين حلة الشتاء والقيظ

(١) اللقحة : هى الناقة القريبة العهد باللعاح .

(٢) الاموال . لأبى عبيد ، ص ٣٤ .

(٣) أى أن ما طبقه من الزهد والحرص على أموال المسلمين سيعتب من بعده لانه .

من الصعب أن يقتدى به .

(شدة الحر) وما أحج عليه وأعنمر من الظهر وقوت أهلى كرجل من فريش ، ليس بأغناهم ولا بأفقرهم تم أنا رجل عن المسلمين يصيبني ما أصابهم .

— فلما ولى عثمان وكان شيخا كبيرا لم يستطع أن يجارى نقشف الخليفين من قبله وكان قد اعتاد قبل الخلافة جباه التنعم ورغد العيش .

فقد روى عن عمر بن أمية الصخرى أنه قال :
وانى كنت أتعشى مع عثمان خزيمة (شبه عصيدة باللحم) من طبخ من أجود ما رأيت قط فيها بطون الغنم وأدمها اللبن والسمن .
فقال عثمان : كيف ترى هذا الطعام .
فقلت : هذا أطيب ما أكلت قط .

فقال عثمان : يرحم الله ابن الخطاب ما أكلت معه هذه الخزيمة قط .

فلت : نعم فكادت اللقمة تفرث فى يدى حين أهوى بها الى فمى وليس فيها لحم وكان أدمها السمن ولا لبن فيها .

فقال عثمان : ان عمر رضى الله عنه أتعب والله من تبع أثره .
وانه كان يطلب بتنية عن هذه الأمور ظلما (غلظا فى المشية) . أما والله ما أكله من مال المسلمين ولكن أكله من مالى ، أنت تعلم أنى كنت أكثر قريش مالا وأجدهم فى التجارة ولم أزل أكل من الطعام ما لا بد منه وقد بلغت سنا فأحب الطعام الى أئينه ولا أعلم لاحد على فى ذلك تبعه (١) .

وعن عبيد الله بن عامر قال :

« كنت أفطر مع عثمان فى شهر رمضان فكان يأتينا بطعام هو ألين من طعام عمر ، فقد رأيت على مائدة عثمان الدرهم (نوع من الدقيق الجيد) وصغار الضأن كل ليلة . وما رأيت عمر قط أكل الدقيق منخولا ، ولا أكل من الغنم الا مسانها وقيل لعثمان فى ذلك .

فقال : يرحم الله عمر ومن يطيق ما كان عمر يطيق (١) .

هاتان مائدتان من موائد عثمان بن عفان .

ونورد فيما يلى مائدة من موائد عمر بن الخطاب .

(١) مع الخلفاء الراشدين ، عبد الخالق أبو راببة ، ص ٧٧ .

(١) مع الخلفاء الراشدين ، عبد الخالق أبو راببة ، ص ٧٧ .

وصل رسول سلمة بن قيس الاشجعي أحده قواد غمر على الأكراد
ومعه حلية طابت نفوس الجند أن يرسلوها إلى أمير المؤمنين من الغنيمة
فلما وصل الرسول استأذن وسلم ، فأذن له بالدخول فدخل على أمير
المؤمنين فإذا هو جالس على مسح (١) متكئ على وسادتين من آدم محتوتين
ليفا ، فنبتذ إليه بأحدهما ، فجلست عليها ، وإذا بهو في صفة فيها بيت
عليها ستير .

فقال عمر : يا أم كلثوم ، غداًنا .

فأخرجت إليه خبزه بزيت في عرضها ملح لم يندق .

فقال عمر : يا أم كلثوم ، ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا من

هذا ؟

قالت : اني أسمع عندك حس رجل .

قال : نعم ولا أراه من أهل البلد .

قالت : لو أردت أن أخرج لكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته
وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته .

قال : أو ما يكفيك أن يقال : أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب
وامرأة أمير المؤمنين عمر .

فقال عمر لرسوله سلمة : كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب
من هذا .

ويقول رسول سلمة : وأكلت قليلاً وطعامي الذي معي أطيب منه .

ثم قال عمر : اسقونا .

فجاءوا بعس من سلت (٢) .

ثم قال عمر : اعط الرجل .

ويقول رسول سلمة : فشربت قليلاً ، سويقي الذي معي
أطيب منه .

وقال عمر بعد أن شرب : الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا وسقانا
فأروانا .

وعرض رسول سلمة بعد ذلك على عمر ما جاء به فرد الحلية وأمره
أن يبلغ قائده بتقسيمها بين الجند (٣) .

(١) المسح : نسيج من الشعر يتخذ بساطاً يجلس عليه .

(٢) السلت : شراب من سويق الشعير .

(٣) مقتبسة من الطبري - جزء ١١ - ص ١٨٧ ، ١٨٨

مقارنات بين مرتب عثمان من بيت المال ومخصصات الملوك في عصره ورؤساء الدول حديثا :

مما سبق يمكن استخلاص ما يلي :

– أن عثمان كان متنعما وكان كل من أبي بكر وعمر متقشفين ،
ولا ضير على عثمان في ذلك فقد كان عندما ولي الخلافة شيخا لا يحتمل
خشونة التقشف ، ولا تثريب عليه في التمتع والله جل وعلا يقول :

« يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم وأشكروا لله إن
كنتم إياه تعبدون » (البقرة / ١٧٢) .

ويقول سبحانه وتعالى أيضا :

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من
الرزق » ، (الاعراف / ٣٢) .

– أن عثمان يقرر أنه لا يأكل هذه الطيبات من مال المسلمين
ولكنه أكلها من ماله الخاص ، فقد كان أكثر قريش مالا وأجدهم في
التجارة .

– يبدو من ذلك أن مرتب عثمان الذي كان يأخذه من بيت المال
ونصيبه من الاعطيات التي كان ينالها كسائر المسلمين لم تكن تكفيه
للافتاق منها على معيشته مادام يأكل من ماله الخاص .

– ولا يقاس تنعم عثمان بما كان يتنعم به الملوك في عصره فقد
كانوا يفرضون الضرائب والأتاوات على شعوبهم المستكنة لينفقوا معظمها
على شئونهم الخاصة وكانوا يمتلكون الاقطاعات الشاسعة من أموال
الشعب كما كانت تخصص الأموال العامة للملذات الملوك واشباع أهوائهم
وكانوا لا يفصلون بين أموالهم الخاصة والأموال العامة ، فضلا عن تسخير
أفراد الشعوب لخدماتهم وخدمات حاشيتهم من كبار الاقطاعيين .

– وقد ذكرنا أنه في المالية العامة الحديثة تخصص موازنات عامة
لرئاسة الدول تدرج بها الاعتمادات اللازمة لمرتبات ومخصصات رئيس
الدولة وكذلك مرتبات العاملين معه واعتمادات أخرى لإدارة أنشطة
الرئاسة واعتمادات أخرى لقصور الرئاسة سواء لسكنى رئيس الدولة
أو لتنقلاته من سيارات وطائرات وشراء قطع الغيار اللازمة لها ، وقد
تدرج بالموازنات العامة بعض الاعتمادات الاجمالية والسرية لينفق منها
رئيس الدولة ، وتتسم هذه النفقات العامة عادة بعدم الترشيد بسبب
توجيه بعضها الى أغراض مظهرية ، وقد يتم هذا في بعض الدول بالرغم من

أن هذه الدول قد تكون فقيرة متخلفة اقتصاديا شحيحة الموارد تعتمد في سبل عجزها المالى على القروض والمعونات الخارجية .

وبذلك يتضائل ما قيل عن تنعم عثمان الذى كان تنعمه من ماله الخاص فى عصره بالمقارنة بما كان ينفقه الملوك فى عصره من أموال الشعوب - ويتضائل كذلك ما قيل عن تنعم عثمان اذا قيس بما تتضمنه الموازنات العامة حديثا من مرتبات واعتمادات ومخصصات لرؤساء الدول . ويتضائل كذلك ما قيل عن تنعم عثمان اذا عرف أنه كان شيخا كبيرا لا يحتمل خشونة العيش .

تعين عثمان بن عفان الولاية وصرف مرتباتهم من بيت المال :

- فى عهد عثمان بن عفان كانت الدولة الاسلامية مقسمة الى ولايات وكان على كل ولاية وال يعينه الخليفة يأخذ مرتبه من بيت المال ويدير شئون الولاية طبقا لاحكام دستور الدولة الاسلامية وهو القرآن ويلتزم بتطبيق سنن الرسول صلى الله عليه وسلم واذا لم يعين الخليفة ممثل له على بيت مال الولاية ، فانه يدخل فى اختصاص الوالى الاشراف على جباية موارد الولاية وهى الجزية والخراج وعشور التجارة ينفق منها على شئون الولاية ، والفائض يرسله الى بيت مال المسلمين فى المدينة ، أما الزكاة التى تحصل من أغنياء الولاية فكانت تصرف على فقرائهم .

- فمن ذلك يبين أهمية اختيار الولاية فهم ينوبون عن الخليفة فى ادارة الولاية ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يثق فى اختيارهم ، فقد طلب منه الصحابى أبو ذر الامارة فلم يوافق على ذلك موضعا له ثقل عبثها وثقل حسابها فى الآخرة ولم يعين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أحدا من أقاربه لما قد ينتج عن ذلك من اغترار الولاية من أقاربه بأنفسهم أو افتتان المسلمين بهم ، ما عدا على بن أبى طالب وقد سبق أن ذكرنا مناقبه .

واتبع عمر بن الخطاب سنة الرسول فكان كما سبق أن ذكرنا يثق فى اختيار الولاية ، يطلب من الصحابة أن يدلوه على من تتوفر فيه المواصفات التى يريدها مطبقا فى ذلك مبدأ المشورة فاذا استقر رأيه على اختيار شخص معين للولاية أحصى أمواله قبل ولايته وفى نهاية ولايته يرد ما زاد مما تحيطه الشكوك الى بيت مال المسلمين ، وضمانا لاستقرار الحكم أوصى الخليفة بعده بعدم تغيير من ولاهم الا بعد سنة حتى يضمن للدولة الاسلامية الاستقرار وعدم زعزعة الحكم نتيجة تغيير الخليفة وتغيير الولايات فى وقت واحد .

- عمل عثمان بن عفان بوصية عمر فقد أقر الولاية فى ولاياتهم

ونم يعزل أحدا منهم ولكن بمرور الوقت بدل وغير فيهم . وكان بعض من ولاهم عثمان محل نقد لأنهم من أقاربه ، وناقش فيما يلى حالات من ولاهم من أقاربه .

عزل عثمان لعمر بن العاص وتعيين عبد الله بن أبي سرح :

كان عمرو بن العاص واليا على مصر منذ أن فتحها فى عهد عمر بن الخطاب ولكن عثمان بن عفان أعاد تنظيم اختصاصات الولاية فجعل عمرو بن العاص واليا على الحرب واختار عبد الله بن أبي سرح واليا على الخراج . وكان عبد الله بن أبي سرح أخا للخليفة من الرضاعة وأبلى بلاء حسنا فى معركة ذات السوارى البحرية التى وقعت بين المسلمين والروم فى الاسكندرية ومن بواعث عثمان بن عفان لتقسيم الاختصاصات هبوط الخراج الذى كان يرسله عمرو بن العاص لبيت المال ، ومما يسانه هذا رأى أن عمر بن الخطاب نفسه وجه نقدا إبان عهده لعمر بن العاص بشأن هبوط خراج مصر ، وقد بعث إلى مصر محمد بن مسلمة يقاسمه ماله (١) .

ويذكر المؤرخون أن الخلاف قد ثار بين عمرو وابن أبي سرح فاعتبر عمرو بن العاص أن تعيين ابن أبي سرح وتقلده أمور المال العام فى مصر سلبا لاختصاصه فقال :

« أنا اذا كسك البقرة بقربها وآخر يحلبها ٠٠٠ »

وثار الخلاف بينهما كما سبق أن ذكرنا فعزل عثمان عمرا وجمع لعبد الله بن مسعود بن أبي سرح خراج مصر وحربها معا .

واذا كنا نناقش السياسة المالية لعثمان بن عفان فانه يتصل بهذه السياسة أن يختار الولاة وهم المشرفون على جباية الخراج اختيارا موقفا - فهل وفق عثمان بن عفان رضى الله عنه فى اختيار ابن أبي سرح ؟

نقول ذلك لما يراه المعارضون من أن هذا الاختيار كان باعته الاخوة فى الرضاعة خصوصا وأن لابن أبي سرح موقفا أيام الرسول صلى الله عليه وسلم " فبعد أن فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عفا عن قريش كافة الا جماعة عينهم بأسمائهم ارتكبوا جرائم عظمى فلم يكن لهم فى العفو العام متسع " وهؤلاء أمر بقتلهم ، وإن وجدوا تحت ستار الكعبة . وكان من هؤلاء عبد الله بن مسعود بن أبي سرح ، فقد كان أسلم وكان

(١) عثمان بن عفان - ، محمد حسين خيل ، ص ٦٤ .

يكتب الوحي لرسول الله ثم ارتد مشركا الى قريش وزعم أنه كان يزيف ما يكتب من الوحي وعرف ابن أبي سرح أمر رسول الله بقتله ، ففر الى عثمان فطيبه حتى اطمأن الناس بمكة ثم ذهب به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأمن له .

ويقول ابن هشام في السيرة : « فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صمت طويلا ثم قال : نعم » .

فلما انصرف عنه عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله من أصحابه : لقد صمت ليتقدم اليه بعضكم فيضرب عنقه فقال رجل من الأنصار : « هلا أومأت الى يا رسول الله ؟ » قال : « ان النبي لا يقتل بالإشارة » (١) .

ونحن نقول ومن يدري لعل الله قد تاب على ابن أبي سرح ، فقد استجاب الرسول صلى الله عليه وسلم لاستئذان عثمان وجاهد ابن أبي سرح فيما بعد الروم وأبلى في سبيل الله بلاء حسنا ، ثم الذي ذكرناه فيما سبق من أن خراج مصر قد نما وزاد في عهده ، مما جعل الخليفة عثمان رضى الله عنه يعير عمرو بن العاص بذلك على النحو الذي ذكرناه .

والله تعالى يقول :

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم » (الزمر / ٥٣) .
كل ذلك يضعف عند الناقلين لعثمان بن عفان بسبب تعيينه ابن أبي سرح على ولاية مصر .

تعيين عثمان بن عفان سعد بن أبي وقاص على الكوفة ثم عزله وولى الوليد بن عقبة .

— ولى عثمان سعد بن أبي وقاص على الكوفة عن وصية من عمر ابن الخطاب ولكنه عزله بعد عام وبعض عام وقد اضطر الى عزله بسبب خلاف نشأ بينه وبين عبد الله بن مسعود وكان على بيت المال .

— استقرض سعد بن أبي وقاص وكان والى الكوفة مالا من بيت المال من عبد الله بن مسعود فأقرضه ، فلما طلب منه الدين حينما حل أجله لم يتيسر له ذلك ، فاستعان عبد الله بن أناس على استخراج

(١) عثمان بن عفان ، محمد حسين ميكل ، ص ٤٦ .

المال واستعان سعد بن أبي وقاص بأناس على انتظاره ، فدارت بينهما المناقشة التالية وكان معهما هاشم بن عتبة ابن أخي سعد .

ابن مسعود : أد المال الذى قبلك .

سعد بن أبي وقاص : ما أراك الا ستلقى شرا ، هل أنت الا ابن مسعود ، عبد من هذيل .

ابن مسعود : أجل والله انى لابن مسعود وانك لابن حينة .

هاشم : أجل والله انكما لصاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر اليكما .

فرفع سعد يديه وقال : اللهم رب السموات والأرض .

ابن مسعود : ويلك . قل خيرا ولا تلعن .

سعد : أما والله لولا اتقاء الله لدعوت عليك دعوة لا تخطئك .

فولى عبد الله بن مسعود سريعا حتى خرج .

ولما بلغ عثمان بن عفان ما كان بينهما غضب عليهما ثم عزل سعد وأخذ ما عليه لبيت المال وأقر عبد الله بن مسعود وعين بدل سعد الوليد ابن عقبة (١) .

— والوليد بن عقبة الذى خلف سعدا أموى وهو أخو عثمان لأمه ، أسلم يوم الفتح ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن أن قوله عز وجل :

« ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » (الحجرات - ٦) .

أنزلت فى الوليد بن عقبة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الوليد مصدقا الى بنى المصطلق فعاد وأخبر عنهم أنهم ارتدوا ومنعوا الصدقة وذلك أنهم خرجوا اليه يتلقونه فهاهم فانصرف عنهم ، فبعث الرسول صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فأخبروه أنهم متمسكون بالاسلام فنزلت الآية السابقة (١) .

ويذكر التاريخ أنه فى عهد الوليد بن عقبة عم الرخاء الكوفة . ولكن بعض أهل الكوفة كادوا له لانه أقام الحد على واحد منهم قتل آخر ، واتهموه لدى الخليفة بأنه يشرب الخمر فأقام الخليفة عليه الحد وعزله

(١) عثمان بن عفان ، ذو النورين ، محمد رضا ، ص ٣٩ .

(٢) الخلفاء الراشدون ، عبد القصور نصار وآخرين ، ص ١١٦ .

وعثمان بن عفان ذو النورين ، محمد رضا - طبعة ثانية - ص ٦٩ .

وولى بدله سعيد بن العاص ، فأسف الناس على عزل الوليد لشجاعته
وكثرة فتوحه وحسن سياسته الاقتصادية حتى لبست الأماء عليه
الحداد وقلن :

يا ويلتا قد عزل الوليد وجاء مجوعا . سعيد
ينقص في الصاع ولا يزيد مجوع الأماء والعبيد

وبعد ذلك عزل الخليفة سعيد بن العاص واختار بدله أبا موسى
الأشعري أميرا على الكوفة بناء على طلب أهلها .

— ومما سبق يبين أن الخليفة عثمان بن عفان عين سعيد بن أبي
وقاص بناء على وصية عمر وعزله بسبب خلاف على قرض اقترضه من
بيت المال وأن الوليد بن عقبة وإن كان أخو عثمان إلا أنه نجح في تحسين
الأحوال الاقتصادية في الكوفة حتى أسف الناس عليه أشد الأسف وأن
الخليفة أقام عليه الحد بالرغم من أنه أخوه في الرضاة وكان ما اتهم
به صادرا عن كيد بعض الناس له .

عزل عثمان أبي موسى الأشعري وتولية عبد الله بن عامر :

تولى أبو موسى الأشعري البصرة زمن عمر بن الخطاب والشرط
الأول من خلافة عثمان وولى بعده عبد الله بن عامر .

والأشعري هذا يمني وعرب البصرة من مضر ، لذلك كان عزله
عن البصرة نزولا على العصبية القبلية وولى عثمان بن عفان رضي الله
عنه عبد الله بن عامر وهو من قرابته ولكنه في نفس الوقت كان قد
انطلق في غزو بلاد خراسان حتى بلغ قريبا من الهند ولذلك لما حدثته
أصحابه بنعمة الله عليه قال لأجعلن شكرى لله على ذلك أن أحرم بالعمرة
حيث انتهيت ، فلما بلغ ذلك عثمان رضي الله عنه عمنه على صنيعه هذا
حيث أنه لم يلتزم ميقات أهل العراق الذي يحرمون منه بالحج
والعمرة (١) .

فللوالى الذى عينه عثمان بن عفان أمجاد فى نشر راية الاسلام وامتداد
دعوته واعلاء كلمة الله ، فلا تذهبن قرابته من عثمان بن عفان بهذه
الأمجاد اذا سنحت فرصة لقيامه بمهام الولاية ، خصوصا وأنه كان
بفتوحاته من العاملين على تمام الموارد العامة لبيت المال من خمس الغنائم
ومن الزكاة التى استحققت على من أسلم فى البلاد المفتوحة ومن الجزية

(١) الطبرى - الجزء الرابع - طبعة رابعة - ص ٣١٤ - طبعة دار المعارف .

والخراج ممن آثر الاحتفاظ بدينه من أهل الكتاب ومن عشور التجارة
التي تنمو وتزيد عادة كلما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية .

ولاية معاوية ابن أبي سفيان بالشام في عهد عمر وعثمان :

وكان بالشام أيضا قريب لعثمان بن عفان وهو معاوية بن أبي سفيان
وهو من بني العمومة للخليفة ، ولكنه كان منذ عهد عمر أميرا عليها
بولايتها كلها ، وكان ذا دهاء وحزم يستخدم السياسة مع أهل الشام
وكانت الشام نصفين بينه وبين أخيه يزيد ، فلما مات يزيد أفرده عثمان
فكان معاوية يقول :

« أنى لأضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث
يكفيني لساني ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » .

فقليل له : كيف ذلك ؟

قال : كنت اذا مدوها أرخيتها واذا أرخوها مددتها ...

ولهذا لم يشارك أهل الشام فيما شارك فيه أهل الأمصار
الأخرى في الفتنة (١) .

نجاح بعض ذوى القربى من ولاية عثمان في ادارة السياسة المالية بالولايات:
ومن ناحية السياسة المالية فان تعيينات عثمان السابقة تساند كفاءة
ادارة السياسة المالية وذلك للأسباب التالية :

— من أسباب عزل عثمان عمرو بن العاص نقص خراج مصر
في عهده .

— أثبت ابن أبي سرح كفاءته في ادارة المالية العامة بدليل زيادة
موارد الدولة من إيرادات خمس الغنائم والجزية والخراج من البلاد
المفتوحة .

— عزل عثمان سعد بن أبي وقاص من ولاية الكوفة بسبب قرض
اقترضه من بيت المال المسلمين وكان استرداده محل خلاف بينه وبين
عبد الله بن مسعود القائم وقتئذ على بيت المسلمين ورد القروض من بيت
المال اليه أمر تستوجبه الادارة المالية الرشيدة .

— عين عثمان على الكوفة الوليد بن عقبة وقد حقق الرخاء

(١) مع الخلفاء الراشدين ، عبد الحاق أبو رابطة ، ص ٩٢ .

والاستقرار المالى والاقتصادى حتى أن شعب الكوفة لبس عليه الحداد لعزله ، فضلا عما درته فتوحاته على بيت مال المسلمين من موارد •

- ولى على البصرة عبد الله بن عامر وهو كعب بن عبد الله ابن أبى سرح والوليد بن عقبة ساهمت فتوحاته فى تنمية موارد بيت المال •

- لاشك أن استقرار الأحوال بالشام فى عهد عثمان كان له أثره فى استقرار الأوضاع المالية العامة بالشام وازدهارها •

- بصفة عامة فان ادارة الفتوحات وتحقيق النصر فيها اكسب القيادات التى عينها عثمان خبرات فى الادارة تساند ادارة المالية العامة •

الرأى فى تعيينات عثمان لذوى قرياء على بعض الولايات :

ومن هذا يتبين بصفة عامة أن تعيين عثمان بعض الولاة من أقربائه لم يكن يبرر شدة النقد الذى وجه اليه فى هذا الشأن غير أننا نشترط لافقرار مثل هذا المبدأ أن يكون الأقرباء من ذوى الكفايات وأن تكون الفرصة متاحة للجميع ليتم اختيار الأكفأ والأصلح ، وأن لا يكون ذلك مؤديا الى ازدياد أجورهم من بيت المال دون مبرر ولا يحملون أنفسهم على رقاب الناس ، خصوصا وأنه كان بالمجتمع تنافس قبل بين الهاشميين والأمويين كما ذكرنا يجعل استعلاء الحكام والولاة من بنى أمية يثير الكثير من المعارضة والسخط بين الهاشميين وغيرهم من أعضاء المجتمع •

ولعل مما حدا بعثمان بن عفان أيضا الى ايثار ذوى قرياء ببعض المناصب كبر سنه وشيخوخته وثقته فى أولى قرياء ليساندوه ليستقر حكمه ويزدهر عهده •

وجهة نظر عثمان بن عفان فى تعيين بعض ذوى قرياء :

قال عثمان فى اجتماعه مع الصحابة :

وقالوا : استعملت الأحداث (وكان أحد ولاته وهو أسامة من أقربائه صغير السن) ولم استعمل الا مجتمعا محتملا مرضيا وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده ، ولقد ولى من قبل أحدث منهم •

وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل فى استعمال أسامة آنذاك ؟

قالوا : اللهم نعم(١) .

وجهة نظر أحد المؤرخين مؤيدة لعثمان في تعيين الولاة من اقاربه :

يناقش أحد المؤرخين عزل عثمان لبعض الصحابة وتعيينه اقاربه ويبدى وجهة نظره مؤيدة بما أوردته من وقائع وذلك على النحو التالي :

- أما عمرو بن العاص فانما عزله (أى عثمان) لأن أهل مصر أكثروا شكايته وكان عمر قبل ذلك عزله لشيء بلغه عنه ثم لما ظهرت توبته رده ، كذلك عزله عثمان لشكاية رعيته .

وأما تولية عبد الله فمن حسن النظر عنده لأنه تاب وأصلح عمله ، وكانت له فيما ولاء آثار محمودة ، فانه فتح من تلك النواحي طائفة كبيرة حتى انتهى في أغارته الى الجزائر التي في بحر الغرب وحصل في فتوجه ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار سوى ما غنمه من صنوف الأموال وبعث الخمس منها الى عثمان وفرق الباقي في جنده وكان في جنده جماعة من الصحابة ومن أولادهم « كمقبة بن عامر الجهنين وعبد الرحمن ابن أبى بكر وعبد الله بن عمرو بن العاص قاتلوا تحت رايته وأدوا طاعته ووجدوه أقدر على سياسة الامر من عمرو بن العاص ثم أبان عن حسن رأى فى نفسه عند وقوع الفتنة » فانه حين قتل عثمان اعتزل الفريقين ولم يشهد مشهدا يقاتل أحدا بعد قتال المشركين .

- أما عزل عثمان لأبى موسى عن البصرة فكان عذره فى عزله أوضح من أن يذكر فانه لو لم يعزله اضطربت البصرة والكوفة وأعمالهما للاختلاف الواقع بين جند البلدين .

وقصته أنه كتب الى عمر فى أيامه يسأله المدد فأمد به بجند الكوفة ، فأمرهم أبو موسى قبل قدومهم عليه برامهر مز فذهبوا اليها وفتحوها وسبوا نساءها وذرائها فحمدهم على ذلك .

وكرر نسبة الفتح الى جند الكوفة دون جند البصرة فقال لهم أنى كنت أعطيتهم الأمان وأجلتهم سنة أكثر فردوا عليهم (٢) ، وكتبوا الى عمر فكتب عمر الى صلحاء جند أبى موسى مثل البراء وحذيفة وعمران بن حصين وأنس بن مالك وسعيد بن عمرو الانصارى وأمثالهم وأمرهم أن يستحلفوا أبا موسى فان حلف أنه أعطاهم الأمان وأجلهم ردوا عليهم .

(١) الطبرى - جزء ٤ - ص ٣٤٧ .

(٢) أى ردوا السبي والغنائم .

فاستحلفوه فحلف ورد السبى عليهم وانتظر لهم. أجلهم وبقى الجند حانقين على أبى موسى .

ثم رفع أمر أبى موسى الى عمر وقيل له لو أعطاهم الأمان لعلم ذلك فأشخصه عمر وسأله عن يمينه فقال ما حلفت الا على حق .

قال عمر : فلما أمرت الجند حتى فعلوا ما فعلوا وقد كلنا أمرك فى يمينك الى الله تعالى ، فارجع الى عملك فليس نجد الان من يقوم مقامك ولعلنا ان وجدنا من يكفينا عملك وليناه .

فلما مضى عمر لسبيلة وولى عثمان شكاً جند البصرة شح أبى موسى وشكاً جند الكوفة ما تقوموا عليه ، فخشى عثمان ممالة الفريقين على أبى موسى فعزله عن البصرة .

وولاه اكرم الفتيان عبد الله بن عامر بن كريز وكان من سادات قريش وهو الذى سقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ريقة حين حمل اليه طفلاً فى مهبه .

وهكذا يمضى المؤرخ (١) فى تفنيد الانتقادات الموجهة الى عزل عثمان للصحابة وتولية ذوى قرباه ويناقش الموضوع بصفة عامة فيقول :

« على أذا نقول ما زال ولاية الأمر قبل عثمان وبعده يعزلون من أعمالهم من رأوا عزله ويولون من رأوا توليته بحسب ما تقتضيه أظانهم . عزل عمر خالد بن الوليد عن الشام وولى أبا عبيدة ، وعزل عماراً عن الكوفة وولاه المغيرة بن شعبه ، وعزل على قيس بن سعد عن مصر وولاه الأشر النخعي » .

وجهة نظر أخرى لكاتب من الكتاب (٢) المؤيد لعثمان فى تعيين الولاية من أقاربه :

« وكل ما نقومه عليه (يعنى على عثمان) أمور لا حرج على الامام فعلها منها تولية أقاربه وليس فى هذا أدنى عيب لأن رسول الله عليه صلى الله عليه وسلم ولى علياً وهو ابن عمه . ولو كانت تولية القريب عيباً لنها عنها عليه السلام ولم يفعلها ومع ذلك فالاسلام سوى بين الناس لا قريب عنده ولا بعيد ، فالأمر موكل لرأى الامام الذى ألقىت

(١) المؤرخ هو أبو جعفر أحمد الشيرى بالمحب الطبرى - صاحب كتاب النصرة فى مناقب العشرة - ورت الإشارة اليه فى كتاب عثمان بن عفان ذو النورين ، ص ٢٢٣ وما بعدها .

(٢) كتاب « اتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء » ، محمد الحففى - ورد فى كتاب عثمان ابن عفان ذو النورين - ص ٢٣٤ .

اليه مقاليد الأمة ، فان ولى من حاد عن الدين شكونا اليه فان لم يقبل صبرنا كما أمر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لان شق عصا الطاعة من مصائب الأمم التي تسرع اليها الخراب وليس في الشرع ما يبيح خلع الامام الا كفره الصراح ، *

أسماء عمال عثمان رضى الله عنه على البلدان فى نهاية حكمه (١) :

ومما يجدر التنويه عنه أن عثمان لم يعين أقربائه على كل الولايات بل على البعض منها *

وفيما يلى أسماء عمال عثمان على الأمصار فى نهاية حكمه :

عبد الله بن الحضرمي	على مكة
القاسم بن ربيعة الثقفي	على الطائف
يعلى بن منيه	على صنعاء
عبد الله بن أبى ربيعة	على الجند
عبد الله بن عامر بن كريز	على البصرة (٢)
سعيد بن العاص	على الكوفة (٣)
عبد الله بن سعد بن أبى سرح	على مصر (٤)
معاوية بن أبى سفيان	على الشام
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد	عامل معاوية على حمص
حبیب بن مسلمة	عامل معاوية على قنسرین
أبو الأعور بن سفيان	عامل معاوية على الأردن
علقمة بن حكيم الكنانى	عامل معاوية على فلسطين
عبد الله بن قيس الفزارى	عامل معاوية على البحر
أبو الدرداء	على القضاء
أبو موسى	على صلاة الكوفة

(١) الطبرى - مرجع سابق - ص ٤٢١ ، ٤٢٢ *

(٢) خرج منها فلم يول عليها عثمان أحدا *

(٣) اخرج منها فلم يترك يدخلها *

(٤) قدم على عثمان وقلب محمد بن أبى حذيفة عليها وكان عبد الله بن سعد استخلف

على مصر السائب بن هشام بن عمرو العامري فأخبره محمد بن أبى حذيفة *

جابر بن عمرو المزني	على خراج سواد الكوفة
وسماك الأنصاري	
القعقاع بن عمرو	على حرب الكوفة
جرير بن عبد الله	على قرقيساء
الأشعث بن قيس	على أذربيجان
هتيبة بن النحاس	على حلوان
مالك بن حبيب	على ماه
النسير	على همدان
سعيد بن قيس	على الرى
السائب بن الأقرع	على أصبهان
حبيش	على ماسدان
عقبة بن عمرو	على بيت المال
زيد بن ثابت	على قضاء عثمان

الاتفاق من بيت المال على مرتبات الجند :

وكان بيت المال يدفع مرتبات للجند علاوة على ما يحصلون عليه من نصيب في الفنائم على النحو الذى سبق أن أوضحناه وكان جند كل ولاية يحصلون على مرتباتهم من بيت مال الولاية فمثلا بالنسبة لجند مصر كتب عثمان بن عفان الى عبد الله بن سعد والى مصر الكتاب التالى لصرف مرتبات الجند المرابطين فى الاسكندرية :

« قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية وقد نقصت الروم مرتين » فالزم الاسكندرية رابطتها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم فى كل ستة أشهر » (١) .

عثمان بن عفان اول من رزق المؤذنين من بيت المال :

كان الأذان فى المساجد تطوعا منذ أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم بلال وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لم يؤذن بلال الا فى عهد عمر بن الخطاب وكان فى

(١) فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٢٤ .

بيت المقدس يوقع الصلح مع أهل ايلياء ، فلما حضرت الصلاة قال الناس :
لو أمرت بلالا فأذن ، فأمره فأذن (١) فأبكى الناس ، وظل الأذان في
عهد أبي بكر وعمر تطوعا وكان عثمان أول من رزق المؤذنين من بيت المال .

ومما يذكر في هذا الصدد أن عبده الله بن زيد بن عبد ربه الذي
أرى الأذان توفي في عهد عثمان بن عفان سنة ٣٢ وكانت رؤياه الأذان
في السنة الأولى من الهجرة بعدما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم
مسجده .

فقد قال عبده الله وقتئذ :

« لما أصبحنا أثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بالرؤيا » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه رؤيا حق . فقم مع بلال
فإنه أئدى صوتا منك ، فالتق عليه ما قيل لك وليناد بذلك .

فلما سمع عمر بن الخطاب نداء بلال بالصلاة خرج الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهو يجرح رداءه .

وهو يقول : يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي
قال .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فله الحمد فذاك أثبت (٢) .

نواة مرفق الشرطة بدأت في عهد عثمان بن عفان (٣) :

وأول من اتخذ صاحب شرطة في الاسلام عثمان بن عفان وكان
الاتفاق على مرفق الشرطة من بيت المال .

الطلاق العام على الحج من بيت المال :

حج عثمان بالناس سنواته كلها الا آخر حجة فقد كان محصورا في
بيته فأشرف عثمان على الناس .

فقال : يا عبده الله بن عباس ، اذهب فأنت على الموسم .

فقال : والله يا أمير المؤمنين لجهاد هؤلاء أحب الى من الحج . (أي
جهاد المحاصرين لعثمان) فأقسم عثمان عليه لينطلق .

فانطلق ابن عباس على الموسم تلك السنة .

(١) الطبرى - جزء ٤ - طبعة رابعة ، ص ٦٦ .

(٢) عثمان بن عفان ذو النورين ، محمد رضا ، ص ٢٦ ، ص ١١٤ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٦ .

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه يحج بأزواج الرسول صلى الله عليه وسلم كما كان يصنع عمر ، وكتب فى الأمصار أن يوافيه العمال فى كل موسم ومن يشكونهم وكتب الى الناس بالأمصار أن أتتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ولا يذل المؤمن نفسه فإنه مع الضعيف على القوى ما دام مظلوما ان شاء الله (١) .

وكان الاتفاق العام على الحج من بيت المال .

كسوة الكعبة فى عهد عثمان بن عفان من بيت المال :

كان العرب يكسون الكعبة فى الجاهلية الانطاع وهى بسط من الأديم أى الجلد وكساها رسول الله صلى الله عليه وسلم الثياب اليمانية ثم كساها عمر ومن بعده عثمان بن عفان القباطى وهو ثياب من كتان من نسيج مصر (٢) .

النفقات العامة الانشائية :

ذكرنا أنواعا من النفقات العامة الادارية التى تنفقها عادة الدول على ادارة الدولة غير أن الدول تنفق أيضا على أعمال طويلة الأجل أو لها طبيعة انشائية وفيما يلى أمثلة منها فى عهد عثمان .

— تجميع القرآن الكريم (٣) :

كان يحفظ القرآن فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم نفر من القراء وكان يكتبه بعض الناس مفرقا فى بعض الرقاع والحجارة والعظام .

وقد جمع أبو بكر القرآن من هذه الصحف وأودعها عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وفى عهد عثمان كان حذيفة بن اليمان يقوم على تثقيف المجاهدين فى الفتوح الاسلامية وكان يقرأ آيات الجهاد والغزوات كما سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغة قريش ، لكن المجاهدين وهم من قبائل مختلفة كانوا يقرأونه بلهجات قبائلهم وكان لكل قبيلة لهجة خاصة .

وفى الكوفة التى كانت تضم كثيرا من الأعراب اختلفت بينهم القراءات فالأعراب من أهل حمص والشام تعصبوا لقراءة المقداد بن الأسود .

(١) الطبرى ، ص ٣٨٢ ، ٣٩٧ .

(٢) عثمان ذو النورين ، محمد رضا ، ص ٢٣ .

(٣) يفضل البعض استخدام اصطلاح « توحيد رسم المصحف » بدلا من « تجميع

القرآن الكريم » والاصطلاح الأول أكثر دقة والثانى أكثر شيوعا .

• والأعراب من أهل البصرة تعصبوا لقراءة عبد الله بن مسعود .

• وأهل الكوفة تعصبوا لقراءة أبي موسى الأشعري .

وبالغ كل فريق في تفضيل قراءته ودب الخلاف بينهم وبلغ حد
كاد يكون فتنة .

• رجع حذيفة الى المدينة وذهب توا الى عثمان .

• فقال له : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك .

قال عثمان : في ماذا ؟

قال حذيفة : في كتاب الله اني حضرت الغزوة وقد صحبت ناسا
من العراق والشام والحجاز - ووصف له ما تقدم من خلاف - ثم أردف :
واني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتاباتهم كما اختلف اليهود والنصارى .

• جمع عثمان الناس يشاروهم في الامر فسألوه رأيه .

فقال : الرأي عندي أن يجتمع الناس على قراءة واحدة ، فانكم اذا
اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافا .

• وأقره على ذلك أهل الرأي .

أرسل عثمان الى أم المؤمنين حفصة لترسل اليه بهذه المصحف التي
جمع فيها القرآن ثم استدعى اليه كاتب الوحي زيد بن ثابت ومعه عبد الله
ابن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي وأمر عثمان زيد
ابن ثابت الأنصاري أن يكتب المصحف ويملى عليه سعيد بن العاص
الاموي وأمرهم اذا اختلفوا في شيء أن يكتبوه بلفظ قریش التي نزل
القرآن بلسانهم ، فلما أتموا كتابته على قراءة واحدة من عدة نسخ أمر
عثمان باعادة المصحف الى أم المؤمنين حفصة ثم أرسل الى كل جهة نسخة
من هذه النسخ ثم أمر بأن يحرق كل ما سوى ذلك من المصاحف .

اعترض عبد الله بن مسعود وآخرون على حمل الناس على مصحف
واحد وقد كان ابن مسعود من أحفظ الناس للقرآن وهو كما كان يقول
قد أخذ من فم النبي سبعين سورة من القرآن ولم يكن زيد بن ثابت
قد بلغ الحلم بعد ، كما قال المعترضون : أن النبي صلى الله عليه وسلم
أوضح أن القرآن نزل على سبعة أحرف كلها كاف شاف . واحتجوا بأن
عثمان حينما حرق ما حرق من المصاحف الأخرى انما حرق مصحفا كانت
تشتمل على قرآن أخذه المسلمون عن رسول الله وما ينبغي للامام أن يلغى
من القرآن حرفا أو يحرق من نصوصه نصا .

ولا شك أن جمع القرآن من الأعمال العظيمة التي نسبت لعثمان ولولا هذا الجمع لاختلقت القراءات ، ولكن الله حافظ له فيقول جل وعلا :
« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (الحجر / ٩) .

أما قول الرسول صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن على سبعة أحرف فهي ما يعرف بالقراءات السبع .

ويكفي أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال حينما سألته الناس في ذلك « لو لم يصنعه هو لصنعه » ووقف على الناس فقال :

« أيها الناس ، اياكم والخلو في عثمان تقولون حرق المصاحف والله ما حرقها الا عن ملأ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو وليت مثل ما ولى لفعلت مثل ما فعل » (١) .

ويرد عثمان بن عفان على منتقديه في هذا الشأن فيقول في اجتماعه مع الصحابة ، وقالوا : كان القرآن كتباً فتركتها الا واحدا ، الا وان القرآن واحد وجاء من عند واحد ، وانما أنا في ذلك تابع لهؤلاء .

وقال مخاطباً الصحابة : أكذلك .

قالوا : نعم .

ويعلق أحد الكتاب المحدثين (٢) على هذا العمل العظيم فيقول :

« عمل من أخلق الأعمال أن يوصف بأنه « عمل عثمان » في الاقدام عليه وفي أثره وهذا العمل في اختلاف تقديره وأثره « مثال من أعمال عثمان كافة ، اذ كان معدوداً من أكبر السيئات ، ولم يبق لعثمان حسنة أعظم منه في تاريخ الاسلام » .

ويعلق آخر (٣) على هذا العمل فيقول :

« وهكذا أعطى « عثمان » عزمه الرشيد لمسئوليياته الجسام « وملاً بصدقه وباقتداره فراغاً كان يمكن أن يتحول الى هوة فاغرة تشد الى قيعانها الفائرة البعيدة كثيراً من مقدرات الدين ومصائر المسلمين » .

وقد تم جمع القرآن بمعرفة الصحابة تطوعاً لله تعالى وابتغاء ثوابه جل وعلا ومثل هذا العمل العظيم في الماليات العامة الحديثة يتقاضى عنه من يؤدونه أجراً كبيراً من الدولة .

(١) مقتبس من المراجع التالية :

عثمان بن عفان ، محمد حسين هيكل ، ص ١٠٩ ، ١١٠ .

الخلفاء الراشدون ، عبد المقصود نصار وآخرون ، ص ١٠٨ ، ١١١ .

مع الخلفاء الراشدين ، عبد الحاق أبو رابية ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) عثمان بن عفان ذو النورين ، عباس العقاد ، ص ١٥٩ .

(٣) وداعاً عثمان ، خالد محمد خالد ، ص ٨٦ .

تمويل إعادة بناء المسجد النبوي من بيت المال :

كلم الناس عثمان بن عفان أول ما تولى الخلافة أن يزيد في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم اذ كان يضيق بالناس في صلاة الجمعة بسبب امتداد الفتح وزيادة سكان المدينة زيادة عظيمة .

استشار عثمان أهل الرأي فأجمعوا على هدم المسجد وبنائه وتوسيعه فصلى عثمان الظهر بالناس ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس اني قد أردت أن أهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزيد فيه وأشهد اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من بنى مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة » وقد كان لي فيه سلف وامام سبقني وتقدمني عمر بن الخطاب كان قد زاد فيه وبناه وقد شاورت أهل الرأي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجمعوا على هدمه وبنائه وتوسيعه » .

فحسن الناس يومئذ ذلك ودعوا له ، فأصبح فدعا العمال وباشروا ذلك بنفسه (١) .

وقد بنى الرسول صلى الله عليه وسلم المسجد يوم أن وصل الى المدينة بعد هجرته من مكة وكانت أرضاً لغلامين يتيمين من بني النجار وهما سهل وسهيل وقد سألهما الرسول عن ثمن أرضهما ليبني عليهما مسجده فعرضا على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يهبها الأرض للمسلمين ابتغاء ثواب الله عز وجل ولكن الرسول حدد ثمن الأرض بعشرة دنانير دفعها أبو بكر الصديق رضي الله عنه من ماله .

وبدأ بناء المسجد « وعنده وضع الأساس حمل الرسول عليه الصلاة والسلام حجراً كبيراً والتصق الغبار بصدرة الشريف وأراد أصحابه أن يمنعوه ولكن الرسول وضع الحجر في موضعه ، وأمر أبا بكر أن يضع حجراً آخر الى جانبه وأن يضع عمر بن الخطاب حجراً ثالثاً الى جانب حجر أبي بكر ، وتوالى المسلمون حتى تم بناء المسجد وكانت جدران من اللبن وسقفه من الجريد وعمده من خشب النخل ، ولما فتح المسلمون خيبر وخلصت المدينة للمسلمين وزاد عددهم زاد النبي صلى الله عليه وسلم في رقعة المسجد مائة متر مربع أو أكثر . لكنه لم يغير من عمارةه باللبن والجريد وجذوع النخل شيئاً .

(١) عثمان ذو النورين ، محمد رضا ، ص ٢٢ .

وفى عهد أبى بكر نخرت سوارى المسجد فبنها .

ولما زاد المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب زاد عمر فى رقعة المسجد ولكنه لم يغير من عمارته ففقد بنى الجدر كما بناها رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل الأساس من الحجارة وما فوقه من اللبن وجعل عمده من الخشب والسقف من الجريد واتخذ إلى جانبه مكانا سمي البطحاء ، وأمر من أراد أن يلفظ أو يرفع صوتا أن يخرج إليه حتى يكون المسجد خالصا للعبادة منزها عن لغو الحديث ومناقشات أمور الدنيا .

فلما بنى عثمان المسجد زاد فى رقعته زيادة كبيرة وطور عمارته فبنى جدره كلها بالحجارة المنقوشة وجعل عمده من حجارة منقورة أدخل فيها بعض الحديد وصب فيها الرصاص ونقشها من خارجها وجعل سقفه من الساج ، فخلع ذلك على المسجد بعض البهلاء وقرغ منه حين دخلت السنة لهلل المحرم سنة ٣٠ هـ وكان عمله عشرة أشهر .

انتقد بعض أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم عثمان ما فعل واعتبروا أنه قد خالف سنة الرسول وسنة الخليفتين من بعده لأنه طور عمارة المسجد وزينه .

ومن رأينا أن عثمان بن عفان رضى الله عنه لم يخالف سنة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه ان كان قد أضفى بعض الرواء على المسجد فما خالف بذلك نصا أو حكما ، فالله جل وعلا أباح الزينة الحلال وقد سبق أن أوردنا آيتها .

والحجارة والحديد والرصاص والساج التى استخدمها عثمان فى عمارة المسجد مما أخرجه الله لعباده ، ولا يعتبر ما لجأ إليه عثمان اسرافا فى الأموال العامة فلهذا المسجد رسالتان ، أنه مكان للعبادة يؤمه المسلمون للصلاة والعبادة وفى نفس الوقت كان المسجد مقرا للحكم يجتمع فيه الخليفة مع الولاة ويصدر اليهم قراراته وتعمد فيه مجالس المشورة ويستقبل فيه ممثلو الأمصار التى فتحت ، وقد اعتاد هؤلاء أن يروا مقار الحكم فى بلادهم على درجة عالية من الفخامة والبهاء ، فضلا عن أن التطور مستمر بمرور الأزمان والعصور ، والاسلام لا يعارض التطور الصالح ولا التقدم الذى لا يتناقى مع مبادئه وأحكامه ، ومن ناحية أخرى كانت المالية العامة أيام الرسول صلى الله عليه وسلم والخليفة أبو بكر من بعده قليلة الموارد ، أما وقد زادت هذه الموارد أيام عمر وعثمان فلا بأس من أن يصاحب ذلك زيادة فى الاتفاق العام على مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو مسجد للعبادة ومقر للحكم كما أوضحنا ، وخير الاتفاق العام

كما ذكرنا ما كان وسطا لاتفل فيه الأيدي الى الأعناق ولا تبسط كل البسط وهذا هو ما فعله عثمان رضى الله عنه .

تمويل توسعة المسجد الحرام من بيت المال :

كانت الكعبة أيام الرسول صلى الله عليه وسلم قائمة وليس حولها الا فناء ضيق يصلى الناس فيه وظل المسجد كذلك فى خلافة أبى بكر وفى عهد عمر وسع المسجد فاشترى دورا حول الكعبة وهدمها وأدخلها فى بيت الله الحرام وأحاطها بجدار قصير وأدخل انارة المسجد ليلا . وذلك لأن المسجد كان قد ضاق بالحجاج الذين يأتون لأداء فريضة الحج بعد أن امتدت فتوحات الاسلام ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، فلما ضاق المسجد ثانية فى عهد عثمان بن عفان احتذى بمثل عمر وأضاف الى الكعبة دورا اشترها وأحاطها بجدار قصير لا يرتفع الى قمة الرجل كما فعل عمر من قبل . ولعل ما دعا عثمان الى الالتزام بعمارة المسجد كما كانت من قبل هو أن المسجد الحرام قاصر على العبادة فقط ولم يكن مقرا للحكم كالمسجد النبوى ولعله رأى أن ذلك أدعى للزهد والتقشف ليتناسب المكان مع ما يفرضه الحج من مناسك تجرد الحاج من الزينة وزخارف الحياة الدنيا .

وفى سبيل توسعته ابتاع الأرض من قوم وأبى آخرون فهدم عليهم ووضع الأثمان فى بيت المال فصيحوا بعثمان فأمر بهم بالحبس وقال : « أتدرون ما جراكم على ا ما أجراكم على الا حلمى ، قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به » ثم كلمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأخرجوا (١) .

انشاء مسجد الرحمة بالاسكندرية :

أوضحنا أنه كان من أسس النظام المالى للأمصار أن تجمع الجزية والحراج وعشور التجارة من أهل الاقليم ثم ينفق منها على الاقليم والفاوض يؤول لبيت المال فلما كان ينفق من الحراج فى مصر مثلا « حفر خليجها واقامة جسورها وبناء قناطرها » (٢) .

وفى عهد عثمان بن عفان أقام عمرو بن العاص مسجدا فى الاسكندرية يقال له مسجد الرحمة وسبى بذلك لرفع عمرو السيف مكانه بعد أن انتصر على الروم :

(١) تاريخ الطبرى ، لأبى جعفر محمد الطبرى - جزء ٤ - طبعة رابعة ، ص ٢٥١ .

(٢) فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٢٤ .

بناء مسجد في أصفخر :

فتح عبد الله بن عامر فارس ورجع الى البصرة واستعمل على اصفخر شريك بن الأعور الحارثي ، فبنى شريك مسجد أصفخر (١) .

الانفاق العام على انشاء أول أسطول بحري في الاسلام ونبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم بشأنه .:

ساهم بيت مال المسلمين في انشاء أول أسطول بحري في الاسلام في عهد الخليفة عثمان بن عفان وقد سبق أن أوضحنا مدى مساهمة هذا الأسطول في الفتوحات الاسلامية .

وبانشاء هذا الأسطول تحققت نبوءة قديمة للرسول صلى الله عليه وسلم ، ذلك أنه كان عليه السلام يقيّل يوماً في دار « عبادة بن الصامت » رضى الله عنه ، ونهض من نومه وهو يضحك .

فسألته زوجة عبادة وهي « أم حرام بنت ملحان » عما أضحكك .

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : ناس من أمتي عرضوا على يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرة .

فقلت : يا رسول الله أدع الله أن يجعلني منهم .

فقال لها الرسول عليه الصلاة والسلام : أنت منهم .

ونام الرسول ثانية ثم استيقظ وهو يضحك .

ويقول : ناس آخرون من أمتي عرضوا على يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسرة .

فقلت أم حرام : يا رسول الله أدع أن يجعلني منهم .

فأجابها الرسول : أنت من الأولين .

كانت هذه الواقعة دائمة بين الصحابة أيام كان الرسول صلى الله عليه وسلم معهم وكانوا ينتظرون تأويلها ويعجبون كيف يركبون البحر مثل الملوك على الأسرة - حتى جاءت غزوة قبرص التي نوهنا عنها وانصر المسلمون فكانوا فوق سفنهم الكبيرة الظافرة بالملوك فوق أسرهم وعروشهم ، وفي هذه الغزوة خرج مع الجيش « عبادة بن الصامت » ومعه زوجة « أم حرام بنت ملحان » رضى الله عنها فركبت البحر غير أنها ماتت

بعد معركة قبرص ودفنت هناك فلم تعش حتى تتركب البحر مع الآخرين فكانت فقط مع الأولين كما تنبأ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

الانفاق على تحويل الساحل من الشعبية الى جدة :

فى سنة ست وعشرين هجرية كلم أهل مكة عثمان رضى الله عنه أن يحول الساحل من الشعبية وهى ساحل مكة قديما فى الجاهلية الى ساحلها اليوم وهى جدة لقربها من مكة . فخرج عثمان الى جدة ورأى موضعها وأمر بتحويل الساحل اليها ودخل البحر واغتسل فيه وقال انه مبارك ، وقال لمن معه ادخلوا البحر للاغتسال ولا يدخل أحد بمئزر ثم خرج من جدة من طريق عسفان الى المدينة وترك الناس ساحل الشعبية فى ذلك الزمان واستمرت جدة بندرا الى الآن لمكة المشرفة (٢) .

بيت مال المسلمين يمول حفر الآبار لتشرب منها الرعية :

ومن الأعمال العامة التى مولها بيت مال المسلمين فى عهد عثمان حفر بئر للشرب بالمدينة ويسمى بئر أريس وهو على ميلين من المدينة وكان ذلك فى سنة ثلاثين هجرية ، وحدث أن قعد عثمان على رأس البئر وكان بأصبعه خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل عثمان يصبه بالخاتم ويديره بأصبعه ، فانسبل الخاتم من أصبعه فوقع فى البئر فطلبوه فى البئر ونزحوا ما فيها من الماء فلم يقدروا عليه فجعل فيه مالا عظيما لمن جاء به واغتم لذلك غما شديدا فلما يئس من العثور على الخاتم صنع خاتما آخر مثله من فضة على مثاله وشبهه ونقش عليه « محمد رسول الله » فجعله فى أصبعه حتى قتل فلما قتل ذهب الخاتم من يده فلم يدر من أخذه .

وقد صنع خاتم الرسول صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب الى الأعاجم كتابا يدعوهم الى الله عز وجل فقال له رجل : يا رسول الله انهم لا يقبلون كتابا الا مختوما فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعمل له خاتم من حديد فجعله فى أصبعه ، فأتاه جبريل فقال له « أنبئه من أصبعك » فأنبئه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبعه ، وأمر بخاتم آخر يصنع له فعمل له خاتم من نحاس فجعله فى أصبعه فقال له جبريل عليه السلام : أنبئه من أصبعك فأنبئه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبعه ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بخاتم من

(١) وداعا عثمان ، خالد محمد خالد ، ص ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) عثمان بن عفان ذو النورين ، محمد رضا ، ص ٢٤ .

ورق (١) فجعله في أصبعه فأقره جبريل ، وأمر أن ينقش عليه ■ محمد رسول الله ، وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر ، وقده ختم رسول الله به كتابا الى كسرى بن هرمز يدعوه للاسلام وبعثه مع عمر بن الخطاب وكتب كتابا آخر وبعثه مع دريحة بن خليفة الكلبي الى هرقل ملك الروم يدعوه للاسلام وظل الخاتم في أصبع رسول الله صلى الله عليه وسلم يختم به حتى قبضه الله عز وجل .

وانتقل بعده الى الخليفة أبي بكر الصديق حتى قبضه الله عز وجل . ثم ولى عمر بن الخطاب فجعل يختم به حتى قبضه الله عز وجل . ثم ولى من بعده عثمان بن عفان فختم به ست سنين ثم وقع في البئر (٢) .

الانفاق العام في عهد عثمان مول أهداف الاسلام العليا :

يتضح من دراسة النفقات العامة السابقة للموازنة العامة أنها ساهمت في تمويل الأهداف العليا للدولة الاسلامية فضلا عن الانفاق العام على ادارة الدولة ومصالح الرعية تم الانفاق العام على نشر الاسلام كي تكون كلمة الله هي العليا وتم تمويل انشاء أول أسطول بحري للدولة الاسلامية كما تم تعمير بيوت الله بالانفاق على اقامة المساجد وتجديدها ورزق المؤذنين كما تم الصرف على رحلة مباركة يقودها الخليفة نفسه ويشترك فيها الكثير من المسلمين وهي رحلة الحج الى بيت الله الحرام وكسوة الكعبة وهي قبله الاسلام والمسلمين ولاها الله جل وعلا رسوله محمد عليه الصلاة والسلام فارتضاها ، كما أن بيت مال المسلمين قدم أمواله لحفر الآبار ليشرب منها الفادي والرائح من مواطني الدولة الاسلامية .

وبجانب نفقات الموازنة العامة ساهم الانفاق العام من موازنات الزكاة والضوائع وخمس الغنائم في تمويل شرائح المجتمع الضعيفة في الدولة الاسلامية وهم الفقراء والمساكين واليتامى وفي تكريم الغرباء أبناء السبيل وفي فك الرقاب .

(١) الورق : الفضة مضروبة كانت أم غير مضروبة جميعها أوراق وورق - قد سبق ان اوضحنا ذلك .

(٢) الطبري - ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

الباب الرابع

**توازن مالي واهتزاز التوازن الاجتماعي
في عهد عثمان بن عفان**

الفصل الأول

تحقيق فائض للمالية العامة الإسلامية

واستمرار نظام الأعطيات في عهد عثمان

استمرار نظام الأعطيات في عهد عثمان بن عفان :

استمر نظام الأعطيات في عهد عثمان بن عفان كما كان في عهد عمر بن الخطاب وهذا يدل على أن المالية العامة في عهده قد توازنت وحقت فائضا ماليا مكن الدولة الإسلامية من توزيع الأعطيات ، وقد ساهم في تحقيق هذا الفائض نصر المسلمين في الفتوحات الإسلامية التي استمرت في عهد الخليفة عثمان وأسفر النصر عن غنائم كثيرة آل خمسها الى بيت مال المسلمين وعن استحقاق الزكاة على من أسلم والجزية على من لم يسلم من أهل الكتاب من مواطني البلاد المفتوحة ، خصوصا وأن هذه الفتوحات في النظام المالي الإسلامي لا تلقى على بيت المال أعباء جساما كما هو الشأن في الحروب الحديثة لأن الفتوحات الإسلامية تعتمد أساسا في تمويلها على مبعث الجهاد في الإسلام وتطوع المسلمين بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله مما يخفف العبء عن كاهل بيت مال المسلمين في تمويل هذه الفتوح .

ومما يؤكد تحقيق الفائض أن الخليفة عثمان بن عفان ذكر في إحدى كلماته أن ببيت مال المسلمين فضلة من الأموال والفضلة تقابل الفائض من مصطلحات المالية العامة الحديثة -

ولا يتناقض مع هذا الرأي ما تم في عهد عثمان بن عفان من اقتراضه من موازنة الزكاة لينفق على الحرب وعلى المصالح العامة ، لأن ذلك ان حلت في سنة ما لم يتكرر في باقي سنوات حكمه . ولأن الإيرادات العامة التي تحققت نتيجة الفتوح كفيلا بتغطية هذا القرض ولأن الفائض يتحقق من زيادة إيرادات جميع الموازنات العامة في سنة مالية على جميع نفقاتها العامة ، فإذا كان في إحدى هذه الموازنات عجز عوضه وغطاه فائض الموازنات الأخرى ويتحقق في النهاية الفائض الصافي -

الاتجاه السياسي للعطاء :

وان كان نظام الاعطيات استمر في عهد عثمان كما كان في عهد عمر من حيث أساس توزيعه ، الا أنه اتجه في بعض حالاته وجهة سياسية وذلك كما يبين مما يلي .

زيادة العطاء في عهد عثمان بن عفان :

يذكر الطبرى أن أول خليفة زاد الناس في أعطياتهم هاتة عثمان ولعل مبعث هذا الاجراء من الخليفة عثمان رضى الله عنه هو استمالة الرعية نحو عهده غداة ولى الخلافة وحتى يستبشر الناس بذلك العهد .

ولا غشاضة على الحاكم أن يفعل ذلك اذا كان ذلك مما تحتمله مالية الدولة ، وكان نظام العطاء نفسه رشيداً في غير حاجة لتعديل أسسه ولكن قبيل عهد عثمان وفي حياة عمر بن الخطاب نوى كما سبق أن أوضحنا أن يجعل الناس في العطاء إيماناً واحداً لما لاحظ من زيادة الغنى لدى أصحاب العطاء الأعلى وبعد الشقة بينهم وبين أصحاب العطاء الأقل فزيادته في عهد عثمان بن عفان في ظل أسس النظام السابق أروى الأغنياء من الرعية وقد يكون أروى الفقراء بعض الشيء لما نالوه من زيادة في عطائهم ولكنه وسع ما بين الطبقتين من فروق مالية .

كاتب يذكر أن زيادة العطاء لم يكن لغرض سياسي :

وهناك رأى يرى أن زيادة عثمان العطاء لم يكن لغرض سياسي وإنما فعلها لأنه كان يعتقد صواب هذه الزيادة فيقول :

« فأما الرزق الحلال فقد فرض لأصحابه ضعف ما كانوا يأخذونه من الأعطية يوم تولى الخلافة ، ولم يفعلها سياسة بل فعلها إيماناً بالصواب في هذه الزيادة وقد كان هو في عهد الفاروق أول من قال بكثرة المال وأشار عليه برصد الأسماء وتوفية كل ذى حق حقه من العطاء خشية النسيان والتكرار » (١) .

السبب نقصان اتفاق العطاء كانت من أسباب الإثارة في الكوفة :

ومن أمثلة الاتجاه السياسي للعطاء ما أشاعه أحد الناقمين على حكم عثمان من أن واليه على الكوفة سعيد بن العاص يعمل لدى عثمان على

(١) عثمان بن عفان ذو النورين ، عباس المقاد ، ص ١٥٢ .

نقصان العطاء ، فوقف أحد هؤلاء الناقمين فى يوم الجمعة على باب المسجد يقول :

أيها الناس ، انى لله جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان وتركتم سعيدا يريله على نقصان نساتكم الى مائة درهم ، ورد أهل البلاء منكم الى الفين ويزعم أن فيثكم بستان قریش ، وقد سايرته مرحلة ، فما زال يرجز بذلك حتى فارقتة يقول :

« ويل لأشراف النساء منى صمصح (١) كأننى من جن » فاستخف الناس وكانت نفجة (٢) وجعل أهل الحجى ينهونه فلا يسمع منهم (٣) .

عثمان عزم على تحريم انفاق الأعطيات للعصاة ليؤدبهم :

ومن أمثلة الاتجاه السياسى للعطاء أيضا اتخاذ الحرمان من العطاء كوسيلة لتأديب العصاة .

فبعد اجتماع عثمان مع ولاته لبحث أمر الناقمين على حكمه ردهم الى أعمالهم وأمرهم بالتضييق على من قبلهم وأمرهم بتجسير (٤) الناس فى البعوث وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا اليه (٥) .

غضب أم المؤمنين عائشة على عثمان لأنه أنقص عطاءها :

ومن أمثلة الاتجاه السياسى للعطاء كذلك ما ذكره بعض المؤرخين أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها غضبت على عثمان « يوما لأنه أنقص عطاءها ، فتربصت به حتى رآته يخطب فى الناس ، فدللت قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم ونادت « يامعشر المسلمين ، هذا جلباب رسول الله لم يبل ، وقد أبلى عثمان سنته » (٦) .

الاستجابة لنصر عثمان بسبب عطاءه :

ومن أمثلة أثر العطاء فى الاتجاه السياسى ما يذكره الطبرى من أن عثمان بن عفان ولى زيد بن ثابت الديوان وبيت المال فلما حضر عثمان ،

(١) الصمصح من الرجال : الشديد المجتمع .

(٢) النفجة : النفجة .

(٣) الطبرى ، ص ٣٣٦ .

(٤) تجسير : تجمع .

(٥) الطبرى ، ص ٣٣٥ .

(٦) بطله كربلاء - زينب بنت الزهراء - بنت الشاطئ - طبعة دار الهلال ،

قال : « يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين » (١) .
 فقال أبو أيوب : « ما تنصره الا أنه أكثر لك من العُضدان » (٢)
 هذا ولم يبايع زيد بن ثابت على بن أبي طالب (٣) بعد خلافة عثمان .
 علم مبايعة أحد العاملين على الصدقة على بن أبي طالب بسبب عطاء
 عثمان له :

وما يذكره الطبري كذلك أنه لما قتل عثمان رضى الله عنه بايعت
 الأنصار عليا الا نفرا يسيرا منهم كعب بن مالك وكان عثمان قد استعمله
 على صدقة مزينة ونرك ما أخذ منهم له (٤) .

أنواع أخرى من العطاء في عهد عثمان :

توضح الوقائع التاريخية التالية اقرار عثمان لعطاء اضافي كان
 الخليفة عمر يعطيه في رمضان وتوضح كذلك تمتع بعض أهل الذمة
 بالعطاء في عهد عثمان وتعفف أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
 عن عطاء أراد عثمان منحه اياه .

عثمان يقر عطاء اضافيا لعمر في رمضان :

كان عمر يجعل لكل نفس نفوسة من أهل الفء في رمضان درهما
 في كل يوم وفرض لازواج الرسول صلى الله عليه وسلم درهمين درهمين
 فقيل له لو صنعت لهم طعاما فجمعتهم عليه .
 فقال أشبع الناس في بيوتهم .
 فأقر عثمان الذي كان صنع عمر في العطاء وصنع لهم طعاما في
 المسجد كما نوهنا سابقا (٥) .

أهل الذمة يحصلون على اعانات شبيهة بالأعطيات من بيت مال المسلمين :

كان الوليد بن عقبة أحد ولاة عثمان على العراق يسجل النصارى
 المساجد ويجرى عليهم كل شهر وضمن لهم أرزاقهم شهريا (٦) .

(١) أى مرة أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ومرة ثانية بنصرة عثمان بن عفان .

(٢) العُضدان : جمع عُضيد وهي النخلة لها الجذع يُتَنَاقَل منها لِقَتَاوَل :

(٣) (٤ ، ٤) الطبري - الجزء الرابع - ص ٤٣٠ .

(٥) انظر موازنة الزكاة .

(٦) الاسلام وأهل الذمة ، حسن الخربوطي ، ص ١١٢٨ ، قلا من البلاذري أنساب

الأشراف جزء ١ ، ص ٢١ .

ويطلب الظن أن هذه الاعانات لم تكن من موازنة الزكاة لأن الزكاة تؤخذ من المسلمين وتعطى لهم وانما كانت من موازنة الجزية والحراج وعشور التجارة أى الموازنة العامة وأهل الذمة يساهمون فى تمويلها بما يدفعونه من جزية فيحق للوالى أن يقرر للفقراء والمساكين منهم اعانات شهرية باعتبارهم ذميين فى ذمة الدولة الإسلامية ولعل فى ذلك البرهان الكافى على عدالة الاسلام فى رعاية أهل الذمة . وهذه الاعانات شبيهة بالأعطيات .

عبد الله بن مسعود يؤثر سورة الواقعة على عطاء بيت المال :

توفى عبد الله بن مسعود فى سنة ٣٢ هـ فى عهد عثمان بن عفان ، ولما مرض عاده الخليفة عثمان .

فقال : ما تشتكى ؟

قال : ذنوبى .

قال : فما تشتهى ؟

قال : رحمة ربى .

قال : ألا أمر لك بطبيب ؟

قال : الطبيب أمرضنى .

قال : ألا أمر لك بعطاء ؟

قال : لا حاجة لى فيه .

قال : يكون لبناتك .

قال : أتخشى على بناتى الفقر ؟ انى أمرت بناتى أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا » .

وليس هذا الاستعفاف عن المال العام بعجيب على ابن مسعود فقد أسلم قديما قبل عمر بن الخطاب وقده قال يذكر سببه اسلامه :

« كنت غلاما يافعا فى غنم لعقبة بن أبى معيط أرهاها فأتى النبى صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر .

فقال : يا غلام هل معك لبن ؟

فقلت : نعم ولكنى مؤتمن .

فقال : أئتنى بشاه لم ينزل عليها الفحل .

فاتيتته بعناق أو جذعة فاعتقلها رسول الله صلى الله عليه وسلم
فجعل يمسح الضرع ويدعو حتى أنزلت ، فأتاه أبو بكر بصحفة فاحتلب
فيها .

ثم قال لأبي بكر : اشرب .

فشرب أبو بكر ثم شرب النبي صلى الله عليه وسلم بعده ثم قال
للضرع أقلص فقلص فعاد كما كان ثم آتيتته .

فقلت : يا رسول الله علمتني من هذا الكلام أو من هذا القرآن .

فمسح رأسي وقال : انك غلام معلم .

قال (ابن مسعود) : فلقد أخذت منه سبعين سورة ما نازعتني
فيها أحد .

وهو أول من جهر بالقرآن بسكة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم
وكان يخدم الرسول وهاجر الهجرتين جميعا إلى الحبشة والمدينة وشهد
يدرا وأحدا والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم وشهد اليرموك بعده وقد شهد له رسول الله بالجنة (١) .

عطاء مزعوم في عهد عثمان كان محل نقد :

أشاع البعض أن عثمان رضي الله عنه منح عددا من اقربائه مبالغ
من بيت مال المسلمين بدون مبرر إلا صلة الرحم .

وفيما يلي بيان بالمبالغ التي يقال أنهم حصلوا عليها وبأسماهم وصلاتهم
بالخليفة .

(١) عثمان ذو النورين ، محمد رضا ، ص ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ .

بيان بما قيل عن عطاء من بيت المال في عهد عثمان كان محل نقصد :

اسم من حصل على المال	صلته بالخليفة رضى الله عنه	المبلغ الذى حصل عليه	ملاحظات
(١) مروان بن الحكم	ابن عم الخليفة	القيمة التى غنمها المسلمون فى سبيل طلبة	أمره الخليفة برد ١٥ ألف دينار لبيت المال فتم ذلك بناء على طلب الصحابة
(٢) الحارث بن مروان بن الحكم	زوج ابنة الخليفة	ثلاثمائة ألف	
(٣) عبد الله بن خالد	زوج ابنة الخليفة	ثلاثمائة ألف أو ستمائة ألف	أمره الخليفة برد ١٥ ألف دينار أو ٥٠ ألف دينار لبيت المال
(٤) كل واحد من الذين وفدوا مع عبد الله بن خالد فى قران ابنة الخليفة	تابعين لزوج ابنته	مائة ألف	
(٥) الزبير بن العوام	صحابى	ستمائة ألف	
(٦) طلحة بن عبيد الله	صحابى	مائة ألف	
(٧) سعيد بن العاص	من أقرباء الخليفة	مائة ألف	
(٨) كل زوج لبنات الخليفة الثلاث أو الأربع	أزواج بنات الخليفة	مائة ألف	
(٩) أجاز عثمان أحد أهل بيته بجائزة	أهل بيت الخليفة		جعلها الخليفة قرصاً من بيت المال (١)

(١) ١ ، ٢ ، ٣ ، ٩ من ابن الأثير جزء ٣ ص ١٥٧ واليعقوبى جزء ٢ ص ١٦٨ ،

١٧٤ ووردت بكتاب تاريخ الدول العربية للدكتور سيد عبد الرحمن سالم ص ٢٧١ ، ٢٨٠ ،

٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ووردت بكتاب مع الخلفاء الراشدين ، عبد الحالى أبو راية ص ٧٩ ،

واقعة مالية عن العطاء أبكت زيادا في عهد عثمان :

ومما يروى في هذا الشأن أيضا أنه قد حدث في خلافة عمر أن كتب الى أبي موسى الأشعري : اذا جاءك كتابي هذا فاعط الناس أعطيائهم واحمل الى ما بقى مع زياد ففعل فلما كانت خلافة عثمان كتب الى أبي موسى بمثل ذلك ففعل .

فجاء زياد بما معه فوضعه بين يدي عثمان . فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئا من فضة فمضى به فبكى زياد .

قال له عثمان : ما يبكيك .

قال زياد : أتيت أمير المؤمنين عمر بمثل ما أتيتك به ، فجاء ابن له فأخذ درهما فأمر فانتزع منه حتى بكى الغلام . وإن ابنك هذا جاء فأخذ هذه فلم أر أحدا قال له شيئا .

فقال له عثمان : ان عمر كان يمنع أهله وقربائه ابتغاء وجه الله وإنى أعطى أهلي وأقربائي ابتغاء وجه الله . ولن تلقى مثل عمر ، ولن تلقى مثل عمر (١) .

رواية أخرى عن واقعة عطاء عثمان لأهله :

وروى أبو موسى الأشعري .

قال : كنت اذا أتيت عمر بالمال والحلية من الذهب والفضة لم يلبث أن يقسم بين المسلمين حتى لا يبقى منه شيء . فلما ولي عثمان أتيت به فكان يبعث الى نسائه وبناته . فلما رأيت ذلك أرسلت دمعى وبكيت .

فقال عثمان : ما يبكيك ؟ فذكرت له صنيعه وصنيع عمر

فقال : رحم الله عمر كان حسنة وأنا حسنة ولكل ما اكتسب

قال أبو موسى : ان عمر كان ينزع الدرهم الفرد من الضبى لمن أولاده فيرثه في مال الله ويقسمه بين المسلمين . فأراك قد أعطيت إحدى

(١) مع الخلفاء الراشدين ، ص ٥٩ نقل عن ابن الجوزي .

بناتك مجعرا من الذهب مكللا باللؤلؤ والياقوت وأعطيت الأخرى دزتين
يعرف كم قيمتها .

فقال : ان عمر عمل برأيه ولا يألو. عن الخير وأنا أعمل برأى ولا
ألو عن الخير وقد أوصاني وأنا مستوص بهم وأبر بهم (١) .

عثمان بن عفان رضى الله عنه يكذب عطاء أهله من بيت المال :

وفى شأن عطاء عثمان لأهل بيته من بيت المال قال فى اجتماع له
مع الصحابة :

وقالوا : انى أحب أهل بيتى وأعطيتهم ، فأما حبنى فانه لم يميل
معه على جود ، بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما أعطائهم فان ما أعطيتهم
من مالى ، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ، ولا لأحد من الناس ، ولقد
كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى
الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وأنا يومئذ شحيح
حريص . أتيت على أسنان أهل بيتى ، وفنى عمرى ، وودعت
الذى لى فى أهلى ، قال الملحدون ما قالوا ! وإنى والله ما حملت على مصر
من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله . ولقد رددته عليهم . وما قدم
على الا الخماس . ولا يحل لى منها شيء ؟ فولى المسلمين وضعها فى أهلها
دونى . ولا يتلفت من مال الله يفسد فما فوقه . وما أتبلغ منه ما أكل
الا مالى (٢) .

قرائن قوية لفساد المزاعم بأخذ عثمان الأموال من بيت المال له ولأهله :

— علامة على ما قاله عثمان فى الفقرة السابقة بأنه يعطى أهل بيته
من ماله الخاص فان وقائع التاريخ فى عهد عثمان تتضمن قرائن تنفى
حصول عثمان بن عفان وأهله على عطاء من بيت مال المسلمين وهذه
الوقائع هى :

— أنه جاد بأمواله الخاصة تطوعا فى نشر الدعوة الإسلامية وتثبيتها ،
حينما كان بيت المال شحيح الموارد شير قادر على التمويل والوفاء
بالمطالبات المالية للدولة .

— أنه جاد بأمواله الخاصة فى سبيل اشباع ضرورات الأمة فسقاها

(١) عثمان بن عفان ذو النورين ، محمد رضا - طبعة ثانية - ص ٢٢٨ .

(٢) الطبرى - جزء ١ - طبعة رابعة ، دار المعارف ، ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

من بشر اشتراها وقدم لها الطعام حينما حلت المجاعة على النحو الذى سبق أن أوضحناه .

— عندما نوقش الخليفة فى موضوع حمى الأرض قال فى مجمع من الصحابة :

: ومالى من بعير غير راحلتين ٠٠٠ وانى قد وليت وأنى أكثر العرب بعرا أو شاه فمالى اليوم شاه ولا بعير غير بعيرين لحجى « وقد صلدق الصحابة على قوله على أن تقواه وصلته بالرسول صلى الله عليه وسلم وقراءته القرآن ، قرائن قوية بأنه لا يقول الا صدقا .

— أقسم عثمان بأن طعامه من ماله وليس من مال المسلمين كما سبق أن أوضحنا فقال :

« أما والله ما أكله (أى طعام) من مال المسلمين ولكن أكله من مالى ، أنت تعلم أنى كنت أكثر قريش مالا وأجدهم فى التجارة » .

— سنوضح فيما بعد أن عثمان رضى الله عنه رفض اقتراحا لمعاوية لحمايته من قتله بمعرفة النوار بأن يرتب له أربعة آلاف من جند أهل الشام لحمايته .

وقال عثمان :

« أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرزدمى ، لا فعلت هذا » .

— قدم بعض الكتاب أدلة وقرائن ووقائع أخرى تؤيد سلامة موقف عثمان على النحو التالى :

وجهة نظر أحد المؤرخين (١) فى عطاء عثمان لأهله :

يناقش أحد المؤرخين وقائع عطاء عثمان لأهله فيفند ذلك تحت العناوين التالية :

— اعطاء عثمان الحكم مائة ألف .

« أما صلة الحكم من بيت المال بمائة ألف فلم تصح وانما الذى صح أنه زوج ابنه من ابنة الحارث بن الحكم وبذل لها من مال نفسه مائة

(١) المؤرخ هو أبو جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبرى فى كتابه « الرياض النضرة فى مناصب العشرة » ورد فى كتاب عثمان بن عفان ذو النورين ، محمد رضا - الطبعة الثانية ، ص ٣٢٣ وما بعدها .

ألف درهم وكان رضى الله عنه ذا ثروة فى الجاهلية والاسلام ، وكذلك زوج ابنته أم أبان من ابن مروان ابن الحكم وجهازها من خاص ماله بمائة ألف وهذه صلة رحم يحمد عليها » .

– اعطاء عثمان عبد الله بن خالد بن أسد مبالغ من بيت المال .

« وأما ما ذكر من صلته (أى عثمان) عبد الله بن خالد بن أسد بنلتمائة ألف درهم فان أهل مصر عاتبوه على ذلك لما حصروه ، فأجابهم بأنه استقرض له ذلك من بيت المال وكان يحتسب لبيت المال ذلك من نفسه حتى وفاه » .

– صرف عثمان بن عفان مال من بيت المال فى عمارة ودوره وضياعه .

« وما نسبوه اليه من صرف مال بيت المال فى عمار دوره وضياعه المختصة ، فبهتان افترى عليه . وكيف وهو من أكثر الصحابة مالا ، وكيف يمكن ذلك بين أظهر الصحابة مع أنه الموصوف بكثرة الحياء وان الملائكة تستحي منه لفرط حيائه » أعاذنا الله من فرط الجهل وموبقات الهوى آمين آمين » .

– الرأى فى قصة أبى موسى الأشعرى عن عطاء عثمان لأهله .

« وأما قصة أبى موسى فلا يصح منها » فانه رواه ابن اسحاق عن حدثه عن أبى موسى ولا يصح الاستدلال برواية المجهول . وكيف يصح ذلك وأبو موسى ما ولى لعثمان عملا الا فى آخر السنة التى قتل فيها ولم يرجع اليه .

فانه لما عزله عن البصرة بعبد الله بن عامر لم يقول شيئا من أعماله الا ارسال أهل الكوفة اليه فى السنة التى قتل فيها أن يوليه الكوفة فوله اياها ولم يرجع اليه » .

زعم بعزل عثمان القائم على بيت المال لاعتراضه على أعطياته ورأى أحد الكتاب فيه :

كان عبد الله بن الأرقم القائم على بيت المال أيام عمر ، فلما رأى أن عثمان يأمره أن يعطى من بيت المال لمن لا يستحقه استقال من عمله ، فأعطاه عثمان ثلثمائة ألف بعد استقالته فلم يقبلها تورعا وزهدا (١) . ويرد على ذلك أحد المؤرخين (٢) فيقول :

(١) راجع – الخلفاء الراشدين – مرجع سابق ص ٧٩ .

(٢) للس المؤلف السابق .

« وأما عزل ابن الأرقم ومعيقب عن ولاية بيت المال فانهما أسننا
وضعفا عن القيام بحفظ بيت المال » .

وقد روى أن عثمان لما عزلهما خطب الناس، وقال :

« ألا ان عبد الله بن أرقم لم يزل على جرائنكم زمن أبي بكر وعمر
إلى اليوم وأنه كبير وضعف وقد ولينا عمله زيد بن ثابت » .

الفصل الثاني

اهتزاز اجتماعى ودعوة أبى ذر الغفارى وتعديلات كانت لازمة للسياسة المالية فى عهد عثمان

اهتزاز التوازن الاجتماعى فى عهد عثمان :

أوضحنا أنه من الناحية المالية حقق تنفيذ المالية العامة فى عهد عثمان ابن عفان فائضا مكن بيت المال من الاستمرار فى تنفيذ نظام الإعطيات طبقا للأسس التى وضعها عمر بن الخطاب لهذا النظام ، غير أن هذا التنفيذ الذى حقق فائضا فى الأموال العامة لم يصاحبه نوازن اجتماعى للمجتمع فى عهد عثمان بن عفان ، فقد ذكرنا أنه حينما آلت الخلافة الى عثمان ، كان عمر قد لاحظ قبله ان الفروق بين الأغنياء والفقراء بدأت تميل نحو الاتساع ، فنوى وأعلن نواياه بأنه لو عاش سيأخذ فضول الأغنياء ويوزعها على الفقراء وأنه سيجعل الناس فى العطاء بيانا واحدا .

ولم توضع نواياه فى عهد عثمان بن عفان موضع التنفيذ ، بل استجذبت فى عهده عوامل عملت على زيادة هذه الفروق وانبساطها وهذه العوامل هى :

— اتساع الفتوحات الاسلامية فى عهد عثمان بن عفان وتحقيق نصر المسلمين فيها وكثرة الغنائم التى غنمها الفاتحون وتوزيع أربعة أخماسها عليهم مما زاد من غنى الأغنياء منهم .

— كان العرب أهل تجارة من أيام الجاهلية وكان بعضهم مفرط فى الغنى ، فلما امتدت الفتوح واتسعت الدولة الاسلامية ، واستقر الأمن ، ساهمت هذه العوامل فى نشاط التجارة وازدياد معاملاتها واتساع أسواقها فعظمت أرباحها وازداد غنى تجار مكة والمدينة وكان منهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاسلام لا يمنع التجارة ولا يعارض الثروة ولكن يمنع وجود أغنياء مترفين وفقراء معدمين .

— توزيع عثمان بعض أراضى الدولة على الصحابة والسماح لهم بالانتقال الى الأمصار ونقل فيثهم اليهم ، ففي أيامه اقتنى جماعة من

الصحابة الضياع والدور • فروان بن الحكم بنى القصور بنى خشب (١) والزيبر بن العوام بنى داره بالبصرة ينزلها التجار وأرباب الاموال كما ابنتى دورا بمصر والكوفة والاسكندرية • وابنتى طلحة بن عبيد الله التيمى داره بالكوفة المعروفة بالكناسة بدار الطلحين وسيد دارا بالمدينة بناها بالأجر والجص والساج كذلك ابنتى عبد الرحمن بن عوف الزخري داره ووسعها ، وابنتى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق فرغ سمكها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات • وذكروا أن زيد بن ثابت حين فوفى حلف من ذهب وفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع بما قيمته مائة ألف دينار ، كذلك ذكروا أن المقداد بن الأسود ابنتى داره بالمدينة فى الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات وجصصها من الظاهر والباطن ، وأحصوا ما خلف يعلى ابن منية بعد وفاته فوجدوه قد ترك خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات بما قيمته ثلاثمائة ألف دينار (٢) •

— تؤدى كسر الاموال الى ميل أصحابها الى حياة الترف والاسمناح والبعده عن التقشف والزهد ولربما ساعد على ذلك أن الحليفة نفسه كان ابن تراء لم يعتد التقشف كما نعوذه من قبله أبو بكر وعمر رضى الله عنهما اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نقول انهم كانوا رضى الله عنهم يرتكبون ما يخالف أحكام الدين ولا تعاليمه ولا نقول ان ما امتلكه من اموال وما سئدوه من قصور لا يقره الدين ولكن نقول ان بعضهم انتقل من حالة الزهد الى حالة التمتع بالطيبات ولا تتريب عليهم فى ذلك فهم كما ذكرنا يطبقون قول الله جل وعلا ويؤتون رضى الله التى حللها لعباده (٣) •

وهم يؤدون لبست المال ما يفرضه الدين عليهم من زكاة مفروضة ويتطوعون فوق ذلك بالصدقات ، وقد بلغ هذا التطوع من بعض الصحابة مبلغا عظيما كما سبق أن نوهنا عند الكلام على بعض الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة الجود •

انما لهذا الغنى انعكاسات على شريحة الفقراء كما ذكرنا فهم يقارنون بين ما كان يحدث من زهد أيام الرسول صلى الله عليه وسلم وأيام خليفته من بعده وبين التمتع الجديد وتنتهى المقارنة الى عدم ترجيح بالغنى الجديد

(١) ذو خشب : واد على مسيره ليلة من المدينة •

(٢) تاريخ الدولة العربية ، السيد عبد العزيز سالم ، ص ٢٧٥ • علا عن ابن منية

والمسعودى •

(٣) ذكرنا الآيتين المرآيتين فى الفصل الثانى من الباب الثالث •

أو على الأقل عدم التحمس له خصرصا وأن الغنى قد أدى الى ارتفاع الأسعار -

فقد سبق أن ذكرنا أن المال كثر في زمن عثمان بن عفان الى حد أن جارية بيعت بوزنها وأن فرسا بيعت بمائة ألف (١) إذ أن كثرة الاموال وزيادة الغنى تؤدي الى زيادة القوة الشرائية لدى الأغنياء وزيادة الطلب الفعال على السلع فترتفع أسعارها وارتفاع الأسعار يضر بالفقراء ويأصحب الدخل المحدود الذين لا تزيد عادة دخولهم لأنها تكون ثابتة وإذا زادت هذه الدخول زادت زيادة ثقل كثيرا عن الزيادة في الأسعار وازاء عدم التوازن الذي حدث بين دخول الفقراء وعدم كفايتها لاشباع حاجياتهم الضرورية بسبب ارتفاع الأسعار أن أصبحت الزكاة المفروضة ومواردها لا تحقق كامل رسالتها في تحقيق التكافل الاجتماعي بين أغنياء المسلمين وفقرائهم -

وكان لزاما أن يرتفع صوت في المجتمع ينبه الى هذا الذي حدث خصوصا وأن مجتمع الصحابة مازال موجودا ، وانه وان كان بعضهم من الأغنياء - الا أن منهم من ظل على حاله كما نرى الرسول صلى الله عليه وسلم تقيا نقيًا عابدا زاهدا ممن اجنباهم الله وهداهم الى صراط مستقيم . وهؤلاء الصحابة وسائر المسلمين قد بايعوا الخليفة عثمان بن عفان على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر ، وهذا الذي يحدث في مجتمع المسلمين بين الأغنياء والفقراء لا يطابق مجتمع أبي بكر وعمر . ولذا ارتفع صوت صحابي جليل بدعوة وجهها الى الأغنياء وهو صوت أبي ذر الغفاري رضي الله عنه -

اسلام أبو ذر في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته في عهد عثمان -

وأبو ذر الغفاري رجل غفاري من كنانة اسمه جندب بن جنادة كان من قبيلة تدعى غفار وهي قبيلة كانت قبل اسلامها لا يدرك لها شأو في قطع الطريق وأهلها مضرب الأمثال في السطو غير المشروع فكانوا حلفاء الليل والظلام والويل لمن كان يسلمه الليل الى واحد من قبيلة غفار - وبالرغم من ذلك فقد جاء جندب الى مكة متحملا عناء السفر وفتح الصحراء -

ذهب حيث يوجد الرسول صلى الله عليه وسلم فوجده جالسا وحده فاقترب منه وقال : نعمت صباحا يا أخا العرب -

(١) أوضحنا ذلك عند الكلام على الاتفاق العام من خمس الفئات -

فأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام يا أخاه .
قال أبو ذر : أنشدني مما تقول .
فأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم : ما هو يشعر فأنشدك
ولكنه قرآن كريم .
قال أبو ذر : اقرأ علي .

فقرأ عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو ذر يصغى ، ولم
يمض من الوقت غير قليل حتى هتف أبو ذر : أشهد أن لا إله إلا الله
وأن محمدا عبده ورسوله وسأله النبي صلى الله عليه وسلم : ممن أنت
يا أخا العرب ؟
فأجابه أبو ذر : من غفار .

يقول أبو ذر وهو يروى القصة « .. فجعل النبي صلى الله عليه
وسلم يرفع بصره ويصوبه تعجبا لما كان من غفار ،
ثم قال : « ان الله يهدي من يشاء » .

كان الرسول في ذلك الوقت يهمس بالدعوة همسا ، ومع ذلك دخل
أبو ذر المسجد الحرام ونادى بدعوة الحق بأعلى صوته بشهادة أن لا إله
إلا الله وأن محمدا رسول الله وبالرغم مما لاقاه من أذى المشركين فإنه
عاد في اليوم الثاني ولقي امرأتين تطوفان بالاصنام فسفه الصنمين
نسفيها لادعا ، فتستغيثان فيأتى المشركون ويضربونه حتى يفقد
وعيه .

فاكب عليه العباس بن عبد المطلب ،

وقال لكفار قريش : ويلكم أستم تعلمون أنه من غفار وأنه
طريق تجارتكم الى الشام فأنقذه منهم ، حصل ذلك في ثلاثة أيام
متوالية ثم رجع الى قومه وأخبر أخاه أنيسا فأسلم ثم أسلمت أمهما
وبعض قومهم . ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة،
جاءه قبيلتان أبلغهما أبو ذر دعوته وهما غفار وأسلم .
فقال لهما صلى الله عليه وسلم : « غفار غفر الله لهما » « وأسلم
سالمها الله » .

وقال لأبي ذر : « ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق
لهجة من أبي ذر » .

صاحب أبو ذر الرسول صلى الله عليه وسلم ونقل عنه الكثير من
الأحاديث ويعتبر أحد كبار أئمة الحديث وبعد أن قبض الله جل وعلا
رسوله الكريم الى جواره أقام في المدينة مدة خلافة أبي بكر وعمر وبعض
السنوات من خلافة عثمان .

ولما لاحظ الفروق الكبيرة بين الأغنياء والفقراء التي زاد اتساعها في عهد عثمان أخذ يطوف بالمدينة ويطالب الأغنياء بالنزول عن جزء من أموالهم للفقراء فكان يقول :

« يا معشر الأغنياء واسسوا الفقراء ، بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بما كانوا من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ،
ويتلو قول الله جل وعلا :

« والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب آليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون » .
(التوبة / ٣٤ ، ٣٥)

أبو ذر يعلن دعوته في الشام :

وذهب أبو ذر للشام يدعو بدعوته وكانت أكثر البلاد خصبا ونماء وأكثرها فينا ولما ذهب الى الشام ونادى بدعوته كان من الطبيعي أن يلتفت أنظار معاوية ويتقابلان فيصطدمان فقد سمع أبو ذر معاوية ابن سفيان والى الشام يقول : ان المال العام مال الله .

فأنكر أبو ذر عليه ذلك وأتاه وقال له : ما يدعوك الى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟

قال معاوية : يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره .

قال أبو ذر : لا تقله فاني لا أقول انه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين .

والواقع أن الأموال كلها لله وهي في نفس الوقت الأموال التي جبيت من المسلمين مما أتاهم الله ، ولكن معاوية أراد أن يعمم بأن المال مال الله ولا يذكر أنه مال المسلمين حتى يكون في حل من أن يوجه الأموال العامة كيف يشاء بما له من ولاية على بيت مال الشام ولا يناقشه أو يحاسبه دافعوا هذه الأموال العامة .

أبو ذر يواجه عثمان بدعوته :

وقد أراد معاوية أن يسكت صوت الدعوة الجديدة باغراء المال فبعث لأبي ذر بألف دينار وبعث ذلك سرا في منتصف الليل فلما كان الصبح أرسل اليه يستردها معتذرا بحجة اختلقها فعاد رسول معاوية يخبره بأن أبا ذر تصدق بها فلما ضاق معاوية به ذرعا كتب الى الخليفة يشكو أبا ذر فطلب أن يرسله اليه فلما دخل على الخليفة دارت بينهما المناقشة التالية :

عثمان : ما لأهل الشام يشكون ذربك (لسانك) •
أبو ذر : أنه لا ينبغي أن يقال مال الله ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا
مالا •

عثمان : على أن أقضي ما على وأخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على
الزهد وأن أدعهم الى الاجتهاد والاقتصاد •

أبو ذر : أفتأذن لي في الخروج فان المدينة ليست لي بدار •
أذن له عثمان أن يخرج فاختر الربذة وهي مكان ناء عن المدينة ،
ويقول آخرون ان عثمان نفاه اليها •

تأصيل دعوة أبي ذر بأحاديث عن الرسول :

تكاد دعوة أبي ذر تنبع من بعض الأحاديث التي رواها عن الرسول
صلى الله عليه وسلم وذلك على النحو التالي :

— كان أبو ذر يرى أن الامارة امانة وأن الأمير ينبغي أن يأخذها
بحقها ويؤدي الذي عليه فيها ولما ظن أن بعض الأمراء لم يؤد للفقراء
كل الذي عليهم جاهرهم بدعودته مستندا في ذلك بما سمعه من رسول
الله صلى الله عليه وسلم عن مسئولية الأمراء •

عن الحرث بن يزيد الحضرمي قال : سمعت ابن حجرية الشيخ
يقول :

« حدثني من سمع أبي ذر يقول : ناجيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ليلا - أو قال ليلة - حتى أصبح •
فقلت : يا رسول الله امرني •

فقال : انها أمانة ، وانها حسرة وندامة يوم القيامة الا من أخذها
بحقها وأدى الذي فيها (١) •

— وعن واجبات الأغنياء يروي أبو ذر الحديث التالي عن النبي صلى
الله عليه وسلم فعن أبي ذر رضي الله عنه :

قال : انتهيت الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل
الكعبة ، فلما رأيته •

قال : « هم الأخسرون ورب الكعبة » قال (أبو ذر) فجئت حتى
جلست فلم أنقار ان قمت فقلت : يا رسول الله فذاك أبي وأمي من هم ؟
قال : « هم الأكثرون أموالا الا من قال : هكذا وهكذا وهكذا من
بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شمال وقليل ما هم ، ما من صاحب

(١) الأموال ، لأبي عبيد ، ص ١١ •

ابل ولا بقر ولا غنم لا يؤدى زكاتها الا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت واسمونه ننطحه بقرونها وتطوؤه بأظلافها كلما نفدت أخرها عادت عليه أولها حتى يقضى بين الناس (١) .

والرسول بهذا الحديث يقرر أن أكر الناس خسرانا يوم القيامة هم الأكثرون أموالا لأنهم قد حرموا أنفسهم بما أعطاهم الله من فضله ، فلم يقدموا منه لأنفسهم خيرا يدخرونها عند الله تعالى فيضاعف لهم نوابه ويجزل لهم العطاء وقد أقسم النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك بعوله « ورب الكعبة » وهو الله تعالى تأكيدها للكلام وإدخال الرهبة في قلوب السامعين ، ويستثنى من هؤلاء من يكثر من الانفاق للمال في جميع وجوه الخير والبر المتعددة لا يبالي ان جاءت من جهة اليمين أو من جهة الشمال أو من الخلف أو الأمام ، فلا يخص بالانفاق جهة من جهاب الحير دون أخرى وأن هؤلاء قليلون لما وقر في صدور الناس من حب المال وجميعه والحرص عليه .

ألا ترى أن ما نادى به أبو ذر الغفاري أيام عثمان بن عفان يكاد يسبع من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

— وعن أبي ذر رضى الله عنه قال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« فى الابل صدقاتها وفى الغنم صدقاتها وفى البر صدقته ومن رفع دنائير أو دراهم أو تبرا أو فضة لا يعدها لغربم ولا ينفقها فى سبيل الله ، فهو كنز يكوى به يوم القيامة » .

يحض هذا الحديث على زكاة الأموال وكذلك زكاة التجارة ويوضح ان من يبقى لديه أموالا ذهباً أو فضة أو نقوداً ولا يؤدى زكاتها فانما تعتبر كنزاً يكوى به يوم القيامة الا ما كان محتجزاً لدين .

وما ورد فى دعوة أبي ذر بأن الأغنياء سيكونون بمكاو من نار يوم القيامة يكاد يكون مقتبساً من كى أصحاب الكنز .

لماذا لم ينقل أبو ذر دعوته من القول الى العمل :

لم ينقل أبو ذر دعوته من القول الى العمل لأنه قد تلقى توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الشأن أبان حياته .

فقد ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ما هذا السؤال على

أبى ذر :

(١) المنتخب من السنة — المجلد السادس — طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ،

« يا أبا ذر كيف أنت اذا أدركت أمراء يستأنرون بالقيء »
 فأجاب أبو ذر : « اذا والدى بعنك بالحق لأضربن بسيفي »
 فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ أصبر حتى نلقاني »
 وقد التزم أبو ذر بوصية الرسول صلى الله عليه وسلم والنزما
 كاملا ، فقد جاءه يوما وهو في الربذة وفد من الكوفة يسألونه أن يرفع
 راية الثورة ضد الخليفة فزجرهم بكلمات حاسمة وقال :
 « والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة أو جبل لسمعت
 وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت ذلك خيرا لي »
 « ولو سيرني ما بين الأفق الى الأفق لسمعت وأطعت وصبرت
 واحتسبت ورأيت ذلك خيرا لي »
 « ولو ردني الى منزلي لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت
 ذلك خيرا لي » (١) -

انعكاس صدق دعوة أبي ذر على علاقته ببعض الصحابة :
 ولقد عكس صدق دعوته على علاقته ببعض الصحابة لأنهم ولوا
 الامارات وصارت لهم أموال حلال
 فقد لقيه أبو موسى الأشعري يوما فلم يكنه يراه حتى فتح له ذراعه
 مرحبا به وهو يقول : مرحبا أبا ذر - مرحبا بأخي
 فرد أبو ذر : لست بأخيك انما كنت أخاك قبل أن تكون واليا
 وأميرا
 كذلك لقيه أبو هريرة يوما واحتضنه مرحبا
 ولكن أبو ذر نحاه قائلا : اليك عني ، ألسنت الذي وليت الامارة
 فتطاوالت في البنيان واتخذت لك ماشية ورداء (٢)

بعض الصحابة كانوا يشاركون أبا ذر الرأي في عهد عثمان :
 وكان بعض الصحابة يذهبون الى ما ذهب اليه أبو ذر ومنهم الامام
 علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعمار وسلمان رضي الله عنهما (٣)

(١) رجال حول الرسول ، خالد محمد خالد ، ص ٧٦ ، ١٠٠
 (٢) رجال حول الرسول ، خالد محمد خالد ، ص ٩٣ ، ٩٤
 (٣) علي امام المؤمنين ، عبد الرحمن الشراوى ، مقال بجريدة الأهرام لى
 ١٩٨٣/٩/٧ ، ص ١٢

مناقشة رأى عثمان بن عفان فى دعوة أبى ذر :

— كانت وجهة نظر عثمان بأن الخير عميم وأن الناس جميعا يستمتعون بالمال ويفرض لهم العطاء من بيت المال بما فيهم الأطفال عند ما يولدون وأن من أدى زكاته ليس بكانز .

ويؤيد وجهة نظر عثمان رضى الله عنه الأحاديث التالية :

— فعن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

فقال أعرابى : أخبرنى عن قول الله « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله » .

قال ابن عمر : من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له ، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما أنزلت جعلها الله طهرا للأموال (١) .

وبذلك بين ابن عمر رضى الله عنهما للسائل أن الوعيد الوارد فى الآية كان قبل أن ينزل فرض الزكاة بمقاديرها المعروفة ، وكان الواجب أول الاسلام اتفاق كل ما فضل عن الكفاية امتثالا لقول الله تعالى :

« ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (البقرة / ٢١٩) .

فالعفو ما فضل عن الكفاية وإنما وجب ذلك أول الاسلام ليتحقق معنى المواساة بين أفراد المسلمين الأولين ، فلا تتحقق المواساة الا بذلك لقلة الأغنياء من المسلمين وقتئذ والاقتصار على الزكاة وحدها لا يوجد المواساة ، فكان فرضا عليهم أن ينفقوا على اخوانهم كل ما فضل عن كفايتهم تيسيرا على الفقراء من المسلمين ، ولما كثر المسلمون وكثر الأغنياء منهم وكان مقدار الزكاة المعين يكفى المحتاجين اكتفى بمقدار الزكاة فلم يفرض غيرها حتى لا يشق التكليف فيضجر العبيد فيهلكوا قال تعالى :

« ولا يسألكم أموالكم أن يسألكموها فيحضمكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » (محمد ٣٦ و ٣٧) .

واعتبر ما زاد عن الزكاة تطوعا ونافلة وكرما ومروءة وصار اخراج الزكاة وحدها مطهرا للأموال الباقية ، فلا تكون كنزا « شرعا يتوعد الله عليه بالعذاب الأليم (٢) ، وابن عمر رضى الله عنهما لا يقول ذلك الكلام

(١) الحديث وارد فى كتاب المنحجب من السنن - الجزء السادس - أصدره المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، ص ٧٣ ، ٧٤ . وقد أخرجه البخارى فى الزكاة وفى التفسير والنسائى فى الزكاة واللفظ للبخارى .

(٢) يرى البعض أن الآية منتهى فى أن الله جل وعلا لا يسأل كل الاموال بل بامر بجزء منها .

ولا يفتى به من جهة نفسه فليس رأيا له يراه بل هو مستمد من تشريع النبي صلى الله عليه وسلم (١) .

— ويؤيد ذلك أيضا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« كل مال — وإن كان تحت سبع أرضين — تؤدى زكاته فليس بكنز وكل مال لا تؤدى زكاته وإن كان ظاهرا فهو كنز » (٢) .

والمعنى أن اخراج الزكاة من المال يبعد عنه اسم الكنز الذى ورد فيه الوعيد الشديد وإن كان ذلك المال الذى أخرجت زكاته مدفونا تحت سبع أرضين وسمية الناس له كنز لأن صاحبه قد أدى حق الله الواجب فيه ، والمال الظاهر على وجه الأرض يعتبر كنزا شرعا لأن صاحبه اقتصزه لنفسه وضمن بزكاته فلم يخرجها ، ويدخل صاحبه تحت الوعيد الوارد فى حق الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله (٣) .

— ويؤيد ذلك كذلك الحديثين التاليين للرسول صلى الله عليه وسلم :

فعن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك » .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال :

قال رجل : يا رسول الله أرأيت إن أدى الرجل زكاة ماله :

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أدى زكاة ماله فقد ذهب عنه شره » .

والمراد بشر المال ما يشمل العذاب الذى دل عليه الوعيد الشديد الوارد فى قوله تعالى :

« والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » (التوبة / ٣٤) .

(١) الشرح وارد فى هامش المرجع السابق ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٧ ، أخرجه الطبرانى فى الأوسط مرفوعا ورواه غيره على

ابن عمر .

(٣) الشرح وارد فى هامش المرجع السابق ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

ويشمل أيضا الشر الذي يلحق صاحب المال في الدنيا كالحسد والبغض والكراهية والحقد الذين يكون في قلوب الفقراء نحو صاحب المال ويشمل الشر أيضا ما يأتي صاحب المال غير المزمك من هم الاستغلال به والحرص عليه والخوف من ضياعه (١) .

فمن وجهة نظر عثمان بن عفان رضي الله عنه أن الاقتناء مباح لا يذم صاحبه وان كان الاعراض عن اقتناء المال درجة من درجات الزهد والورع استنادا لما سبق .

الراى فى دعوة أبى ذر فى الأحوال العادية :

استنادا لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم السابقة فإن الفريضة فى الأحوال العادية هى أداء الزكاة بحيث تكفى حصيلتها لأطعام فقراء مجتمع المسلمين ولكسائهم ولايوائهم ، فإذا كانت نسبة الزكاة المنقولة عن الرسول صلى الله عليه وسلم تكفى لذلك فلا تفرض زيادة عنها ، والا فتزد لأن فى المال حق فوق الزكاة وقد صح ذلك عن الشعبي ومجاهد وطاوس وغيرهم ، على أن ذلك لا يمنع من التطوع فوق الفريضة ومن تطوع خيرا فهو خير له .

وفى نفس الوقت لا تحبس باقى الأموال بعد استثناء الزكاة منها عن الاستثمار لأن فيه منافع البلاد والعباد ولأنه يحقق رسالة الانسان والمال على الأرض وهى المساهمة فى معاش العباد لأنه بالاستثمار تقام المصانع وتصلح الأراضى وتمول التجارات فيكون استثمار المال سببا فى انسياب الأرزاق التى قدرها الله للعباد وفى زيادة انتاج ونماء المجتمعات .

الراى فى دعوة أبى ذر اذا نزلت بالمسلمين حاجة :

أما اذا نزلت بالمسلمين حاجة فان لذلك حكما آخر .

فيقول القرطبى « واتفق العلماء أنه اذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة يجب صرف المال إليها » .

وقد أبرز الغزالي هذا الراى وأصله ودعاه بما يشهد لصحته بما ملخصه أنه اذا خيف دخول العدو بلاد اسلام أو خيف قيام فتنة داخلية تهدد الأوضاع وتعصف بالأمن ، ولم يكن فى خزينة الدولة ما يكفى نفقات الجيش لينهض بمهمته فى دفع أى من هذين الخطرين ، اذا أحسق بالبلاد ، فان للامام أن يقرر فى أموال الأغنياء ضريبة بما يكفى تلك

(١) المرجع السابق ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

النفقات تأمینا للبلاد خارجيا وداخليا ، وقد استند الغزالي في رأيه هذا الى قاعدة أصولية مؤداها أنه اذا تعارض شران دفع أعلاهما بأدناهما او اسدهما بأخفهما ، فأى مقدار من المال يأخذه الامام من أموال الأغنياء لهذا الغرض انما هو قليل بالنسبة لما يحتمل أن يحصل لهم لو أنه قدر لای من هذين الخطرين أن يأخذ مجراه ويصل الى مداه ، اذ ربما ترتب على ذلك حينئذ أن يتم استيلاء على جميع أموالهم ان لم تزهد من قبل ذلك أرواحهم (١) .

ويؤيد ذلك الشاطبي فيقول « انا اذا أقررنا اماما مطاعا مقتضرا الى تكثير الجنود لسد حالة الجند (أى نفقات الجيش) الى ما لا يكفيهم فللامام اذا كان عادلا ، أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافيا لهم (أى للجنود) الى أن يظهر (يوجد) مال لبيت المال تم اليه النظر في توظيف ذلك على الغلات والثمار وغير ذلك » .

وانما لم ينقل مثل هذا عن الأولين (فى العصور الاسلامية الأولى) لاتساع بيت المال فى زمانهم خلاف زماننا ، فان القضية فيه أخرى ووجه المصلحة هذه ظاهرة فانه لو لم يفعل الامام ذلك بطلت شوكة الامام وصارت دياره عرضة لاستيلاء الكفار (٢) » .

اهتزاز التوازن الاجتماعى فى أواخر عهد عثمان يعتبر انه نزلت بالمسلمين حاجة تبرر الاستجابة لدعوة أبى ذر :

كان من الواجب تعديل السياسة المالية فى عهد عثمان فقد كان المجتمع فى أواخر عهد عثمان بن عفان قد مال عن التوازن الأمن بسبب وجود طبقة غنية مفرطة الغنى وطبقة منطلعة الى هذا الغنى وبسبب هبوب رياح عدم الاستقرار ، وكان من الملائم أن تتحول السياسة المالية لتساهم فى تحقيق التوازن الأمن للمجتمع أو على الأقل للتخفيف من حدة عدم الاستقرار ، خصوصا وقد أشار بذلك الخليفة السابق عمر بن الخطاب حينما أعلن أنه ينوى أن يأخذ فضول الأغنياء وأنه ينوى أن يجعل الناس بيانا واحدا فى العطاء ، فتلاقت بذلك وجهة نظره بصفة عامة مع دعوة أبى ذر ومن أيده من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) الاقتصاد الإسلامى مدحا ونظاما - الجزء الأول - إبراهيم الطحاوى ، ص ٤٠٤ -

(٢) انظر كتابا « النظم المالية فى الاسلام » طبعة ثانية ، ص ١١٦ نقلا من مقال عن

الملكية الخاصة وحدودها فى الاسلام للدكتور محمد عبد الله العربى تقدم به الى المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية .

كيف كان يمكن تعديل السياسة المالية في عهد عثمان بن عفان
تنفيذا لنوايا عمر ودعوة أبي ذر :

ينور بعد ذلك سؤال عن الكيفية التي كان من الممكن أن يتم بها
تعديل السياسة المالية في عهد عثمان بن عفان وأثر هذا التعديل .
كان من الممكن أن يتم التعديل في السياسة المالية باتباع نفس
المسار الذي خطه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وطالب به
بصفة عامة أبو ذر الغفاري وبعض صحابة رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وهذا المسار ينحدد بوسيلتين :

الأولى : جعل الناس بيتا واحدا فيما يحصلون عليه من عطاء من بيت
مال المسلمين وذلك بالمساواة بينهم في العطاء ، وبذلك يحد
من التزايد في الغنى لمن كانوا يحصلون على عطاء أكبر ويزيد
في أنصبة الفقراء وهم من كانوا يحصلون على عطاء أقل ،
فتزداد ثرواتهم وتهبط درجة فقرهم وبذلك تضيق نسبيا
الفروق الواسعة بين طبقتي الأغنيا والفقراء ويساهم هذا الاجراء
في اتجاه المجتمع تدريجيا نحو التوازن .

مثل هذا الاجراء كان سيجد ترحيبا من طبقة الفقراء والطبقة
الوسطى في العطاء لأن هذه الطبقة قد لا تمس اطلاقا في ظل
مبدأ المساواة أو ينخفض عطاؤها انخفاضاً يسيراً ، أما أصحاب
العطاء المرتفع فربما كانوا سيعترضون أو لا يرضون عن هذا
الاجراء ولكن في نهاية الأمر وهم من ذوى قربي الرسول صلى الله
عليه وسلم ومن السابقين الأولين في الاسلام كانوا سيرضون
بما قسمه الله لهم في ظل أنصبتهم الجديدة من بيت المال .
فضلا عن أن مثل هذا الاجراء كان سيتم بعد مشورة أصحاب
الرأى في الأمة ومنهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
والمشورة في القرارات العليا للسياسة المالية تجعل القرار
وكأنه صادر من الأمة جمعاء فيحظى بالقبول العام .

الثانية : أخذ جزء من فضول الأغنياء وتوزيعها على الفقراء استنادا الى أنه
في حالة عدم توازن المجتمع يكون في المال حق لبيت المال فوق
الزكاة ، واستنادا كذلك الى أحاديث عدة عن الرسول صلى الله
عليه وسلم منها الحديث التالي :

« من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له
فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم
من أصناف الأموال ما ذكر حتي رأي الصحابة أنه لا حق لأحد منهم في
فضل .

ولو تم هذا التعديل في السياسة المالية لكان له فعالية أقوى في تقريب الفوارق بين الطبقات ، لان الزكاة شاملة وزيادتها ستكون شاملة أيضا فتسرى على جميع الأموال التي يملكها أصحاب الأموال كما أن تطبيق الزيادة لو فرضت كان سيكون سهلا لان الزيادة ما هي الا اضافة على فئات الزكاة الأصلية فيسرى عليها من ناحية شروط الاخضاع والأداء والتحصيل ما يسرى على الزكاة الأصلية ، فضلا عن أن الأغنياء ما كانوا ليعترضوا على مثل هذا القرار لأنهم مازالوا قريبى العهد بالرسول صلى الله عليه وسلم والخليفين من بعده ، ولأن المالية الإسلامية تنقسم بالمعنويات التي يبغى الممولون لها رضاء الله سبحانه وتعالى بجانب وفائهم لحقوق بيت المال .

وكان من الممكن أن يلزم هذين الاجراءين اجراء له نفس الأثر على باقى مواطنى الدولة الإسلامية حتى يساهم الجميع بقدر متوازن فى الأعباء العامة طبقا لدرجة يسارهم ، فكان من الممكن أن يعاد النظر فى الجزية والخراج التى يدفعها الأغنياء من أهل الكتاب برفع فئاتها دون ظلم لهم وبشرط أن لا تكون الجزية والخراج قد فرضتا بمقتضى عهود ومواثيق أبرمها من يدفعون الجزية والخراج مع الدولة الإسلامية فتكون ملزمة للطرفين غير قابلة للتعديل الا برضاء الطرفين .

لم يتم تعديل السياسة المالية فتحركت رياح المجتمع بما لا تشتهى الدولة الإسلامية على النحو الذى سنوضحه فيما بعد .

لماذا لم ينفذ عثمان بن عفان وصايا عمر المالية ودعوة أبى ذر :

يرجع عدم تنفيذ عثمان بن عفان وصايا عمر بشأن أخذ فضول الأغنياء وتوزيعها على الفقراء والمساواة فى العطاء وعدم استجابته لدعوة أبى ذر الى عدة عوامل بعضها ينبع من شخصيته وبعضها يرجع الى الظروف التى أحاطت بالمجتمع فى عصره .

فكما يرجع الى شخصه ما ذكرناه من أن عثمان كان فى سن الشيخوخة وقد أوضحنا أن مرحلة الشيخوخة تضعف فيها ملكات الانسان ولا يتحمس كثيرا للتغيير ويميل الى الرثابة والهدوء والدعة والسكون ، كما أوضحنا أن عثمان رضى الله عنه كان يتسم بالحياة والسماحة واللين وهى كلها صفات لا تشجع فى حالة الشيخوخة على اتخاذ قرارات حاسمة من شأنها أن تقلل عطاء البعض وأن تأخذ فضول أموال الأغنياء وتعطيها للفقراء لا سيما وأنه كان يعتقد أنه اذا أدى الغنى زكاة أمواله المفروضة فليس للأمير أن يجبره على الزهد والتطوع وانما

يترك ذلك لارادة ذى المال خصوصا وكما ذكرنا أن بعض أغنياء الصحابة كانوا يتطوعون بأضعاف أضعاف نسب الزكاة المفروضة .

ومما يرجع الى المجتمع أن المجتمع في أول العهد كان مرجيا بعثمان الذى اتسم باللين بعد الشدة التى كان يتسم بها عمر فلم يكن الخليفة يفكر فى هذا التعديل خصوصا وأن هذا التعديل فى السياسة المالية كان سينفر البعض من حكمه أما فى السنوات الأخيرة من عهد عثمان فكانت تمر بالمجتمع رياح عدم الاستقرار مما قد يدعو الى الظن بعدم ملائمة اجراء تعديلات فى السياسة المالية .

على أنه من الانصاف أن نوضح أن السياسة المالية التدخلية بالشكل الذى يطبق حاليا والتى باستخدامها تتدخل الدولة لاعادة توازن المجتمع لم تكن معروفة ولا مألوفة وقتئذ بين الدول ولكنها ظهرت بعد عهد عثمان بمئات السنين فتدخلت المالية العامة لتعالج حالات عدم التوازن الاقتصادى والاجتماعى ، ومع ذلك كان عمر قد نوى أن يجعل السياسة المالية تقوم بهذا الدور اذا قدر له الحياة ولكنه قتل .

وفاة ابي ذر فى عهد عثمان :

يروى الطبرى وفاة ابي ذر فيقول :

لما حضرت أبا ذر الوفاة وذلك فى سنة ثمان فى ذى الحجة من امارة عثمان .

قال لابنته : استشرفى يا بنية فانظرى هل ترين أحدا .

فالتت : لا .

فقال : فما جاءت ساعتى بعد .

ثم أمرها فذبحت شاة ثم طبختها .

ثم قال : اذا جاءك الذين يدفنوننى فقولى لهم : ان أبا ذر يقسم عليكم ألا تركبوا حتى تأكلوا فلما نضجت قدرها .

قال لها : انظرى هل ترين أحدا .

فالتت : نعم هؤلاء ركب مقبلون .

فقال : استقبلى بى القبلة .

ففعلت .

وقال : بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ثم خرجت ابنته فتلقتهم .

وقالت : رحمكم الله ! اشهدوا أبا ذر .

قالوا : وأين هو ؟

فأشارت إليه وقد مات - فادفنوه .

قالوا : نعم ونعمة عين ! لقد أكرمنا الله بذلك .

وإذا ركب من أهل الكوفة فيهم ابن مسعود ، فمالوا إليه

وابن مسعود يبكي .

ويقول : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ! يموت وحده

ويبعث وحده .

فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ، فلما أرادوا أن

يرتحلوا .

قالت لهم : ان أبا ذر يقرأ عليكم السلام واقسم عليكم ألا تركبوا

حتى تأكلوا ففعلوا وحملوا أهله معهم حتى أقدموهم مكة

ونعوه إلى عثمان فضم ابنته إلى عياله .

وقال : يرحم الله أبا ذر ويفخر لرافع بن خديج سكونه (١) .

الباب الخامس

**الفتنة الكبرى وأثارها المالية
وتقييم عام لسياسة عثمان المالية**

الفصل الاول

وقوع الفتنة الكبرى في عهد

عثمان بن عفان

اسباب اخرى غير مالية ساهمت على عدم توازن المجتمع في عهد عثمان بن عفان :

لم تكن الثغرات المالية هي وحدها التي أدت الى تخلخل المجتمع وعدم توازنه بل ساهمت اسباب أخرى في ذلك مما أدى الى قيام معارضة واجهت الخليفة نفسه وهذه الأسباب هي :

— كان بعض الناس يعتقد أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أحق بالخلافة من عثمان بن عفان ، وأنه لو ولى الخلافة بعد عمر بن الخطاب لكفل زهده وتقواه في أن يسير سيرة عمر بن الخطاب في حزمه وزهده وتقشفه ، وكان ذلك قميناً أن يقى الأمة الإسلامية عثرات عامة في عهد عثمان .

ومما قوى هذا الاعتقاد لدى البعض الخلاف الذى نوهنا عنه بين هاشم وبني أمية وشعور البعض أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أثر عثمان بالخلافة لما بينهما من قرابة .

وفى هذا يسوق الطبرى روايتين تدلان على أن اختيار عثمان ترك فى نفس على أثراً عميقاً .

أما الأولى وقد سبق أن أوردناها فتذهب الى أنه لما أقبل الناس يبايعون عثمان بعد أن بايعه عبد الرحمن تلكاً على بن أبي طالب .

فقال عبد الرحمن : ومن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً . فرجع على يشق الناس حتى بايع وهو يقول : « خدعة أيما خدعة » .

أما الرواية الثانية فتجرى بأنه لما بايع عبد الرحمن عثمان .

قال على : حبوته حبو دهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرت فيه علينا ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ، والله ما وليت عثمان الا ليرد الأمر اليك ، والله كل يوم فى شأن .

وأجاب عبد الرحمن : يا علي لا تجعل على نفسك سبيلا فاني قد
ناظرت وشاورت الناس فاذا هم لا يعدلون بعثمان .

وخرج على وهو يقول : سيبخل الكتاب أجله .

وان كانت الروايات تتضارب في هذا الشأن واختلف بشأنها
المؤرخون ، الا أنه يمكن القول أن عليا وبنى هاشم كانوا يعتقدون أنهم
أحق بالخلافة من عثمان وبنى أمية لأنهم أهل بيت النبي صلى الله
عليه وسلم .

— تتابع عهد عثمان بعد عهد عمر جعل البعض يقارنون بين ما كان
يجرى في عهد عمر بن الخطاب وما كان يجري في عهد عثمان بن عفان ،
ففي عهد عمر بن الخطاب كان عمر أصغر سنا ، أقدر على الزهد والتقشف
ومشاركة الناس في الأوقات العجاف التي تمر بهم ، حدد علاقته ببيت
المال تحديدا واضحا يقوم على تحديد مخصص له لا يتعداه وألزم ذوى قرباه
بأن لا يأملوا في ميزة مالية من بيت المال ، يمتازون بها على سائر الرعية
وكان حاسما مع الولاة ، وأبقى الصحابة في جانبه لا يبرحون المدينة
الا بأمر منه كما سبق أن أوضحنا .

بينما أن عثمان كما سبق أن ذكرنا قد تولى الخلافة وهو في
السبعين تقريبا أو أكثر واستمر عهده حتى الثمانين تقريبا أو أكثر ،
ويأنس الناس في مثل هذا السن الى الهدوء والدعة واللين لا يتحملون
شظف التقشف وتبعات الزهد ، وبجانب ذلك أشاع البعض عن تصرفات
لعثمان من بيت المال كانت محل نقد بعض أفراد الرعية ، كما منح عثمان
بعض الصحابة حرية الانتقال في الأمصار ومنهم من بهرته حضارات هذه
الأمصار ففقدوا بعض سماتهم التي تركهم عليها الرسول صلى الله عليه
وسلم وخليفته الصديق وابن الخطاب رضى الله عنهما .

→ تأثر الناس بالدعوات العامة التي ظهرت في عهد عثمان بن عفان
وقد أوضحنا دعوة أبي ذر رضى الله عنه فقد تركت هذه الدعوة تلاميذ
من فقراء المسلمين اعتقدوا أن حقهم على الأغنياء لا يقتصر على الزكاة
المفروضة ، بل لهم حقوق أخرى أوضحها أبو ذر ، وأن هذه الحقوق
منعها عنهم الأغنياء مخالفين بذلك أحكام الدين التي أصل بها أبو ذر
دعوته ، واختلجت نفوسهم مشاعر غير ودية نحو الأغنياء فكان في ذلك
اضعاف للروابط بين شرائح المجتمع من فقراء وأغنياء .

دعوة أخرى غير بريئة هي حركة السبئية وهم أتباع عبد الله
ابن سبأ . وكان يهوديا من أهل صنعاء ثم أسلم في الظاهر نقا في
زمن عثمان للكيد للإسلام ، وتذهب هذه الدعوة الى القول بمذهب الرجعة

أى رجوع الرسول مرة أخرى مستندا فى ذلك الى قوله تعالى « ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » كما نادى بمبدأ الوصاية الذى بمقتضاه أن عليا كان وصى محمد ، ولما كان محمد خاتم الأنبياء فعلى خاتم الأوصياء واتهم عثمان بأنه انتزع من على حقه لأنه لم يحجز وصية الرسول صلى الله عليه وسلم وتظاهر فى ذلك بأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأخذ يبت دعوته فى البلاد التى زارها وهى مصر والكوفة والبصرة ويؤلب الناس على الخليفة وتبعه الكثيرون من أصحاب النفوس الضعيفة (١) .

— ومن أسباب المعارضة أيضا أن البعض كان ينتقد عثمان لأنه لم يقم الحد على عبيد الله بن عمر بن الخطاب وكان بعد مقتل والده قد استل سيفه وقتل شريكين آخرين لأبى لؤلؤة قاتل عمر وهما المهزمزان الفارسى وجفينه النصرانى ثم زاد فقتل ابنة أبى لؤلؤة وكان أبو لؤلؤة قد طعن نفسه بعد أن طعن عمر بن الخطاب وثلاثة عشر رجلا ممن كانوا يصلون معه مات منهم سبعة . فلما علم صهيب الرومى — القائم مؤقتا مقام الخليفة بما فعله عبيد الله بن عمر أمسك به وسجنه انتظارا لأمر الخليفة الجديد .

فلما تولى عثمان استشار الصحابة ، فكان من رأى على بن أبى طالب أن يقتل عبيد الله قصاصا لمن قتلهم ولكن البعض عجب كيف يقتل عمر بالأمس ثم يقتل ابنه بعد ذلك .

فقال عثمان أنا وليهم قد جعلتها دية واحتملها فى ماله فلم يكن للقتلى أولياء غير ولى أمر المسلمين عثمان ، وعبيد الله بن عمر كان غير ملىء لأنه كان متقلا بديون كانت على عمر بن الخطاب وطلب عمر بن الخطاب من أولاده سدادهما بعد طعنه وقبل موته .

— ومما أخذوه على عثمان كذلك أنه حين الحج أتم الصلاة بمكة والرسول قد قصرها وكان له بمكة أهلا وزوجة فرأى أن يتم ولا يقصر ، وكان ذلك بمنى والرسول صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين فقط وتبعه فى ذلك أبو بكر وعمر وعثمان نفسه قد صلى معهم جميعا ركعتين ، فاعتبر البعض فيما اتبعه عثمان مخالفة لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد دافع عثمان عن وجهة نظره بأنه كان له بمكة أهلا وزوجة فيعتبر مقيما فلا يقصر الصلاة .

— أوضحنا أن البعض اعترض على عثمان أنه قد حمل الناس على

(١) تاريخ الدولة العربية ، السيد عبد العزيز سالم ، نقلا عن الطبرى — ج ٣ — ص ٩٨ وابن الأثير — ج ٣ — ص ١٥٤ .

مصحف واحد وأنه حينما حرق ما حرق من المصاحف الأخرى إنما حرق مصحفا كانت تشتمل على قرآن أخذه المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سبق أن أوضحنا أن علي بن أبي طالب نفسه أشاد بما فعله عثمان .

— أنكر بعض الناس على عثمان تطويره لبناء المسجد النبوى بالمدينة وقد سبق أن ناقشنا ذلك مؤيدين لما فعله عثمان .

— كانت بعض القبائل تشعر أن قريش قد استأثرت بالخلافة كما أن نصيبها من العطاء كان مميذا فحرك ذلك فى نفوسها الغيرة ، وليس أدل على ذلك مما رواه ابن الأثير من أن وجوه أهل الكوفة كانوا يسرون عند سعيد بن العاص .

فقال سعيد « إنما هذا السواد بستان قريش » .

فقال الاشر النخعي « أتزعم أن السواد الذى أفاء الله علينا بأسياقنا بستان لك ولقومك ؟ » .

فمنعهم سعيد من السمر عنده ولذلك كانوا يجلسون فى مجالسهم ينتقدون عثمان وسعيد .

— **ممثل للمعارضة بالكوفة يبلغ عثمان بن عفان الانتقادات لحكمه :**

اجتمع ناس من المسلمين بالكوفة فتذاكروا أعمال عثمان فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا رجلا يكلمه فاختراروا رجلا يدعى عامر بن عبد قيس فأتاه فدخل عليه .

فقال لثمان : ان أناسا من المسلمين اجتمعوا فنظروا فى أعمالك . فوجدوك قد ركبت أمورا عظاما ، فاتق الله عز وجل وتب اليه وانزع عنها .

قال له عثمان : انظر الى هذا ، فان الناس يزعمون أنه قارىء . ثم هو يجيء فيكلمنى فى المحقرات ، فوالله ما يدري أين الله .

قال عامر : أنا لا أدري أين الله ؟

قال عثمان : نعم ، والله ما تدري أين الله .

قال عامر : بلى والله أنى لأدري أن الله بالمرصاد لك (١) .

(١) الطبرى - جزء ٤ - ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

الخلافة يدرس ملاحظات المعارضة مع الولاة :

بلغت الخلافة عثمان رضى الله عنه الآراء التى تبديها المعارضة بشأن قراراته المالية وغير المالية ، فتدارس الأمر مع عماله فاستدعى الولاة فى موسم الحج عام ٣٤ هـ فقدم اليه :

عبد الله بن عامر	عن البصرة
سعيد بن العاص	عن الكوفة
معاوية بن أبى سفيان	عن الشام
عبد الله بن أبى سرح	عن مصر
عمرو بن العاص	وكان بالمدينة

فقال لهم : ان لكل أمام وزراء ونصحاء وانكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا الى أن أعزل عمالى وأن أرجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبون فاجتهدوا رأيكم وأشيدوا على .

فقال عبد الله بن عامر : يا أمير المؤمنين أرى أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وان تجرمهم (١) فى المغازى حتى يذلولوا لك فلا يكون هم أحد الا نفسه .

وقال سعيد بن العاص : احسم عنك الداء ، فاقطع عنك الذى تخاف . ان لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمرا .

فقال عثمان : ان هذا هو الراى لولا ما فيه .

وقال معاوية : أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد فيكفيك كل رجل منهم ما قبله وأكفيك أنا أهل الشام .

وقال عبد الله بن سرح : ان الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم .

وقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين انك قد ركبت الناس بمثل بنى أمية فقلت وقالوا وزغت وزاغوا فاعدل أو اعتزل فان أبيت فاعتزم عزما وأقدم قسما .

فقال له عثمان : « أهذا الجده منك ؟ »

(١) يقال جمر الجيش اذا حبسه فى أرض العدو ولم يفلته من الثغر .

قسكت عمرو حتى تفرقوا •

فقال : والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم على من ذلك ، ولكنى علمت بأن الباب من يبلغ الناس قول كل رجل منا ، فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى فأقود لك خيرا (١) •

عثمان يعزم على منع أعطيات بيت المال عن الناس ليطيعوه :

رد عثمان عماله على أعمالهم وأمرهم بالتضييق على من قبلهم ، وأمرهم بتجوير (٢) الناس فى البعوث وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا اليه كما سبق أن ذكرنا •

مناقشة بين عثمان وعلى بشأن ما عابه الناس :

كتب بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقدموا فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد ، وكثر الناس على عثمان وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون ويسمعون ، ليس فيهم أحد ينهى الا قليل ، فاجتمع الناس وكلموا على بن أبى طالب فدخل على عثمان •

فقال على خطبة طويلة ، ذكر عثمان فيها بصحبته لرسول الله وصهره وعلمه وأن أفضل عباد الله عند الله امام عادل وحذره الله •

ورد عليه عثمان بخطبة طويلة ذكر فيها انه لم يأت منكرا أن وصل رحمه وسدد خله وأوى ضائعا وولى شبيها لما كان عمر يولى •

ثم خرج على وخرج عثمان على أثره فجلس على المنبر وأوضح أن أفة هذه الأمة أنهم عيابون طعانون وأنهم عابوا عليه بما أقروا لابن الخطاب لشدة وأنه لان لهم فاجتروا عليه ، وأمرهم أن يكفوا السننهم وطعنهم على ولاتهم •

حق ولى الأمر فى التصرف فى احتياطي المال العام :

فى ختام خطبة عثمان على المنبر قال •

« ألا فما تفقدون من حقكم • والله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ومن لم تكونوا تختلفون عليه • فضل فضل من مال •

(١) الطبرى - جزء ٤ - ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ •

(٢) تجوير : تجميع •

صالحى لا أصنع فى الفضل ما أريد لما كنت أماما ، (١) .
 أثار عثمان رضى الله عنه بقوله السابق الى أن المالية العامة فى
 عهده حققت فضلة أى فائضا ماليا وفى المالية الحديثة يرحل
 الفائض للسنوات التالية وقد أعلن الخليفة أن امامته للمسلمين تبرر له
 أن يصنع بالفضلة ما يريد ونحن نقر الخليفة على رأيه ولكن بشروط
 منها أن يوجه هذا الفائض لمنفعة عامة تعود على الرعية جمعا ، ويكون
 ذلك بعد استطلاع رأى الخبراء واستشارة من كانوا يقومون مقام السلطة
 التشريعية فى المالية العامة الحديثة فى عهده وهم جماعة صحابة رسول
 الله صلى الله عليه وسلم ، فقد يكون من رأى عدم انفاق هذا الفائض
 وإدخاره ادخارا استثماريا لمقابلة نفقات عامة طارئة تنتاب الدول كالأزمات
 أو الأوبئة أو المجاعات ، والقرآن الكريم يوضح لنا حالة من هذه الحالات
 فى قصة يوسف عليه السلام فادخر المصريون غلة السنوات السمان
 لمقابلة قحط السنوات العجاف .

اتصالات بين المعارضين فى البلاد :

يشرح الطبرى كيفية تجمع المعارضة نتيجة لدعاية ابن سبا فيقول :

« فبث دعائه وكاتب من كان استفسد فى الأمصار وكاتبوه ودعوا
 فى السر الى ما عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
 وجعلوا يكتبون للأمصار سنة ٣٥ يكتب يضعونها فى عيوب ولاتهم
 ويكتبهم اخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر
 بما يصنعون ، فيقرؤ أولئك فى أمصارهم وهؤلاء فى أمصارهم ، حتى
 تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض اذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون
 ويسرون غير ما يبثون فيقول أهل كل مصر : انا لفي عافية مما ابتلى به
 هؤلاء ، الا أهل المدينة فانهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار .

فقالوا : انا لفي عافية مما فيه الناس .

فأتوا عثمان فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أيائك عن الناس الذى
 يأتينا .

قال : لا والله ما جاءنى الا السلامة .

قالوا : فانا قد أتانا وأخبروه بالذى أسقطوا اليهم .

قال : فأنتم شركائى وشهود المؤمنين فأشيروا على .

(١) الطبرى - جزء ١ - نقل عن الواقدي ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

قالوا : نشير عليك أن تبعث رجلا ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا اليك بأخبارهم .

فبعث عثمان ممثلين عنه إلى الأمصار فعادوا وقالوا :
ما أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم (١) .

الخليفة يعرض الأمر على كبار الصحابة (٢) :

خطا الخليفة خطوه ثانية في الوصول إلى علاج للموقف فجمع كبار الصحابة وعرض عليهم الأمر وممن حضر من هؤلاء الصحابة :

علي بن أبي طالب

طلحة بن عبيد الله

الزبير بن العوام

سعد بن أبي وقاص

وشهده كذلك معاوية بن أبي سفيان .

واستهل معاوية الحديث بقوله :

« أنتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيرته وولاه أمر هذه الأمة ، لا يطع في ذلك أحد غيركم ، اخترتم صاحبكم من غير عليه ولا طمع ، وقد كبرت سنة وولي عمره ، ولو انتظرتكم به الهرم كان قريبا ، مع اني أرجو أن يكون أكرم على الله أن يبلغ به ذلك ، وقد فشت قاله خفتها عليكم فما عتبتكم فيه من شيء فهذه يدي لكم به ولا تطمعوا الناس في أمركم ، فوالله لئن طمعوا في ذلك لا رأيتم فيه أبدا الا أدبارا »

فرد على بن أبي طالب موجه الكلام لمعاوية :

« وبالك وذاك وما إدراك لا أم لك » .

فغضب معاوية اذ عرض على ابن أبي طالب بأمره هند .

وقال « دع أمي مكانها ، ليست بشر أمهاتكم » ، قد أسلمت وبأيعت النبي صلى الله عليه وسلم وأجبتني فيما أقول لك .

ثم ناقش عثمان الاعتراضات التي وجهت إليه وقال :

« صدق ابن أخي ان أخبركم عنى وعما وليت ، أن صاحبى اللذين كانا قبلى ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتسابا وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى قرابته وأنا فى رهط أهل عيلة وقلة معاش

(١) الطبرى - الجزء الرابع ، ص ٢٤٦ .

(٢) مقتبس من الطبرى - الجزء الرابع - ص ٣٤٣ ، ٣٤٩ .

فبسطت يدي في شيء من ذلك المال ما أقوم به فيه « ورأيت أن ذلك لي »
فان رأيتم ذلك خطأ فردوه ، فأمرى لأمركم تبع .

فقالوا : أصببت وأحسننت .

وانقض جمعهم وهم راضون .

الخليفة عثمان يضمن بالمال العام لحياتته من القتل :

وبعد الاجتماع سأل الخليفة معاوية بن أبي سفيان رأيه .

فقال معاوية : الرأي أن تأذن لي بضرب أعناق هؤلاء .

فقال عثمان : أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه ولا ذنب.

ركبوه .

قال معاوية : فان لم تقتلهم فأنهم سيقتلونك .

قال عثمان : لا أكون أول من خلف رسول الله في أمته بأهراق.

الدماء .

قال معاوية : فاختر مني إحدى ثلاث خصال .

قال عثمان : ما هي ؟

قال معاوية : أرتب لك ههنا أربعة آلاف من جند أهل الشام يكونون.

لك رداء وبين يديك يدا .

قال عثمان : أرزقهم من أين ؟

قال معاوية : من بيت المال .

قال عثمان : أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين.

لحرز دمي ؟ لا فعلت هذا .

قال معاوية : فثانية .

قال عثمان : وما هي ؟

قال معاوية : فرقهم عنك لا يجتمع منهم اثنان في مصر وأحد.

واضرب عليهم البعوث والتدب حتى يكون وبر بعير أحدهم أهم عليه من.

صلاته .

قال عثمان : سبحان الله ، شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول

الله وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهليهم.

وأبنائهم ! لا أقبل هذا .

قال معاوية : فتالته .

قال عثمان : وما هي ؟

قال معاوية : اجعل لي الطلب بدمك ان قتلت .

قال عثمان : نعم هذه لك . ان قتلت فلا يطل دمي .

من هذا يبين أن الخليفة لم يوافق على اقتراحات معاوية بقتل أصحاب رسول الله بلا ذنب جنوه ولا يريد أن يكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم باراقة الدماء ، ولا يريد كذلك أن يفرق بينهم وهم شيوخ المهاجرين وكبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى ذلك من الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاخلاص لصحابته مما يتفق مع طبيعة الذين في خلق عثمان وماضيه مع الرسول صلى الله عليه وسلم مشاركا ومساهما في نشر الدعوة .

ومن هذا يبين أيضا أن عثمان يضمن بالأموال العامة أن تنفق لحراسته حتى ولو كان في ذلك اعتداء محتمل على حياته كما سبق أن ذكرنا .

جماعات من مصر والكوفة والبصرة تصل المدينة طالبة الإصلاح :

في سنة خمس وثلاثين هجرية خرجت جماعات من الناس من مصر والكوفة والبصرة وذهبت الى المدينة لتطالب الخليفة بالإصلاح ولمواجهة عثمان بما أخذه عليه من مأخذ وزعم هؤلاء الرافضون أنهم يريدون أداء العمرة حتى لا يردهم الخليفة .

توسط على بن أبي طالب بين عثمان وفد مصر وأخبرهم أن عثمان قد تاب . فسأله أهل مصر أن يعزل عهده الله بن سعد ويقيم مكانه محمد بن أبي بكر ، فأبلغ على عثمان بذلك ، وأقنعه فكتب عهده وولاه فعاد وفد مصر .

ثم أعلن عثمان أمام وفدى العراق (الكوفة والبصرة) كذلك بأنه تاب وقال :

« أنا أول من اتعظ ، استغفر الله مما فعلت وأتوب اليه ، فمثلي نزع وتاب ، فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليروا في رأيهم » فوالله لئن ردني الحق عبدا لاستنن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد ، وما عن الله

مذهب الا اليه . فوالله لأعطينكم الرضا ، ولأنحن مروان ولا أحتجب عنكم ثم بكى ، فرق الناس وبكوا حتى اخضبلت لحاهم » .

ولكن هذا الأثر الطيب ما لبث أن تلاشى بسبب خطبة لمروان بن الحكم ، هاجم فيها وفد العراق وفي نفيس الوقت ارتد وفد مصر ثانية عائدا الى المدينة وحاصر مع وفد العراق دار عثمان اثر عثورهم على كتاب يحمله غلام أسود ، كان في الطريق على بعير .

فلما ارتابوا في الغلام وفتشوه وجنوا معه كتاب وهو من عثمان ابن عفان الى عبد الله بن سعد يدعوه الى قتل جماعة زعماء المصريين ومنهم محمد بن أبي بكر .

الوفود تطالب بعزل عثمان وتهده :

وقد أنكر عثمان صدور هذا الكتاب منه (١) .

طالب وفد مصر بخلع الخليفة فعارضهم عثمان وأبى أن يخلع نفسه وقال :

« لا أنزع قميصا ألبسنيه الله ، ولكنى أتوب وأنزع » .

فأجابوه بأنها لو كانت التوبة الاولى لكان في امكانهم قبولها ، ولكنهم رأوه يتوب ثم يعود وأعلنوا عن تصميمهم على موقفهم وعدم استعدادهم للعودة الا بخلعه أو قتله أو الاستشهاد .

وكتب عثمان الى معاوية بن أبي سفيان وابن عامر وأمرأه الاجناد يستنجدهم ويأمرهم بالمبادرة بإرسال الجنود اليه .

لم يبادر معاوية بإرسال الجنود اليه وأبطأ الباكون في الوصول ولا استبطأ عثمان وصول النجدة استلجيم على ابن أبي طالب وماله أن يحمية من جمهور الأمصار على أن يحقق لهم ما يريدون .

خرج على الى الناس وطلب منهم أن يمهلوا عثمان ثلاثة أيام حتى يحقق لهم مطالبهم فكف الناس عنه ولكن انتهى الأجل ولم يحقق عثمان الإصلاح المطلوب فاشتد غضب الناس عليه وإنضم اليهم جماعة من أهل المدينة وطالبوا عثمان من جديد بأن يعزل عماله ويرد مظالمهم أو يخلع نفسه أو يقتلوه .

رفض عثمان أن يرغموه على عزل عماله لان في ذلك اضعاف لهيبة الخليفة وانتقاص من مكانته ورفض أن يخلع نفسه قائلا :

« لا أنزع شربالا سربلنيه الله » .

(١) تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٨٥ . من ابن الأثير - ج ٣ - ص ١٦٤ .

وعزم القوم على قتله اذ خافوا أن تأتية نجدات من الأمصار ويأتية
الحجاج فيهلكوا فشددوا عليه الحصار وتولى الدفاع عن باب داره نحو
مائة نفر على رأسهم الحسن بن علي وابن عباس ومحمد بن طلحة وعبد الله
ابن الزبير وعبد الله بن سلام ومروان بن الحكم وأبو هريرة .

قتل عثمان :

منع الثوار الماء عن عثمان وأهل بيته وعز على عثمان أن يمنع
الناس الماء عنه فأشرف عليهم وذكرهم بأنه هو الذي كان قد اشترى
بئر رومة من ماله ليستعذب بها !

كما رجاهم ألا يمنعوه من الصلاة في جامع الرسول ، وهو الذي
اشترى موضع خمس سوار زادها في المسجد في حياة الرسول .

أتى المحاصرون لدار عثمان أنباء عن قرب وصول المدد من الأمصار
كما أن الحجاج الذين وردوا لاداء مناسك الحج يريدون الدفاع عن عثمان
فقرروا حسم الأمر وقتل عثمان .

فقولوا عند باب دار عثمان بمقاومة عنيفة من أبناء الصحابة
والمدافعين عن عثمان وجرح بعض المدافعين .

أشعل الثوار النار بالباب وعلى السقيفة المتصلة به ، ولما علم
عثمان بذلك طلب من المدافعين عنه أن يكفوا اشتغافا عليهم من القتل
ولكنهم أبوا واقتحم الثوار دار عثمان من دار عمرو بن حزم الملاصقة
لداره دون أن يشعر بهم المدافعون عن عثمان .

ودخل عليه محمد بن أبي بكر وأخذ بلحيته وهزها بيده وقال :
« يا نعثل (١) ما أغنى عنك بمعاوية وما أغنى عنك بن عامر
وابن أبي سرح » .

فقال له عثمان :

« لو رأي أبيك رضى الله عنه لبكأنى ولساء مكانك منى » .

فتراخت يده ابن أبي بكر عنه .

وأتقن عثمان أنه هالك لا محالة فأخذ مصحفاً فوضعه على حجره
ليتحرم به .

(١) نعثل : رجل من أهل مصر كان طويل اللحية قيل الله كان يشبه عثمان رضى الله
عنه . انظر هامش ، ص ٣٦٥ ، الطبرى - الجزء الرابع .

واستعمل الثوار أقسى صنوف القتل والمهانة مع عثمان فوخزه
أحدهم بمشقص في يده فأدماه ، وجاء آخر وضربه برجله وجاء ثالث.
فوجأه بقائم سيفه فغشى عليه فلما أفاق أقبل أحدهم فأخذ بلحينه
وانتزع منها خصلة ، وعلاه بالسيف وضربه آخر بعمود على جبهته ثم
دخل آخر وسل سيفه وهوى به على عثمان فاتقت زوجته نائلة السيف.
بيدها فقطع أصابعها ، وكان بعثمان رمق فطعنه آخر تسع طعنات وأجهز
عليه ومال عليه أحدهم وخضخض السيف في أحشائه .

وبكاه الصحابة وبقي عثمان ثلاثة أيام لا يدفن ثم تولى دفنه على
وطيحة وجماعة من الصحابة فوضعوا جثته على لوحة باب ودفنوه بجسر
كوكب أو حوش كوكب .

وأرسلت نائلة قميص عثمان ملطخا بالدم ممزقا والخصلة التي
انزعمت من لحيته الى معاوية وبذلك قتل عثمان شهيدا وتحققت نبوءة
الرسول صلى الله عليه وسلم وانفتح باب الفتنة الكبرى الذي كان موصدا
في عهد عمر بن الخطاب ، تلك الفتنة التي هاجت موج البحر .

الفصل الثاني

الآثار المالية للفتنة

وتقييم السياسة المالية

لعثمان بن عفان

من آثار الفتنة في عهد عثمان نهب جزء من الأموال العامة من بيت المال : -

- ورد عن بيت مال المسلمين في رواية عبد الملك بن عمير بشأن تفاصيل حادث مقتل عثمان بن عفان ما يلي ■

■ وتنادى الناس في دار عثمان ■ أدركوا بيت المال لا يسقوا اليه ، -

وسمع أصحاب بيت المال أصواتهم وليس فيه الا غرارتان ، فقالوا : « النجا فان القوم انما يحاولون الدنيا » فهربوا .

• وأتوا بيت المال (أى الثائرين) فانتهبوه (١) .

- وورد في رواية أخرى :

• أنه قبل مقتل عثمان أمر ابن عباس بالحج بالناس .

• « فخرج ابن عباس فمر بعائشة في الصلصل »

فقالت : يا ابن عباس ، أنشدك الله - فانك قد أعطيت لساناً أزعيلاً (ذلقاً) - أن تخذل عن هذا الرجل ■ (أى عثمان) ، وأن تشكك فيه الناس ، فقد بانت له بصائرهم وأنهجت (وضحت) ، ورفعت لهم المنار ، وتحلبوا من البلدان لامر قد حم ، وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح ، فان يل يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر .

قال : قلت يا أمة ، لو حدثت بالرجل حدث ما فزع الناس الا الى صاحبنا (يقصد على بن أبى طالب) .

فقالت : أيها عنك ! انى لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك (٢) .

(١) عثمان ذو النورين ، مرجع سابق ، ص ١٩٥ .

(٢) الطبرى - جزء ٤ - ص ٤٠٧ .

- وورد في رواية نائلة جينما استتحت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها الناس لموقعة الجمل فيما بعد قالت عن مقتل عثمان رضى الله عنه .
 « ان الغوغاء من أهل الأمصار وعبيد أهل المدينة ، قد سفكوا الدم الحرام واستحلوا الجنبه الحرام وأخذوا المال الحرام ٠٠٠ » (١) .
 فأطلقت المال الحرام ولم تخصصه مما يقصده به المال العام والمال الخاص .

وللتوفيق بين هذه الروايات الثلاث بشأن نهب الغوغاء لبيت المال نقرر أن بعض خزائن بيت المال قد نهبت بدلبسل ما ورد في الرواية الأولى من أنه لم يكن به الا غرارتين وهو مال قليل بالنسبة لبيت مال المسلمين في عهد عثمان الذي زادت فيه الايرادات العامة زيادة كبيرة ، والبعض الآخر كانت مفاتيحه كما قررت عائشة مع طلحة بن عبيد الله وهذا يسعونا لبحث سبب استيلاء طلحة بن عبيد الله على مفاتيح باقى خزائن بيت المال .

لماذا أخذ طلحة بن عبيد الله مفاتيح بيت المال وقت حصار عثمان ؟

يذكر الطبرى أنه لما حصر عثمان دعا على بن أبى طالب فحضر وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال : أما بعد فإن لى عليك حقوقاً حق الاسلام وحق الأخاء وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين آخى بين الصحابة آخى بينى وبينك ، وحق القرابة والصهر ، وما جعلت لى فى عنقك من العهد والميثاق . فوالله لو لم يكن من هذا شىء ثم كنا إنما نحن فى جاهلية ، لكان مبطاً على بنى عبد مناف أن يبتزهم أخو بنى تميم ملكهم - يقصده طلحة بن عبيد الله - .

فتكلم على فحمد الله وأثنى عليه .

ثم قال : أما بعد فكل ما ذكرت من حقك على ما ذكرت ، أما قولك لو كنا فى جاهلية لكان مبطاً على بنى عبد مناف أن يبتزهم أخو بنى تميم ملكهم فصدقك وسيأتيك الخبر .

وخرج على يمشى الى دار طلحة بن عبيد الله وهى دحاس من الناس (أى ممثلة بهم) فقام طلحة اليه .

فقال على : يا طلحة ما هذا الأمر الذى وقعت فيه ؟

فقال طلحة : يا أبا الحسن بعد ما مس الحزام الطبيين .

فانصرف على حتى أتى بيت المال .

فقال على : افتحوا هذا الباب .

فلم يقدر على المفاتيح .

فقال على : اكسروه .

فكسر باب بيت المال .

فقال على : أخرجوا المال .

فجعل يعطي الناس ، فبلغ الذين فى دار طلحة الذى صنع على .

فجعلوا يتسللون اليه حتى ترك طلحة وحده .

وبلغ الخبر عثمان بن عفان فسر بذلك .

ثم أقبل طلحة يمشى عائدا الى دار عثمان ، فاستأذن فلما دخل عليه .

قال : يا أمير المؤمنين ، استغفر الله وأتوب اليه ، أردت أمرا

فحال الله بينى وبينه .

فقال عثمان : انك والله ما جئت تائبا ، ولكنك جئت مغلوبا .

الله حسبيك يا طلحة (١) .

فما سبق يتضح أن طلحة لما حصر عثمان وفى أثناء الفتنة استولى

على مفاتيح بيت المال كمقدمة لأيلولة الخلافة اليه ويؤيد ذلك رواية بعض

المؤرخين أن طلحة بايع على بن أبى طالب كرها (٢) .

ومما سبق كذلك يتضح أهمية بيت المال فى شئون الخلافة

واتجاهات الناس ، فلما كانت مفاتيح بيت المال مع طلحة كان بعض

الناس حوله ، ولما فتح على رضى الله عنه بيت المال ووزع منه على الناس

تسلل من كان فى دار طلحة الى على رضى الله عنها .

من آثار الفتنة فى عهد عثمان اهتزاز ثقة الممولين بولائهم .

عكست الفتنة أثارها على الممولين أنفسهم ، فبعد أن كانوا يؤدون

صدقات أموالهم لبيت مال المسلمين طوعية قريرة بأدائها أعينهم وطيبة

بدفعها أنفسهم ، اختلفوا فى الفتنة وبعدها هل يؤدونها الى بيت المال

(١) الطبرى - الجزء الرابع - ص ٤٣٠ ، ٤٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٣٠ .

أو يقومون بتوزيعها بأنفسهم على مصارفها مسندين في ذلك الى أن بعض
الأمراء والولاة يضعونها في مواضعها .

— فعن ابن سيرين قال :

« كانت الصدقة ترفع أو قال : تدفع الى النبي صلى الله عليه
وسلم أو من أمر به وإلى أبي بكر أو من أمر به وإلى عمر أو من أمر به
وإلى عثمان أو من أمر به فلما قتل عثمان اختلفوا ، فكان منهم من يدفعها
اليهم ومنهم من يقسمها وكان ممن يدفعها اليهم ابن عمر » (١)

ومن الأحاديث التالية تتضح المشاعر التي انتابت نفوس بعض
المولدين أثناء الفتنة وبعدها وأسباب عدم طواعيتهم في الأداء لبيت
المال .

— ففي أثناء الفتنة نفسها ونتيجة لانعكاساتها على المولدين تردد
بعض الناس في الاداء لبيت مال المسلمين .

فقد سأل الربيع بن معبد ابن عمر في الفتنة عن صدقة مال أيتام
أيدفعها الى بنى عم لهم محتاجين ؟

فقال ابن عمر : لا أدفعها الى الولاة (٢) .

— وبسبب ما أشيع من أن السلطان يسرف ولا يرشد الانفاق
العام تولد الشك في نفوس بعض المولدين وترددوا بين أدائها لبيت المال
أو قيامهم بتوزيعها بأنفسهم على مصارفها ضمانا لسلامة أداء الزكاة وهي
أحدى فرائض المسلمين وهم مطالبون شرعا بحسن الأداء .

فعن سهل بن أبي صالح عن أبيه قال :

« سألت سعد بن أبي وقاص وأبا هريرة وأبا سعيد الخدري
وإبن عمر فقلت : ان هذا السلطان يصنع ما ترون أفادع زكاتي
اليهم (٣) »

قال فقالوا كلهم : ادفعها اليهم .

هبوط قدسية المال العام بعد الفتنة التي وقعت في عهد عثمان :

« وما انعكس أثره على المالية العامة كنتيجة للفتنة » الخلاف الذي
وقع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان بشأن مطالبة الأخير بدم

(١) الاموال لأبي عبيد ، ص ٦٧٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٨٠ .

(٣) الاموال لأبي عبيد ص ٦٧٩ .

عثمان واتخاذ معاوية هذا الطلب تكأة لتحقيق طموحه في نزع الخلافة من رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب ، فقد أدى هذا الخلاف الى اتخاذ معاوية المال العام وكان واليا على الشام وسيلة من الوسائل لتحقيق طموحاته ، فكان ينفق منه على من يستجيب للانضمام اليه ، وبذلك مال المال العام عن تحقيق رسالته الاساسية وهي أن يوجه انفاقه نحو المصلحة العامة للرعية وتحول بعضه الى وسيلة لانتزاع السلطة ، فشاع بين الناس الاسنخفاف بقدسية المال العام وامكان استخدامه كوسيلة لزيادة الأتباع وجذب الأنصار ، وقد أدى هذا الخلاف الذي أسفرت عنه الفتنة الى مناوشات وحروب بين الفريقين ، فبعد أن كان المال العام يوجه الى فتوحات لنشر دعوة الاسلام وتحقيق النصر على الأعداء وحصول جند الاسلام على غنائم ينال بت المال خمسها ، ويؤول اليه ايرادات عامة من جزية وخراج البلاد المفتوحة ويدفع الزكاة من أسلم من أهلها ، أصبح المال العام يوجه الى حروب يقتل المسلمون فيها بعضهم بعضا ، وماهكذا يستخدم المال العام في المالية العامة الاسلامية ، لانه بذلك ينأى عن رسالته التي خصصه الله لها وهي أن ينفق على الاصلاح والتعمير في الحياة الدنيا وحسن الجزاء وطيب المثوبة في الحياة الأخرى .

نتيجة للفتنة وفي عهد معاوية فقدت المالية العامة بعض سماتها الاسلامية :

وكان من آثار الفتنة كذلك ونشوء الخلاف بين علي ومعاوية ومقتل علي بن أبي طالب وتولى معاوية الحكم ان حاد معاوية بعض الشيء عن منهج الخلفاء الراشدين في ادارة المالية العامة في عهده . فمعاوية « أول من أقام الحرس والشرطة والقوانين في الاسلام ، وأرض الستور » واستكتب النصارى ، ومشى بين يديه بالحراب وأخذ الزكاة من الأعطية ، وجلس على السرير والناس تحته ، وجعل ديوان الخاتم ، وبنى وشيد البناء وسخر الناس في البناء ولم يسخر أحد قبله ، واستصفى أموال الناس فأخذها لنفسه . وكان سعيد بن المسيب يقول : فعل الله بمعاوية وفعل قانه أول من أعاد هذا الامر ملكا . وكان معاوية يقول : « أنا أول الملوك » (١)

ومما سبق يبين أن الاتفاق العام في عهد معاوية لم يوجه كله للتوجيه الرشيد الذي كان يلتزم به الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم ، وانما نزع بعضه الى اشباع مظاهر خيلاء الحكم وأبهة السلطان واقامة الحجب بين الحاكم والرعية والتعالى عليها . وفقدت المالية العامة الاسلامية سمات طيب الأموال وترشيد الاتفاق واستعفاف الحكام .

(١) تاريخ الدولة العربية ، السيد عبدالعزيز سالم ، ص ٣٣٠ ، نقلا عن يعقوبى -

تقييم عام للسياسة المالية

في عهد عثمان بن عفان

إذا قيمنا سياسة المالية العامة في عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، في ضوء ما سبق فإننا نصل الى النتائج التالية :

ـ كانت المالية العامة في عهد عثمان بن عفان مالية عامة اسلامية تحصل الزكاة المستحقة على المسلمين والجزية والحراج من أهل الكتاب ويؤول اليها خمس غنائم فتوحات الاسلام وعشور التجارة على التجار غير المسلمين ، وتنفق على ادارة الدولة ومصالح الرعية وعلى الفقراء والمساكين واليتامى وغيرهم من الضعفاء تنفيذا لنصوص القرآن وتطبيقا لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ـ ساندت المالية العامة في عهد عثمان بن عفان نشر دعوة الاسلام فرزقت الجند واشترت السلاح والكرام ومولت لأول مرة في تاريخ الاسلام انشاء أسطول بحرى مما كان له الأثر الهام في اتساع الفتوح وتحقيق نصر الله والفتح .

ـ ساهمت المالية العامة في عهد الخليفة الثالث في توسعة وصيانة وتعمير بيوت الله في الأرض وهي المساجد خصوصا بيت الله الحرام بمكة ومسجد الرسول بالمدينة فحققت رسالة الاسلام في اقامة الصلاة وأداء الحج ودراسة القرآن والتفقه في أحكام الدين .

ـ لولا تطوع الصحابة لتجميع القرآن لقامت المالية العامة بالتمويل ، فتحقق بذلك قول الله جل وعلا :

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (الحجر / ٩) .

اذ لولا توحيد رسم المصحف في ظل اختلاف اللهجات لتطرق التحريف والتبديل بحسن نية اليه نتيجة تمسك أصحاب كل لهجة بنطقها مما كان سيثير النقاش الذي قد يؤدي للاختلاف .

ـ حققت المالية العامة في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه التوازن المالى ففاضت الايرادات العامة عن النفقات العامة مما مكن من الاستمرار في نظام الاعطيات الذى بدأه أبو بكر الصديق وطوره عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، ولكن لم يتطور نظام العطاء بما يحقق نوايا

عمر بن الخطاب بأنه لو عاش لجعل الناس بيانا واحدا ، فوهن نتيجة لذلك أثر العطاء في تحقيق التوازن الاجتماعى فى عهد عثمان .

— ممولو المالية العامة فى عهد عثمان رضى الله عنه كانوا يؤدون ما عليهم لبيت المال ، المسلمون منهم يؤدون الزكاة تنفيذا لكتاب الله والذميون يؤدون الجزية والخراج تنفيذا لمعاهدات الصلح وما اتفق عليه بين رؤسائهم وقادة الفتوح فى الاسلام . وقد تختلف بعض ممولى الأمصار من أهل الكتاب عن الأداء فى أول عهد عثمان الا أنهم عادوا وأدوا لبيت المال ما عليهم بعد أن أجبرتهم جيوش الاسلام على الأداء .

— اتسمت المالية العامة فى السنوات الأولى من عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه بالاستقرار نتيجة تنفيذه وصية عمر بعدم تغيير ولاته لمدة سنة ونتيجة لزيادة العطاء أول عهد عثمان فاستبشر الناس ولما اتسم به الخليفة من لبس محبب الى الرعية ، بعد حزم عمر وسدته فى الحق .

— لم تعدل السياسة المالية العامة فى عهد عثمان لتحقيق ما نواه عمر بن الخطاب من أخذ فضول الأغنياء وتوزيعها على الفقراء ، الأمر الذى كان سيساهم فى تقليل الفروق بين الأغنياء والفقراء تلك الفروق التى بدأت تتسع فى أواخر عهد عمر بن الخطاب وزاد اتساعها فى عهد عثمان فأخل ذلك بالتوازن الاجتماعى .

— لم تستجب المالية العامة فى عهد عثمان لدعوة أبى ذر الغفارى ومن أيدته من الصحابة رضى الله عنهم التى تتضمن أن للفقراء حقا فوق الزكاة فى أموال الأغنياء وبذلك تركت المالية العامة طائفة من الفقراء المسلمين يشعرون بأنهم لا ينالون كل حقوقهم من الأغنياء ، ولو استجابت المالية العامة لدعوة أبى ذر باستقطاع جزء من أموال الأغنياء فوق الزكاة لسكنت نفوس الفقراء ولساهم ذلك فى التقارب الاجتماعى بين طبقتى الأغنياء والفقراء . ولكن عثمان رضى الله عنه كان يرى أن لا يحمل الناس على الزهد ما داموا يؤدون الفرائض .

— عكس عدم الاستقرار السياسى فى أواخر عهد عثمان بن عفان أثره على المالية العامة ، وساهمت عوامل مختلفة فى نشوء فتنة كبرى كان الخليفة السابق عمر بن الخطاب قد خشى احتمال وقوعها ، فلما وقعت كان سببا فى انفاق جزء من الأموال العامة على حروب بين المسلمين بسبب نزاع على الخلافة بعد عثمان ، فبدأ العامل السياسى يتدخل فى حركة المالية العامة فأبعدها فيما بعد رويدا رويدا عن سمة الترشييد المطلق التى تتسم بها المالية العامة الاسلامية .

— لا تنسى المالية العامة مآثر عثمان بن عفان عليها ، فقد قام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بما يقوم به عادة بيت المال وكان بيت مال المسلمين وقتئذ قليل الموارد فقد مول عثمان غزوات الاسلام من ماله الخاص وسقى المسلمين ماء عذبا من بئر اشتراه متطوعا بأمواله وساهم في توسيع مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وقدم للمسلمين الغذاء حينما أحاق بهم المجاعة أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

— تأثرت المالية العامة في عهد عثمان بعناصر شخصيته التي نوهنا عنها في مطلع البحث (١) فتقواه وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وخبراته السابقة جعلته يطبق بصفة عامة المالية العامة الاسلامية ويمول جيوش الاسلام لنشر دعوة الاسلام ويعمر المساجد وينفق على الحج سنويا ويرفض اقتراحا لمعاوية بإرسال أربعة آلاف من الجنود لحراسته خشية القاء عبء نفقاتهم على بيت مال المسلمين وتأثرت المالية العامة بحياة عثمان ولينه وشيخوخته فطبقها تطبيقا تقليديا فلم يصدر قرارات مالية من شأنها أن تطبق نوايا عمر المالية وتأخذ بأراء أبي ذر الاشتراكية وتحد من تطلعات بعض الصحابة والولاة الدنيوية وتصد رياح الفتنة الفوغائية . وتأثرت المالية العامة بنشأة عثمان نشأة ثراء وتعوده على السخاء . فكان يرى أنه اذا فضلت من بيت مال المسلمين فضلة فإن ولايته تعطيه الحق في أن يفعل بها ما يشاء في حدود أحكام الدين .

— وتأثرت المالية العامة في عهد عثمان بالمقدمات التي سبقت عهده (٢) أيضا وكان أثر بعض هذه المقدمات ايجابيا والبعض الآخر سلبيا فمن الأثر الايجابي ارجاع الأمصار التي نقضت عهد المسلمين الى طاعة الدولة وزيادة الفتوح الاسلامية مما عكس أثره على زيادة موارد بيت المال ، ونتاج أثر سلبى حدث كنتيجة لعدم معالجة عثمان رضي الله عنه لتفاعل بعض المقدمات في عهده منها عدم الحذر من تطلعات بعض الصحابة والولاة وعدم قدرته على متابعة عمر في تقشفه وزهده والاستعانة ببعض أقاربه في بعض المناصب الكبرى مما أظهر التنافس الكامن بين آل هاشم وآل أمية وصبر عثمان على دعاة الفتنة في الولايات فوقعت الفتنة كما تنبأ بها عمر وانفتح بابها الموصد وعكست تلك الفتنة آثارها السلبية على المالية العامة بعد ان أدت الى قتل عثمان نفسه كما تنبأ بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) انظر الفصل الأول من الباب الأول .

(٢) انظر الفصل الثاني من الباب الأول .

— ولا تنسى المالية العامة فى عهد عثمان بن عفان المبادئ الخالدة التى أرساها بعض الصحابة رضى الله عنهم بشأن المال العام .

فقد دعم أبو ذر الغفارى ومن وآله من الصحابة مبدأ التكافل الاجتماعى وهو من مبادئ الاسلام الهامة عن طريق الدعوة لاستقطاع بيت مال المسلمين جزء من أموال أغنيائهم تكفى للانفاق على ضرورات فقرائهم .

ودعم عبد الله بن مسعود ومن سار على نهجه مبدأ التعفف عن المال العام حتى ولو كان ذلك لكفالة بنائه بعد موته مؤثرا أن يورثهم التقوى بدلا من المال العام ، فلم يقبل عطاء من بيت المال عرضه عليه الخليفة عثمان ، لأن أبا البنات عبد الله بن مسعود علمهن سورة الواقعة لتقيهن من الفقر بعد موته .

ودعم عبد الرحمن بن عوف ومن أيده من الصحابة رضى الله عنهم مبدأ رقابة الأمة الاسلامية على المال العام ، حينما أعاد توزيع ابل الصدقة بحيث تصل الى مستحقيها الذين نوه عنهم قرآن الله الكريم .

رحم الله عثمان بن عفان ورضى الله عنه وعن الصحابة جميعا وصلى الله على رسوله الكريم سيدنا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين (١) .

تم بعون الله
قطب ابراهيم محمد

(١) نأمل أن يوفقنا الله جلا وعلا لمعالجة موضوع « السياسة المالية للرسول صلى الله عليه وسلم » فى مؤلف مستقل ان شاء الله .

بعض المراجع

- القرآن الكريم
- معجم الفاظ القرآن الكريم : المجلد الأول والثاني - صادر عن . مجمع اللغة العربية .
- الدليل الكامل لآيات القرآن الكريم : د . حسين محمد فهمي الشافعي - صادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- مختصر تفسير ابن كثير : محمد علي الصايوني - دار القرآن الكريم بيروت .
- المنتخب في تفسير القرآن الكريم : صادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- صحيح البخاري : تأليف أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- المنتخب من السنة : المجلد السادس - صادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- تاريخ الطبري : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري - طبعة رابعة - دار المعارف .
- تاريخ الدولة العربية : د . السيد عبد العزيز سالم - مؤسسة الثقافة الجامعية بالاسكندرية .
- فتوح مصر وأخبارها : لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ابن أعين القرش المصري .
- الخلفاء الراشدون : عبد المقصود نصار وآخرون - مطبعة دار الطباعة المحمدية .
- الخلفاء الراشدين في الإسلام : عبد الخالق أبو رابية - طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم : عبد المنعم حماده - أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- رجال حول الرسول : خالد محمد خالد - دار الكتب الحديثة .

- . بطله كربلاء زينب بنت الزهراء : بنت الشاطئ - طبعة دار الهلال .
- . عثمان ذو النورين : محمد رضا - الطبعة الثانية - مطبعة عيسى البالي الحلبي وشركاه .
- . عثمان بن عفان : د . محمد حسين هيكل - طبعة ثانية - دار المعارف .
- . عثمان بن عفان ذو النورين : عباس العقاد - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت .
- . وداعا عثمان : خالد محمد خالد - دار المعارف .
- . الخراج : للقاضي أبي يوسف يعقوب بن ابراهيم - المطبعة السلفية .
- . الأموال : لأبي عبيد القاسم بن سلام - المطبعة السلفية .
- . السياسة المالية لعمر بن الخطاب : قطب ابراهيم محمد - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- . النظم المالية في الاسلام - طبعة نانية : قطب ابراهيم محمد - صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- . النظم المال الاسلامي : د . بدوي عبد اللطيف عوض - مطابع الاهرام التجارية .
- . الموازنة العامة للدولة - طبعة ثالثة : قطب ابراهيم محمد - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- . الاقتصاد الاسلامي مذهباً ونظماً : جزء أول وثان تأليف د . ابراهيم الطحاوي - من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية .
- . الاسلام واهل الدمة : د . حسن الحروبلى - المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
- . من اخلاق النبي : د . محمد الحوفى - المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
- . النظم الاسلامية : د . محمد عبد الله العربى - من مطبوعات معهد الدراسات الاسلامية .
- . نحن المعمرين : حسن عبد السلام .
- . شخصيات خالدة في الاسلام : عبد المقصود حبيب - المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
- . الاطار الاخلاقى لمالية المسلم : قطب ابراهيم محمد - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
الباب الأول :	٩
الفصل الأول : مبايعة عثمان بن عفان بالخلافة	١٠
الفصل الثاني : مقدمات تصدرت عهد عثمان	٢٩
الباب الثاني :	٥٣
الفصل الأول : السياسة المالية المعلنة لعمان	٥٤
الفصل الثاني : تنفيذ السياسة المالية الاسلامية	٧١
تصوير وتنفيذ موازنة الزكاة	٧٥
الباب الثالث :	١٠٠
الفصل الأول : إيرادات الجزية والخراج وعشور التجارة	١٠١
الفصل الثاني : نفقات المصالح العامة	١٢٤
الباب الرابع :	١٥١
الفصل الأول : تحقيق فائض المالية واستمرار نظام الأعطيات	١٥٢
الفصل الثاني : احتراز اجتماعي وتعديلات كانت لازمة	١٦٤
الباب الخامس :	١٨١
الفصل الأول : الفتنة الكبرى في عهد عثمان	١٨٢
الفصل الثاني : الآثار المالية للفتنة وتقييم السياسة المالية	١٩٥
تقييم عام للسياسة المالية	٣٠٠
المراجع	٣٠٤

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٧٨٩ / ١٩٨٥

ISBN — ٩٧٧ — ٠١ — ٠٧٧٦ — x

في ظلال القرآن المجيد وهدى سنن الرسول الكريم واستناداً
لوقائع التاريخ الإسلامى وفي إطار من الفن الحالى الحديث
يبرز مؤلف كتاب « السياسة المالية لعثمان بن عفان » أسس
المالية العامة للدولة الإسلامية في عهده ، ويحلل مدى تأثيرها
بشخصية الخليفة وصحابة الرسول وتنبؤات وأوضاع عامة
سبقت الخلافة الثالثة وأطلت عليها .
يحلل المؤلف الأوضاع المالية والاقتصادية والاجتماعية والدينية
ويشيد بالإيجابيات وينقد السلبيات ويتخذ من ذلك معبرة
لمناقشة خلل إلماليات العامة الحديثة وينتهي بوضع تقييم عام
للسياسة المالية في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله
عنه .